جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

صورة السماء والأرض في القرآن الكريم
(دراسة بلاغية)

إعداد
نوال علي عبدالرحمن خضر

إشراف
أ.د. خليل عودة

قدمتْ هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس. فلسطين.

2011

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ت
الشكر والتقدير	ث
إقرار	ج
فهرس المحتويات	ح
الملخّص :	ذ
المقدمة :	1
الفصل الأول: السماء والأرض عند العرب قبل الإسلام	4- 59
مدخل ...	4
المبحث الأول: السماء والأرض في الشعر الجاهلي .	7- 42
- صورة السماء .	8
- صورة الأرض .	24
المبحث الثاني: السماء والأرض في الفكر الأسطوري .	43 - 55
- صورة السماء .	46
- صورة الأرض .	51
المبحث الثالث: دلالات مشتركة بين الفكر الأسطوري والشعر الجاهلي .	56 - 59
الفصل الثاني: السماء والأرض في القرآن الكريم	61 - 127
مدخل ...	61
المبحث الأول: صورة خلق السماء والأرض .	62
المبحث الثاني: صورة الزمن .	84
المبحث الثالث: صورة الماء والإحياء .	94
المبحث الرابع: صورة تسبيح المخلوقات .	107
المبحث الخامس: مشاهد السماء والأرض يوم القيامة .	116
الفصل الثالث: السماء والأرض: دراسة فنية	129 -200
– التصوير الفني في القرآن الكريم .	129

المبحث الأول: التعبير بالحقيقة .	**133**
المبحث الثاني: التعبير بالمجاز .	**143**
المبحث الثالث: أساليب التعبير الخبري والإنشائي .	**160**
المبحث الرابع: التعبير بالصورة البلاغية:	**189**
- التشبيه .	**191**
- الكناية .	**197**
الخاتمة .	**201**
فهرس الآيات.	**204**
فهرس الأشعار.	**219**
المراجع والمصادر .	**223**
الملخص باللغة الانجليزية .	**B**

صورة السماء والأرض في القرآن الكريم

(دراسة بلاغية)

إعداد

نوال علي عبدالرحمن خضر

إشراف

أ.د خليل عودة

الملخّص

تتناول هذه الدراسة صورتي السماء والأرض في القرآن الكريم، وذلك وفق المنهج البلاغي الذي يكشف أسرار التعبير القرآني والإعجاز البياني في أسلوبه، وتتميز هذه الدراسة بأنّها دراسة تحليلية وتطبيقية على مختلف جوانب الموضوع.

وقد كانت الدراسة موزّعة على ثلاثة فصول ، وعليه ، جاءت هذه الدراسة على النحو الآتي:

1. الفصل الأول: ويتحدث عن السماء والأرض عند العرب قبل الإسلام، حيث بينت فيه صورة السماء والأرض في الشعر الجاهلي، وصورة السماء والأرض في الفكر الأسطوري، ثم توصّلت في النهاية إلى الدلالات المشتركة بين الفكر الأسطوري والشعر الجاهلي، وكلّ هذا أدى إلى تكوين صورة متكاملة عن العقلية العربية قبل الإسلام تجاه الطبيعة والكون من حولهم.

2. الفصل الثاني: وتتبعت فيه صورة السماء والأرض في القرآن الكريم من خلال صور متعددة أسهمت في إظهارها، من صورة خلق السماء والأرض، وصورة الزمن، وصورة الماء والإحياء، وصورة تسبيح المخلوقات، ثمّ مشاهد السماء والأرض يوم القيامة، ممّا جعل الصورة ككلّ لوحة فنية متعددة الدلالات.

3. الفصل الثالث: درست فيه التصوير الفني وذلك من خلال الوقوف على القضـــايا البلاغيـــة المؤثرة، ومنها التعبير بالحقيقة، والتعبير بالمجاز، وأساليب التعبير الخبـــري والإنشـــائي، والتعبير بالصورة البلاغية المعتمدة على التشبيه والكناية. حيث بروز التناسق الفنـــي بـــين جوانب الصّور المختلفة بصورة واضحة تترك أثرها في النفس.

المقدمة:

الحمد لله والفضل من الله، والعون عونه، والهدى هداه، والصلاة والسلام على نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين إلى يوم الدين وبعد:

فهذه الدراسة بلاغية في صورتي السماء والأرض في القرآن الكريم، حيث دفعني حبّ البلاغة العربية والبحث في جماليات التعبير القرآني وأسراره إلى انتقاء هذا الموضوع، واختيار القرآن ليكون ميداناً خصباً للتنقيب في أسلوبه، وقوة نظمه، وبراعة استهلاله؛ بهدف الكشف عن عجائب الصّور الفنيّة وجمالياتها واللمسات البيانية التي ينطق بها نسيجه المحكم وأسلوبه البديع.

والدراسات البلاغية التي تناولت القرآن الكريم لم تفرد دراسة مستقلة لصورتي السماء والأرض، وإنّما تناولت الأساليب البلاغية فيهما بشكل عام تارةً، وتناولاً عابراً تارةً أخرى. وعليه ومن أجل الوصول إلى دراسة متكاملة بشأن الصورتين ، ولتوفير عناء البحث عن متطلباتهما واستخراجهما من مكامنهما، فقد تعاملت مع الدراسة من خلال استخدام المنهج الوصفي التحليلي للوصول إلى لوحة ناطقة بالجمال.

وقد تنوعت مصادر البحث ومراجعه قديمه وحديثه، فاستفدت من الدراسات البلاغية وبخاصة تفسير الزمخشري "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل"، كما نهلت من كتب التفسير القرآني الأخرى وخاصة تفسير ابن كثير "تفسير القرآن العظيم" ، وتفسير الألوسي "روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني"، وتفسير ابن عاشور "تفسير التحرير والتنوير"، وتفسير "في ظلال القرآن"لسيد قطب ، وتفسير الصابوني "صفوة التفاسير"، وغيرها.

وقد استفدت من الدراسات الحديثة في إعجاز القرآن وبيانه، مثل كتاب "التصوير الفني في القرآن" لسيّد قطب، وغيره ،على الرغم من أنّ تلك الدراسات لم تتناول الموضوع تناولا تفصيليّاً شاملا.

وقد قسّمت بحثي ثلاثة فصول وخاتمة على النحو الآتي:

الفصل الأول: بحثت فيه "صورة السماء والأرض عند العرب قبل الإسلام"، من حيث جوانب ثلاثة وهي: "صورة السماء والأرض في الشعر الجاهلي، وصورة السماء والأرض في الفكر الأسطوري، ثمّ الدلالات المشتركة بين الفكر الأسطوري والشعر الجاهلي بما يتعلق بتلك الصورتين.

أمّا الفصل الثاني: فقد تناولت فيه "صورة السماء والأرض في القرآن الكريم"، فبحثت فيه خمسة جوانب وهي: صورة خلق السماء والأرض، وصورة الزمن، وصورة الماء والإحياء، وصورة تسبيح المخلوقات، ثم صورة مشاهد السماء والأرض يوم القيامة.

وأما الفصل الثالث: فجعلته "دراسة تطبيقية للصورة الفنيّة في جوانب الصورتين"، فبحثت فيه أولاً سمات التصوير الفنيّ في القرآن الكريم، ثمّ وقفت ثانية عند جوانب التصوير البلاغي من خلال : التعبير بالحقيقة، والتعبير بالمجاز، وأساليب التعبير الخبري والإنشائي، والتعبير بالصورة البلاغية من خلال مستويين هما: التشبيه والكناية.

وقد سجّلت في خاتمة البحث ما توصّلت إليه من نتائج وثمار.

وفي الختام أسأل الله أن أكون قد وفّقت لما فيه خدمة اللغة العربية، وأرجو من الله أن تكون الحسنات تفوق السيئات.

وبعد، فإن أحسنت فمن الله، وإن أسأت فمن نفسي ومن الشيطان. ،،

والله أسأل التوفيق، فهو نعم المولى ونعم النصير

الفصل الأول

السماء والأرض عند العرب قبل الإسلام .

مدخل ...

المبحث الأول: السماء والأرض في الشعر الجاهلي .

ـــ صورة السماء .

ـــ صورة الأرض .

المبحث الثاني: السماء والأرض في الفكر الأسطوري .

ـــ صورة السماء .

ـــ صورة الأرض .

المبحث الثالث: دلالات مشتركة بين الفكر الأسطوري والشعر الجاهلي .

السماء والأرض عند العرب قبل الإسلام .

مدخل...

عند الحديث عن السماء والأرض عند العرب قبل الإسلام لا بدّ أن نعرّج إلى الحياة العقدية التي كانت شائعة عند العرب في ذلك الحين، فقد انتشرت في بلاد العرب ديانات هي الوثنية واليهودية والنصرانية، وديانات أخرى، وكانت الوثنية من أهم الأديان التي عرفتها العرب في جزيرتهم في تلك الفترة.

وتقسم الآلهة المعبودة عند العرب في الجاهلية إلى فئتين كبيرتين اثنتين هما: الآلهة السماوية، وهي عبارة عن الأجرام التي تسبح في الفضاء من نجوم ثابتة وكواكب سيارة. والآلهة الأرضية، وهي التي تكون من جنس الأرض ومعادنها كالحجارة والجواهر والمعادن والأخشاب والنيران والأشجار، بالإضافة إلى فئة ثالثة يمكن إضافتها وهي الآلهة التي تتكون من الملائكة ومن الجن والشياطين[1].

لقد نظر الإنسان قديماً إلى صفحة السماء فوقف منها وقفة المتأمل المتحير معتقداً أنّ فيها قوى خفية تهيمن على هذا الوجود، وأنّ ثمّة أرواحاً حيّة في أجرام السماء، الأمر الذي أدى به إلى اعتبارها آلهة، أو أنصاف آلهة تهب الموت والحياة، لذا فهي تستحق العبادة والتكريم والتقديس.

ولمّا كانت الشمس، يليها القمر، من أكبر الأجرام السماوية وأشدها تأثيراً وأوسعها نوراً وتألقاً، فإنّ ثمّة شعوباً وأمماً مالت إلى الانبهار بهما وإلى اعتبارهما إلهين يستحقان كلّ عبادة وتقديس، وهذا ما مال إليه العرب أنفسهم منذ أقدم العصور.

"ويبدو أنّ عرب الجنوب كانوا أسبق من عرب الشمال إلى عبادة الشمس والقمر والكواكب والنجوم، فلقد جاء في الأخبار أنّ الشمس المعبودة أو "الإلهة شمس" كما ورد ذكرها عند عرب الجنوب هي نفسها "ذات حميم" أي ذات الحارة عند السبئيين والحضارية والقتبانيين،

---

[1] انظر الخطيب، محمد: **الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية**، ط1، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة. سورية– دمشق، 2004م، ص34.

وهي أيضاً "ذات بعدن" أو ذات البعد. وهي نفسها التي بني بها معبد خاص يقال له معبد الإلـــه شمس وكان في "حمير" نحو القرن الرابع قبل الميلاد"[1]. "وقد كان عرب الجنوب يعبدون ثالوثاً مقدساً هو القمر أو ود والشمس أو اللات والزهرة أو العزى"[2].

ولم تكن عبادة النجوم مقصورة على عرب الجنوب فحسب بل تعدتهم إلى عرب الشمال سيما من كان منهم قريباً من فارس وبيزنطة فيما بعد، فلقد جاء في الأخبار أنّ العرب الأنبـــاط مجّدو الشمس وأقاموا لها الهياكل في منازلهم، وسكبوا عليها الخمر، وأحرقوا عندها البخور[3].

"ويمكن إرجاع عبادة العرب لآلهة الفلك والسماء إلى ثالوث معبود : القمر وهـــو الإلـــه الأكبر، والشمس التي هي زوجة وكان اسمها اللات، ثم عشتر أو العزى وهـــي الزهـــرة ألمـــع الكواكب بعد الشمس والقمر" [4].أمّا الآلهة الأرضية: "وهي عبارة عن التماثيل والأصنام وبيوت الأصنام والأنصاب والحجارة المؤلهة والأشجار والقبور وسواها مما يُعبد من دون الله "[5].

وهناك من المشركين من عبد الأشجار خاصة قديمة العهد البعيدة عن أماكن الشجر حيث الوحشة والتفرد، فالعبادة على أنّها مسكن للأرواح والأشباح شجرة نجران، فأهل نجران عبدوا نخلة طويلة كانت بين ظهرانيهم، وكانوا قد جعلوا لها في كل عام عيداً، حيث يعكفـــون عليهـــا، فيعلقون عليها الثياب الحسنة وحلي النساء، فقد ظلّت هذه الشجرة مقدّسة وخاصة بالعبادة عندهم، إلى أن سخّر عليها الله سبحانه ريحاً اجتثتها من فوق الأرض، بالإضافة أيضا إلى شـــجرة ذات أنواط، وهي شجرة عظيمة ملتفة الأغصان والأوراق كانت تقع بالقرب من مكـــة، حيـــث كـــان

---

[1] الخطيب، محمد: **الدين والأسطورة**، ص35.

[2] الرفوع، خليل عبد سالم: **في النصوص الجاهلية- مظاهر الحضارة الاقتصادية والاجتماعية العربيـــة**، ط1، دار حنين للنشر والتوزيع، عمان، 1425هـــ- 2005م، ص209.

[3] انظر:الخطيب، محمد: **الدين والأسطورة**، ص36.

[4] المرجع السابق: ص37.

[5] المرجع السابق: ص37.

يأتيها كفار قريش ومن جاورهم، فيعكفون عليها ويحجون إليها فيضعون زادهم ويعلقون أسلحتهم عندها؛ تعظيماً لها[1].

كما انتشرت عبادة النيران، ولعلّ أصل هذه العبادة يعود إلى عبادة الأفلاك والكواكب باعتبارها أقرب الأجسام المرئية إلى الله وباعتبار أنّها حيّة ناطقة، وأنّ ما يحدث في العالم فإنّما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله، ولما كانت الكواكب تختفي نهاراً وفي بعض أوقات الليل، فإنّهم جعلوا لها أصناماً وبيوتاً وهياكل سموها بأسماء الكواكب السبعة بما فيها الشمس والقمر، ولما كانت النار تشبه بضوئها الشمس والكواكب، فإنّهم عظّموها تعظيمهم للشمس والكواكب، ويقال إنّ ذلك كان زمن "جمّ" ملك الفرس[2].

كما عبدوا من موجودات الأرض القبور، وللقبر مكانة سامية عند الجاهليين، فقد كانت القبور تتحول إلى مكان مقدّس وإلى مقرّ للعبادة، ولا سيما قبر سيد القوم وأميرهم فقد كانوا يقيمون عندها ويعكفون وينحرون، كما تنال عندها البركة والشفاعة.

وقد عبد عرب الجاهلية الحجارة واتخذوا من منحوتاتها أصناماً آلهة، فعبدوا الأصنام والأوثان والأنصاب.

ومع كثرة الأديان بين العرب، من سماوية وغير سماوية فإنّ العقيدة ظلّت غير متينة عندهم، وظلّ تمسكهم بالأصنام غير وطيد، وسبب ذلك التنقل والترحال، مما جعلهم بعيدين غالباً عن مراكز عباداتهم إضافة إلى دمجهم بين عدد من المعتقدات، فنرى المرء منهم يقسم بالله الواحد وبالصنم الحجري معاً، أو يقسم بالصليب وبالعزّى قسماً واحداً.

---

[1] انظر: محمد الخطيب: **الدين والأسطورة**، ص37- 38.

[2] انظر: المسعودي، أبو الحسن علي ابن الحسين بن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، مجلد1، ط1، 1982م- 1402هـ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ص534.

المبحث الأول: صورتا السماء والأرض في الشعر الجاهلي.

تمتد بلاد العرب على رقعة واسعة الجوف مترامية الأطراف، فهي تقع "ما بين البحر الهندي في أقصى الجنوب إلى ما بعد دمشق في أقصى الشمال، وما بين بحر فارس ونهري دجلة والفرات في الشرق إلى البحر الأحمر بل إلى نهر النيل في الغرب"[1]. فبيئاتها مختلفة التباين مناخها وطبيعة أراضيها، " ففيها شواظ من لهيب الحرّ يشوي الوجوه، وسَموم تُلَوِّح الأبدان، وفيها ثلوج تكلل الجبال، وصقيع يجمد الدّم في أطراف الأحياء ويُقفع الجلود، وفيها ما بين هذا وذاك مناخ معتدل فيه دفءٌ لا يغلو فيصبح حرّاً ولا يقصر فيصبح برداً، وفيها مع ذلك أمطار غزارٌ تنساب أنهاراً وجداول تقوم على حفافيها مدن وقرى"[2].

والمناخ في الجزيرة حار مفرط الحرارة ليلاً ونهاراً، وفضلاً عن ذلك فإنّ التهائم والأغوار لا يطيق الإنسان حرّها، بالإضافة إلى ذلك أشعة الشمس التي تتسرب من خلال سماء صافية وتزداد توهجاً بانعكاسها على صفحة الرمال، والأبخرة المتصاعدة التي تطوّق الجزيرة من الغرب والجنوب والشرق بنطاق من الرطوبة التي تخنق الأنفاس[3].

ويتبيّن لنا من هذا الحديث أنّ العرب في الجاهلية عاشوا في بيئة أغلبها صحراء جافة حارّة وفي سواحلها رطوبة خانقة قليلة الأمطار، ففي هذه البيئة تشكل العقل العربي، وأنتج الشعر الذي يُعد مصدراً للفكر والذائقة، ذلك أنّ الشاعر الذي نشأ في هذه البيئة، والذي عاش في الفترة الجاهلية قبل الإسلام، وأعطانا تصوره لتلك الصحراء وهذه الحياة، لم يكن مجرد إنسان يعيش وسط صحراء، بل كان إنساناً شاعراً له موقفه الخاص وتصوره وانطباعه الذاتي نحو هذه البيئة.

"لقد ألهبت الطبيعة المفتوحة المنبسطة حسّ الشاعر الجاهلي، فراح يبثها لواعج نفسه في كلّ حين، فليلها الطويل ثقيل على نفسه المكدودة المتعبة إذا جنّ، ولكنّه ليس كذلك إذا صاحبه فيه القمر، ونهارها معاشه، ولذة نفسه، ولكنّ قيظ الهاجرة يؤلمه، يخفف من وطأة ذلك عليه ريح الشمال إذا هبت من الشرق، تلك الريح التي تذكره بمحبوبته"[4].

---

(1) الأسد، ناصر الدين: **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية**، دار المعارف بمصر، 1956م، ص1.

(2) المرجع السابق، ص4.

(3) انظر:عطوان، حسين: **مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي**، دار المعارف بمصر: القاهرة، ص30.

(4) الخطيب، علي أحمد: **فن الوصف في الشعر الجاهلي**، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1424هـ – 2004م، ص23.

فالطبيعة من أهم مصادر الإلهام للشعراء، يلجأون إليها وهم يحملون مشاعر السرور أو الخوف أو الرجاء، فيزاوجون بين أنفسهم والطبيعة من حولهم، فالشاعر العربي القديم كان يتأمل الطبيعة، ويبثها آلامه، ويهتم بها، ويفتتن بمظاهر الجمال فيها، ثمّ يصوّرها كما تمثلتها نفسه. فيَنتج شعر يحاكي هذه النفوس ودخائلها وما يشيع فيها من طمأنينة وراحة أو قلق أو خوف.

والمتتبع لأشعار الجاهليين، يراهم قد صوّروا ووصفوا كلّ ما وقع عليه حسّهم من مشاهد الطبيعة الحية والصامتة، فقد تحدثوا في شعرهم عن الصحراء والسماء، والدمن والأطلال، والكثبان والرمال، والسحاب والسراب، والأمطار، والرعد والبرق، والرياح، والغزلان، والخيل، ونحو ذلك مما وقعت عليه عيونهم، وما فرضته عليهم طبيعتهم.

صورة السماء:

السماء من الارتفاع والسمو، قال المرقش الأكبر:

عَلَى أنْ قَدْ سَما طَرفي لِنَارٍ يُشَبُّ لها بِذي الأَرْطَى وَقُودُ [1] (البحر الوافر)

وقال امرؤ القيس:

سَمَوتُ إليها بَعْدَ ما نَامَ أهْلُها سُمُوَّ حبَابِ الماءِ حَالاً على حالِ[2] (البحر الطويل)

والسماء السقف أيضاً، قال زهير بن أبي سلمى في هرم :

لَوْ نالَ حَيٌّ مِنَ الدّنيا بمنزلةٍ أفقَ السَّماءِ لنَالَت كفُّهُ الأُفُقَا [3] (البحر البسيط)

ومزج (عوف بن الأحوص) صورتين للسماء: واقعية ومجازية ليقرّب الدلالة:

هُمُ رَفَعُوكُمْ لِلسَّماءِ فَكِدتُمْ تَنالُونَها لَوْ أَنَّ حَيّاً يَطُورُهَا[4] (البحر الطويل)

---

[1] الضبيّ، المفضل بن محمد بن يَعلَى: **المفضليات**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام محمد هارون، ط6، بيروت، لبنان، ص223.الأرطى: شجر ينبت في الرمل، وذو الأرطى: موضع ينبت فيه.

[2] القيس ، امرؤ: **ديوان امرئ القيس**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ص141.

[3] ابن أبي سلمى، زهير: **ديوان زهير بن أبي سلمى**، شرح وتقديم: علي حسن ماعور، ط1، دار الكتب العلمية – بيروت، 1408هـ–1988، ص77.

[4] المفضل الضبي: **المفضيات**، ص177. يطورها: يقربها أو يحوم حولها، والمعنى: لو نالها أحد بشرف لنلتموها.

وقد تفصل السماء بين القوتين: العليا والدنيا، فما فوق السماء قوة عليا وما دونها قوة دنيا. أما الخير والشر فهما لصيقان بالاقتران[1].

قال المثقب العبدي:

فَقَد أدْرَكَتْها المُدْرِكاتُ فأصبحت إلى خَيرِ مَن تَحْتَ السَّماءِ وُفُودُها[2] (البحر الطويل)

والشاعر بخياله الواسع يستطيع أن يطأ السماء، وأن يمشي فوق السماء، وذلك حين يريد بالسماء دلالة السحاب، وبالسحاب دلالة المطر، وبالمطر دلالة الزرع والعشب.

والعرب تقول: ما زلنا نطأ المطر حتى أتيناكم ، وتقول: نزل السماء فرعيناه، قال معاوية بن مالك:

إذا سَقَطَ السماءُ بأَرضِ قَوْمٍ رَعَيْناه وإن كانوا غِضاباً[3] (البحر الوافر)

والممدوح الذي يغدق عطاياه على الشاعر ويحميه سماء، فالسماء والممدوح يمتلكان قواسم مشتركة، ذلك أنّ السماء هي بمعنى السمو فوق الأشياء، وهي تحتوي النجوم، وتؤثر في الأنواء والمواقيت، وتقترن بالخير والهيمنة. والممدوح أيضاً بمعنى السمو فوق الاعتياد، ويحتوي الناس، ويؤثر في رزقهم ومواقيتهم، وكذلك يقترن بالخير[4].

ويرد فعل المشاركة (سامى) بمعنى عالى، قال طرفة بن العبد:

---

[1] الصائغ، عبدالله: **الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997، ص219.

[2] المفضل الضبي: **المفضيات**، ص151. الوفود: جمع "وفد"، وهو مأخوذ من الارتفاع من قولهم: أوفد الرجل، إذا صعد مكاناً مرتفعاً، وكأنّ المعنى: ارتفع إلى من أراد وقصد.

[3] ابن منظور: **لسان العرب المحيط** ، مادة "سمو"، مجلد2، دار لسان العرب– بيروت، تقديم: العلامة الشيخ عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف : يوسف خيّاط، ص211.

[4] انظر :الصائغ، عبدالله: **الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية**،ص220.

وإن شِئتُ سامى واسِطَ الكورِ رأسُها وعامَتْ بضَبعَيْها نَجاءَ الخَفَيدَدِ[1] (البحر الطويل)

وعليه فلا يمكن حصر السماء داخل الشعر الجاهلي في دلالة محددة، على أنّ ما يخرج به الباحث في الشعر الجاهلي هو الدلالة الكبرى للسماء، وتعني السمو والارتفاع ثم تعني الله ثم تعني ملعباً للنجوم، ومنزلاً للسحاب كما أنّ المجاز بمنح المفردات عدداً من الدلالات المبتكرة والجديدة، وكلّ هذا لأنّ الشعراء يكنّون للسماء حبّاً عميقاً.

لقد قدّم لنا الشعر الجاهلي صورة جليّة، وانطباعاً مناسباً حول السماء وعناصرها الجمالية التي أثّرت في الرؤية والخيال عند الشاعر الجاهلي، فالشاعر ينظر في الأشياء من حوله، فيتلقفها خياله ليترجمها ويحيلها إلى كنايات واستعارات.

فالنَوْء في الذهن المعجمي يعني: النهوض بجهد ومشقة والميل والسقوط[2]. ودواوين الشعر الجاهلي حافلة بذكر الأنواء، حتى أنَّ بعضها ليبدو مكرّساً لمفردات الأنواء كديوان عدي بن زيد العبادي، وأمية بن أبي الصلت[3]. فقد تحدث الشعراء في الجاهلية عن السحاب والبرق والرعد، وعن الرياح والأمطار، وعن الكواكب والنجوم، وإذا أردنا أن نعطي صورة متكاملة عن تناول الشعراء في الجاهلية لصورة السماء، فحريّ بنا أن نتناول ونبحث في جوانب هذه الصورة، وفي كيفية وصف الشعراء الجاهليين لها لنقف بالتالي على إبراز العلاقة الوطيدة التي صنعتها البيئة الجاهلية بين الشاعر والطبيعة التي يعيش فيها.

---

[1] البكري، طرفه بن العبد: **ديوان طرفة بن العبد**، شرحه وتقديم : مهدي محمد ناصر الدين، ط1، دار الكتب العلمية- بيروت: لبنان، 1407هـ - 1987م، ص23، الكور: الرحل- ضبعيها: عضدها - النجاء: السرعة - الخفيدد: ذكر النعام .

[2] ابن منظور: **لسان العرب المحيط** ، المجلد3، "مادة نوأ " ،ص735.

[3] انظر: ابن أبي الصّلت، أمية: **ديوان أمية بن أبي الصلت** ، ط1، المكتبة الأهلية، بيروت، 1352هـ-1934م، ص19، 24، 26، 36، 57. وانظر: العبادي، عدي بن : **ديوان عدي بن العبادي** ، تحقيق: محمد جبّار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع- بغداد، ص 36، 38، 77.

أولاً: السحاب:

لم تكن طبيعة الصحراء العربية قاسية في مجملها، بل فيها ما يدعو إلى السرور والسعادة فإلى جانب الجفاف والقحط الذي يصيبها فان هناك خيراً يقع فيها متمثلاً في السحاب الهاطل الذي ينزل على الأرض الموات فتنبت وتزهر إلى حين غير بعيد.و"ليس هناك مكان كالصحراء تشتد فيه حاجة الأرض إلى السماء، فهي دائماً فاتحة ذراعيها لتلقي خيرها أو شرها، فيكون لها منها نار شمس حامية لتستلب ماءها، وتسترد القطرات التي جادت عليها بها، ويكون لها منها عطاء يغزر حتى يفيض "[1].

لقد عاش الإنسان الجاهلي وعينه عالقة ترقب السماء، فراح يتأملها، ويتعلق بكل مستجداتها، وينتظر ما تجود به عليه، لذا تناول الشعراء السحاب ، فتحدثوا عنه وعن أسمائه وأنواعه وأشكاله وما ارتفع وتراكم منه وما علا بعضه فوق بعض، وتحدثوا أيضا عن ألوانه التي تمثل الخصب أو الجدب. فإذا كان السحاب بطيئاً في سيره، فذلك دليل على كثرة مائة[2]، وإذا كان متدلياً، شبيهاً بالهدب وبالخمل، فذلك من علامات المطر[3]، وإذا كان لونه أسود أو أخضر يضرب إلى السواد، فهو المحمل بالماء[4]، وإذا كان السحاب أصهب أو أحمر، فذلك يدل على الجدب والجفاف[5].

وقد اعتمد الشعراء في معظم صورهم حول السحاب على اللون في إظهار الحقائق التي أرادوا التعبير عنها، تلك الصور التي استمدوها من البيئة التي يعيشون فيها.

---

[1] صناوي، سعدي: **أثر الصحراء في الشعر الجاهلي**، ط1، دار الفكر اللبناني: بيروت، 1993، ص50.

[2] الهذليين: **ديوان الهذليين** ، الدار القومية للطباعة والنشر– القاهرة، 1385هـ– 1965م: القسم الثاني، ص69–70.

[3] ابن حجر ، أوس: **ديوان أوس بن حجر**، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، ط2 ،دار صادر– بيروت، 1387هـ– 1967م، ص15.

[4] الغنوي،الطفيل : **ديوان الطفيل الغنوي** ،تحقيق محمد عبدالقادر أحمد ، ط1، 1968، دار الكتاب الجديد، ص76.

[5] الذبياني ، النابغة: **ديوان النابغة الذبياني** ،تحقيق وشرح: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1379هـ، 1960م، ص102.

والشاعر الجاهلي يبالغ في وصف اتصال السحب وتكاثفها، ولعلّ ذلك يعود إلى الحرمان الذي يعانيه، وبذلك تكون السحب الكثيرة أملاً بالراحة والكثرة التي يتمناها، لـذا فـإنّ سـحاب الجاهلية لا يغطي فقط سماء الصحراء القاحلة، بل يعمّ الأرض بأكملها فتعيش الطبيعـة عرسـاً يسوده الحركة والاحتفال.

ويبدع الشاعر الجاهلي في رسمه لصورة السحب من خلال حديثه عمّا يلمحه في الطبيعة من حوله، فلم يكن بتتبع حركة السحاب، بل كان يلتقط من تلك اللوحة المثيرة صوره وتشابيهه، فها هو علقمة

يرى القتل سحابة تمطر الصواعق:

كَأَنّهُمُ صَابَتْ عَلَيْهِم سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبيبُ[1] (البحر الطويل)

والحارث بن حلزة يرى وقع القتال وقع سحاب، أيّ مطر، فهو يقول:

وحَسِبْتِ وَقْعَ سُيُوفِنا بِرُؤُوسِهِمْ وَقعَ السَّحابِ عَلَي الطِّرافِ المُشرَجِ[2] (البحر الكامل)

بينما يرى الحادرة ثغر حسنائه وهي تنازعه الحديث فينطلق خياله به ليوشج بين ثغرهـا (لذيذ المكرع) وبين سحابة هانية سرت ليلاً فأمطرتها ريح الصبا[3].

ويدقق الشاعر في وصف صورة السحاب الأزرق الذي يخلل السحاب الأبيض في سـيرة فيتخيل بأنّ له أجنحة، ويشبهه بالنعام المعلق من أرجله، فيقول:

يَجُرُّ بأكنافِ البِحار الى المَلاَ رَباباً له، مثلَ النَّعامِ المُعَلَّقِ

إذا قلت تَزْهاه الرياح دنّا له ربابٌ، له مثل النعام الموسَّق[4] (البحر الطويل)

---

[1] الفحل، علقمة بن عبدة: **ديوان علقمة بن عبدة الفحل**: شرح وتعليق: سعيد نسيب مكارم، ط1، دار صـادر للطباعة والنشر، بيروت، 1996م، ص29. أي أنّ الطير التي لم تستطع أن تطير فزعاً ورعباً دبّـت دبيبـاً تطلب النجاة.

[2] المفضل :المفضليات، ص256، الطراف: بيت من جلد. المشرج: عري الخباء ونحوه.

[3] انظر: المفضل: المفضليات،ص44.

[4] الأصمعي، أبو عبدالملك بن قُريب بن عبدالملك: **الأصمعيات**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبدالسـلام هارون، دار المعارف بمصر،ص14، الأكناف: النواحي. الرباب: سحاب دون السحاب الأعظم.

كما يمضى "خفاف بن ندبه" في وصف تجمع السحاب في سيره قطعة بعد قطعة ليسير في سرب واحد مثل الإبل التي دعاها الحادي لتجتمع، وأنّ في هذا السحاب رعداً له صَخَبٌ، وصوت وحركة، تشبه أصوات تلك الإبل:

كأنّ الحُدَاةَ والمُشَايعُ وَسْطَه وعُودْاً مطافِيلاً بأمْعَزَ مُشْرِقِ[1] (البحر الطويل)

وهذا طرفة بن العبد يصوّر لنا السحائب البيض تأتي قبل الصيف، تتثنى وتتمايل في السماء كأنّها الغصن الرطب، فيشبّه بها المرأة فيقول:

كبناتِ المَخْرِ يَمْأدْنَ كما أنْبتَ الصّيْفُ عَساليجَ الخُضَرْ[2] (البحر الرمل)

وكثيراً ما كان الشاعر الجاهلي يقرّب بين السماء والأرض، فينصب معركة في الفضاء وإذا تكاتفت فيها السحب، فهي تتجمع ثم ترعد وتزمجر، كأنّها كتائب الجيوش في ضجيج، فهذا "بشر بن أبي خازم" يشبّه جماعته المقاتلة بالسحاب المرتفع بنوء الثريا تسوقه ريح الجنوب:

فَلَمّا رَأَوْنا بالنِّسارِ كأَنَّنا نَشاصُ الثُّرَيَّا هَيَّجَتْها جَنُوبُها[3] (البحر الطويل)

أمّا لبيد العامري وهو يرسم لوحته الرائعة للبرق، يسمع صوت الرعد، فيسمع فيها رغاء الإبل، وقد حيل بينها وبين صغارها فهن في نواح هادر، وشاهد قطع السحاب تسبح في السماء كأنّها نساء نائحات يمسكن بخرق سود يلوّحن بها ويندبن:

كأَنَّ مصَفّحَاتٍ في ذُرَاهُ وأنواحاً عليهنَّ المآلي

فأفَرَعَ في الرُّبابِ يَقُودُ بُلْقاً مَجوَّفَةً تَذُبُّ عن السِّخال[4] (البحر الوافر)

---

[1] الأصمعي: **الأصمعيات**، ص14، المشايع: الذي يصيح بالإبل لتجتمع وتتساق– العوذ: جمع عائذ، الحديثات النتاج، المطافيل: التي معها أولادها– الأمعز: الأرض الحزنة، الغليظة ذات الحجارة .

[2] **ديوان طرفة بن العبد** : ص41. بنات المخر: السحب البيضاء وتاتي قبل الصيف– يمأدن: يتمايلن– عساليج: واحدها " العسلوج " وهو الغصن الأخضر اللين.

[3] ابن أبي خازم، بشر: **ديوان بشر بن أبي خازم** ،تحقيق، عزّة حسن ،دمشق، 1379هـ، 1960م، ص16، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم. أو انظر: **المفضليات**، ص331. النسار: موضع– نشاص الثّريّا: ما ارتفع من السحاب بنوئها.

[4] العامري، لبيد بين أبي ربيعة: **ديوان لبيد بين أبي ربيعة العامري**، دار صادر، بيروت، 1966م– 1386هـ ،ص109. المصفحات: الإبل اللواتي قد صفحت عن أولادها، أي عزلت– الأنواح: النساء ينحن – المآلي: الخرق التي تكون مع المرأة تحركها وتندب بها– أفرع: أهبط وأسال– الرّباب: أرض بين ديار بني عامر وبلحارث بن كعب، يقود بلقاً: شبّه انكشاف البرق من السحاب وهو أسود بانكشاف الخيل من اولادها ترمح عنها– مجوّفة: جوفت ببياض في جنوبها وبطونها– تذب عن السخال: ترمح عنها وتدفع.

إنّ مرور السحاب في سماء الصحراء الجاهلية حدثٌ مهم؛ لأنّه يحمل المطر والحياة، والجاهلي كما يقول – سعدي ضناوي–: "يمزج شعره بعاطفته، ووصف السحاب بحر تطفو عليه مشاعر البدوي، مشاعر السعادة للخير المرتقب، ومشاعر الأسى والخوف من البرد والجدب، فهو إذن وصف النفس الإنسانية في تقلّبها بين الأمل واليأس[1].

ثانيا: البَرْق والرعد:

لا شك أنّ البرق اللامع في السماء نذير المطر، فالبدوي يشتاق إلى الخصب والنماء حين يرى البرق، فيبدأ بالترقب وبناء الآمال البعيدة عليه التي طالما تمناها، والشاعر الجاهلي هو ابن بيئته، إذ يحتفل بذلك، ويدعو أصحابه لمشاركته الاحتفال، فهو لا يترك الفرصة تفوته، ولا يسمح لأي عائق يسلبه لذة الرؤية، فعبيد بن الأبرص ينفض عنه النوم ويأرق؛ ليتأمل السحب المستديرة الشديدة الوميض، وهو يعاتب صديقه لأنّه لم يشاركه أرقه، وكأنّه أراد أن يخبره عن مدى خسارته لعدم رؤيته لذلك البرق اللامع كقبس من نور الشمس في غيوم كثيفة دانية تكاد تلامس الأرض، حتى إنّ الواقف يستطيع أن يقبض عليها ويدفعها بكفيه، فهي ترتفع أوائلها وتعلو كأنّها خطوط في خاصرتي فرس سريع يتقدم كلّ الخيول، ويخترق البرق ذلك السحاب من أسفله إلى أعلاه كأنّه مصباح مضيء أو ثياب غُسلت فنُشرت في الفضاء[2].

إنّ تصوير الشاعر لمشهد البرق ليبدو معادلاً موضوعياً للحالة النفسية التي كان يعيشها، وإنّ المتأمل في نسيج الوحدة الوصفية وبنائها المتماسك يلمس بوضوح المهارة العالية في استثمار الشاعر لمشهد خارجي ماثل في الطبيعة إرضاء لحالة داخلية تغمر كيانه ووجدانه[3].

---

(1) صناوي، سعدي: **اثر الصحراء في الشعر الجاهلي**، ص56.

(2) الأسدي، عبيد بن الأبرص: **ديوان عبيد بن الأبرص الأسدي** : دار صادر للطباعة والنشر – بيروت، ص52–53.

(3) فوغالي، باديس: **الزمان والمكان في الشعر الجاهلي**، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع: اربد– الأردن، 1429هـ، 2008م، ص120.

والأعشى أيضاً يدعو صاحبه إلى مشاركته رؤية سحاب اعترض الأفق وقد اشتغلت أطرافه بخيوط البرق، ذلك السحاب أردف خلفه سحاباً، وتمنطق وسطه العظيم الواسع بنطاق من الماء السريع الإنصباب[1].

أمّا صورة البرق عند امرئ القيس، فهو لامع متلألئ الضوء، فقد تخيله كلمعان اليدين تتحركان بسرعة، أو كقنديل الراهب صبّ الزيت على فتيله فأنار. وقد استجاب أصحابه له وجلسوا معه يتأملونه ويتأملون عظيم السحاب وغزارته، حتى إنّ أيمنه على جبل قطن بينما أيسره على جبلي الستار ويذبل:

أصاحِ تَرى بَرقاً أُريكَ ومَيضَهُ كَلَمعِ اليَدَيَن في حبيٍّ مُكلَّلِ
يُضيءُ سناهُ أوْ مصابيحُ راهِبٍ أمالَ السَّليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ
قَعَدْتُ لَهُ وَصَحْبَتي بينَ ضارجٍ وبَينَ العُذَيب، بُعدَ ما مُتَأمَّلي
على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أيْمنُ صَوْبِهِ وَأيْسرَهُ على السِتارِ فَيَذبُلِ[2] (البحر الطويل)

ونرى بعض الشعراء الجاهليين حين يرقبون البرق الذي يستشعرون من خلاله بدنو هطول المطر، يصفون شدته وخفوته من خلال صورة الضوء المنبعث من المصباح، كما كان عند امرئ القيس وعبيد بن الأبرص، "إنّ توظيف المصباح في هاتين الصورتين لشاعرين مختلفين ينم عن تقاطع رؤيتهما التفاؤلية للزمن، فهما لا يكابدان حدة الإحساس بالقحط والجدب فحسب، إنّما يكابدان كذلك عتمة ليل الصحراء الداجي، لذا كان من الطبيعي أن يرنو الشاعران وفق هذه الرؤية إلى أفق يجمع بين الرغبة في تبديد مظاهر الجدب من خلال الحديث عن المطر والإحساس بالحاجة إلى نور يبدد الظلمة الطاغية، لأنّ الليل وما يثيره من قلق وأرق في حياة الشاعر الجاهلي، يشكل كابوساً يضغط على أنفاسه[3].

---

[1] لأعشى :**ديوان الأعشى**، تحقيق وتقديم: فوزي عطوي،الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت، ص18.

[2] ديوان امرئ القيس: ص59–60. السليط: الزيت– الذُبال المُفتّل: فتيله المصباح– ضارج وعذيب: موضعان – قطن: جبل – الشيم: النظر من بعيد.

[3] فوغالي، باديس: **الزمان والمكان في الشعر الجاهلي**، ص122.

لقد أبدع الشعراء الجاهليون في تصوير صورة البرق، ولم يدخروا جهداً في إظهار الحالة التي كانت تساورهم عند وصفه، فالبرق سلب روح الشاعر وعقله قبل نظره، وقد كابده امـــرؤ القيس منذ الوهلة الأولى حتى استحالته سيولاً جارفة، ختم به معلقته ضمن طقوس خاصة بـــه، وهذا يجعلنا نتساءل: لماذا اختتم امرؤ القيس معلقته بهذه اللوحة البرقية؟ ولمـــاذا أرِق الشـــعراء عبيد بن الأبرص والأعشى وامرؤ القيس؟ وباتوا يرقبونه؟ ولماذا شبّهوه بتشـــبيهات تســـتدعي الانتباه والاستغراب؟ لا شك في أنّ البرق لغز الحياة بالنسبة للشاعر الجاهلي، فهو يترجم روحه ومشاعره وأحاسيسه التي لا تبتعد عن مكونات الطبيعة من حوله.

أمّا الرّعد فتخيله أوس بن حجر حنين نُوق مسنة ضخام، غزيرة اللبن، تذوب شوقاً وحناناً إلى أولادها، وتتجاوب في ندائها على أولادها بالأرض البراح الفسيحة:

كأنّ فيه عشاراً جِلَّةً شُرُفاً شُعثاً لهاميم قد هَمَّتْ بإرشاحِ
هُدْلاً مَشافِرُها بُحاً حَنَاجِرَها تُزجي مَرابيعَها في صَحصَحٍ ضاحي[1] (البحر البسيط)

وتخيله النابغة الذبياني رحىً تدور وتقعقع:

إذا رَجَفَت فيه رحىً مُرْجَحِنّةٌ تَبَعَّجَ ثَجَّاجٌ غَزيرُ الحَوَافِلِ[2] (البحر الطويل)

ونحن نرى أنّ تصوير الشاعر لمشاهد البرق والرعد لم يأت من فراغ، بل هو ينظـــر إلى مظاهر الطبيعة الدائمة المسيطرة على تفكيره، فيتفاعل معها ويعيش لحظاتها بإمعـــان تـــام، يدقق في زواياها القريبة والبعيدة، راسماً صوراً خالدة متميزة تنم عن فنان مبدع عالمٍ باســـتخدام أدواته الفنية والجمالية، وبالتالي تعكس لنا نظرته الكلية إلى الكون الذي يشاهده.

---

[1] ديوان اوس بن حجر: ص17. عشار: نوق- جله: مسنة- شرف: جمع شارف، وهـــي الهرمـــة المســـنة- شعث: متلبد الشعر – لهاميم: غزيزة اللين- همت بارشاح: اشتد فصيلها وقوى. الصحيح: المكان المســـتوي الظاهر.

[2] عوض، لويس شيخو: **شعراء النصرانية قبل الإسلام** ، ط4، دار المشرق- بيروت، 1991م، ص697.

ثالثاً: الأمطار:

إنّ من أشد ما تقاسيه البادية العربية احتباس المطر، فمتى احتبس أصبحت غير صالحة للعيش، فقد حلّ الجفاف وأجدب البدو وضاقت أمامهم سبل الحياة، ولم يعد أمامهم إلا أنْ يرحلوا عن مواطنهم ينتجعون مواطن الكلأ والماء، وربما يدفعهم الجدب الى مغادرة البادية العربية كلّها إلى أماكن أخرى[1].

وترتبط حياة العرب في الصحراء ارتباطاً وثيقاً بالمطر، لأنّ الماء روحهم وعصب حياتهم، وأساس وجودهم، حتى أنّهم سموه "غيثاً" و "حياً"، ويصفه الله تعالى بأنّه "رحمته"[2] التي تصيب بها من يشاء من عباده، ومن هنا لا عجب في أن يكون المطر حديث مجالسهم في ليلهم ونهارهم، يسألون عن مواسمه ويبحثون عن أوقات نزوله، ويستفسرون عن الأمكنة التي أصابها.

وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط من النجوم، فإذا سقط فيها نجم، أو طلع آخر، قالوا لا بدّ من أن يكون عند ذلك مطر أو ريح، فينسبون كلّ غيث يكون عند ذلك إلى ذلك النجم، فيقولون مُطِرْنا بنوء: الثريا، والدبران، والسّماكْ، وسمي النوء بذلك، لأنّه إذا سقط الساقط منها بالمغرب، ناء الطالع بالمشرق أي نهض وطلع، وأطلقوا على هذا العلم علم الأنواء[3].

وليس من شك في أنّ فرحة البادية بنزول المطر عظيمة، هذه الفرحة التي غيّرت من نظرة الشاعر الجاهلي إلى البيئة من حوله، تلك البيئة الصحراوية التي استمد منها أدواته الجمالية للتعبير عن موجوداتها لا سيّما موضوع المطر، الذي عُدّ عنصراً ضرورياً للاستقرار والبقاء. لقد وقف الشعراء أمام المطر ومناظره التي خلبت أفئدتهم، واستهوت نفوسهم، فصوّروا البرق وضوءه، والرعد وجلجلته، والسحاب ودنوه، ونزوله وسيوله، وآثاره الواسعة في إحياء الأرض بعد موتها، لذا "كان من الطبيعي أن يحظى المطر بمكانة متميزة في الحقل الدلالي

---

[1] انظر:خليف، يوسف : **الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي**، مكتبة غريب، ص60.

[2] انظر: سورة النمل: 63. سورة الروم: 46 و 50.

[3] انظر: مادة " نوأ " في اللسان لابن منظور، مجلد3، ص736.

للشاعر الجاهلي، لذا نجد توظيفه الشعري يتلون تلون التجربة نفسها في لحظتها الشعرية الراهنة ويكتسب بعده الوجودي والجمالي من الدلالة التي تنطوي عليها هذه اللحظة"[1].

وقد تتبّع الشعراء في الجاهلية نزول المطر تتبّعاً فريداً، فراقبوه وصوّروه ورسموا صوراً رائعة لمناظره، وأكثر ما يتعرض الشاعر لوصفه أثناء حديثه عن الطلل، وأثناء وصفة للثور الوحشي فيجعل وابلاً يفاجئه فلا يعرف أين المفر حتى يدفن رأسه في أصل شجرة أو خلف هضبة من الرمال، يقول لبيد بن ربيعة يصف بقرة وحشية أصابها مطر منهل دائم الانصباب يروي الخمائل:

باتَتْ وأسبَلَ واكِفٌ من ديمةٍ يُروي الخمائل، دائماً نسَجَامُها
يُعْلو طريقةَ مَتْنِها مُتَوَاتِراً في ليلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غَمَامُها
تَجتَافُ أصْلاً قالِصاً مُتَنَبِّذاً بِعُجُوبِ أنقاءٍ يَميلُ هَيَامُها[2] (البحر الكامل)

وفي الوقت الذي يستخدم فيه الشاعر الجاهلي عنصر الماء استخداماً يظهر فيه التناقض من حيث كونه مادة للحياة والموت معاً، ويتجلى ذلك حين يزعم الشاعر الجاهلي أنّ الأمطار والأنواء هي سبب تخريب الديار وإمحائها، ثمّ في وصفه للحياة التي بعثتها الأمطار نفسها في تلك الديار وما نتج عن ذلك من خصب وحياة، فالشاعر يتناسى الصورة القائمة التي يرسمها للديار المهجورة بصورة الحياة التي تبعثها الأمطار فيها[3] ويبدو إحساس الشاعر الجاهلي بتناقص عنصر الماء بأنّه يدعو للديار بالسقيا وهو الذي يزعم أنّ المطر يمحوها ويعفو على آثارها، ولا شك أنّه حين يستسقي لها يتمنى لها الحياة، وأنّه حين يصف فعل الأمطار بها يتألم من اندثارها وزوالها، وهو يحس أنّ للماء القدرة على الفعلين معاً، ومن دعائهم بالسقيا للديار المهجورة قول المثقب:

ألا حَيِّيا الدّارَ المُحيلَ رُسُومُها تَهيجُ عَلينا ما يَهيجُ قَديمُها

---

[1] فوغالي، باديس: **الزمان والمكان في الشعر الجاهلي**، ص118.

[2] ديوان لبيد بن أبي ربيعة العامري: ص172، الواكف: المطر المنهل- الديمة: المطر التي تدوم نصف يوم على الأقل- السجام: الانصباب- طريقة متنها: خط ظهرها- كفر: ستر- تجتاف: تدخل في جوف- قالص: مرتفع الفروع- بعجوب انقاء: بأصول كثبان من الرمل- الهيام: الرمل ما يزال ينهال ولا يتماسك.

[3] انظر: جياووك، مصطفى عبداللطيف: **الحياة والموت في الشعر الجاهلي**، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1977م، ص178.

سَقَى تلكَ من دارٍ ومن حَلّ رَبعها ذهابُ الغوادي وَبْلُها ومُديمُها[1] (البحر الطويل)

وقول الحطيئة:

أرّى عليها وليّ ما يغيّرها وَديمةٌ حُلِّلَتْ منها عزاليها[2] (البحر البسيط)

وامرؤ القيس في شعره يصوّر المطر الدائم الغزير وهو يعم الأرض كلّها، ويدور ماؤه تارة ويحبسه أخرى فيختفي وتد الخيمة ثم يظهر، ولا يلبث أن يعود فتكثر سيوله ويملأ البطاح، فلا يجد الضب بداً من السباحة فيثني براثنه كي لا تلصق بالتراب، ولا تزال هذه السيول تتدفق حتى تغمر جذوع الأشجار، فلا يبقى إلا أعاليها، فتتراءى كأنّها رؤوس مقطوعة ألقيت عليها الخمر، وظلّ المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تتكشف بعدها السماء، فقد ألقت السحب بوابلها وأثقالها، تستدرها ريح الصبا الشمالية، ولم تلبث ريح الجنوب أن هبّت، فتدفقت الأمطار أمواجا ضاقت منها أماكن الصحراء[3].

إنّ البدوي حين يتأمل المطر، ينظر إليه بعين المستقبل، ويكاد يرى بين طيات الغيم الذي يطبق الآفاق، أمارات الخصب التي ينطوي عليها، فهو ما أن يحط رحاله حتى تتفتح الأكمام وتوشي البرود فتتزخرف وتنتشر رياط منمقة ملوّنة، كما يفعل التاجر اليماني حين يعرض بضاعته على الناس بألوانها الزاهية، يقول امرؤ القيس:

ألقى بصَحْراءِ الغَبيطِ بعَاعَهُ نُزولَ اليَماني ذي العُياب المحُمَّلِ[4] (البحر الطويل)

ولا شك في المطر بذلك كاللمسة السحرية التي تبعث الحياة في الجسد النحيل الجدب ذي العروق الميتة، ومن ثمّ تحوّل الصحراء الصفراء القاحلة إلى جنان خُضْر تبهج الناظرين إليها.

والمطر في الجاهلية يرتبط بفكرة الكرم، فما يصنعه الناس جزءاً ممّا تصنعه الرياح والبرق والسحاب والمطر، فالرجل الكريم في الشعر الجاهلي كما يقول الدكتور مصطفى

---

(1) القيس، عائذ بن محصن بن عبد: **شرح ديوان المثقب العبدي**، جمع وتحقيق وشرح: حسن حمد، ط1، 1996م، دار صادر– بيروت، ص75.

(2) الحطيئة :**ديوان الحطيئة**، اعتنى به وشرحه: حمدُو طمّاس، ط1، دار المعرفة، بيروت– لبنان، 1423هـ– 2003م، ص151.

(3) ديوان امرئ القيس: ص105–106.

(4) المرجع السابق : ص62/ الغبيط: أكمه قد انخفض وسطها وارتفع طرفاها، وسميت غبيطاً تشبيهاً بغبيط البعير – البعاع: الثقل– العياب: جمع "عيبة" الثياب .

ناصف: "ليس واحداً من الناس أتقن الأخذ والعطاء أو تمرس بالمنفعة أو بحث عن مصالح الناس، لكنّه يتجاوز حجب المجتمع الإنساني لكي يتصل بالطبيعة، ويأخذ إلهامه من السحاب، ولذلك كان الكرم سلوكاً يشارك فيه الإنسان بعض مآثر الطبيعة "[1].

وكما ارتبطت فكرة المطر عند عنترة بالمحبوبة، فثغر المحبوبة عنده ليس واحداً من الثغور العادية، لأنّ المحبوبة هي التي استطاعت دون غيرها استقبال المطر، فيبدو أنّ ثغرها نشأ على غير طريقة البشرية، وأنّها ترتبط بروضة بعيدة عن الأقدام، لم يصلها بشر، ممّا جعلها تنعم بالحياة والخيرات[2].

لقد انجذب الشاعر الجاهلي لوصف المطر، فهو من أكثر الأمور التي أقلقته وأحزنته، لأنَّ البيئة المجدبة القاسية التي عاشها الجاهلي جعلت المطر عزيزاً وغالياً عليه، تتوق إليه نفسه، لذا فقد أخذ المطر ينهمر على مشاعره وأفكاره، فتارة يكون سيولاً تمحو الآثار وتطمس المعالم وتهدد بالغرق، وتارة أخرى يكون خيراً ينفجر وبالعشب فتكتسي الأرض ثوباً أخضرَ، وعلى أيّة حال فقد كان موقف الشاعر من المطر دائماً موقف التذلل والتضرّع لا سيّما وأنّ المطر يتصل بوجوده اتصالاً كبيراً، فهو يعني إليه محو الحياة وتجدّدها، ويعني إليه أيضا بقاءه أو فناءه، حياته أو موته

رابعاً: الكواكب والنجوم :

لقد اهتم العرب بالنجوم[3]، لأنّها ترتبط بشؤون الحياة عندهم، فهي تقودهم إلى موضع حاجاتهم، فقد كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر طلباً للماء والعشب، وكان هذا التنقل يحتاج إلى توقيت صحيح يوثق فيه، وذلك ما حملهم على الاهتمام بمطالعها ومساقطها، بالإضافة إلى حاجتهم لمعرفة وقت الطرق ووقت النتاج، ووقت نمو مياه الأرض، وازدياد وقت ينع الثمر، ووقت الحصاد، وفي معتقدهم أنّ "النوء" يرتبط بالكوكب نفسه، فهو الذي يغشي السحاب ويأتي بالمطر، يقول بشر بن أبي الخازم:

---

[1] ناصف، مصطفى: **قراءة ثانية لشعرنا القديم**، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1401هـ، 1981م، ص131-132.

[2] الزوزني، أبو عبدالله الحسين بن أحمد : **شرح المعلقات السبع**، تقديم: عبدالرحمن المصطاوي، ط2، ، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 1425هـ- 2004م ، ص205-206.

[3] نقصد بالنجوم هنا الكواكب كلّها، انظر: لسان العرب، مادة " نجم " ، جزء3، ص590.

جادَت لَهُ الدَّلْوُ والشِّعرى ونَوْؤُهُما بَكُلِّ أسحَمَ دَانِي الوَدْقِ مُرْتَجِفِ[1] (البحر البسيط)

وإذا ذكروا الحرّ نسبوه إلى الطلوع[2]،وقد قرنوا أوقات التبدي في طلوع الثّريّا[3].

وفي أحاديثهم عن طول الليل، فقد كان ذلك يرتبط بصورة النجوم، وقد شدت إلى الجبال بأمراس وحبال قوية، فهي ثابتة لا تتحرك ولا تتغير، يقول الأعشى:

كأنَّ نُجُومَها ربَطَت بصَخرٍ وأمراسٍ تدُورُ وتستريدُ

إذا ما قُلتُ حانَ لها أُفولٌ تصعّدَتِ الثّريّا والسّعودُ[4] (البحر الوافر)

ويقول امرؤ القيس في ذلك أيضا:

فيا لكَ من لَيْلٍ كأنَّ نُجومَهُ بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَندَلِ[5] (البحر الطويل)

لقد اجتذب المظاهر الطبيعية المتحركة كالنجوم والشمس والقمر نظر الشاعر الجاهلي لما فيها من علو وثبات وخلود، فمنهم من ربط النجوم بالجبل[6]. فالنجم ظاهرة في الأعالي، مرتبطة بالرحلة والسفر في الصحراء، وهو ارتباط أرضي سماوي، أيّ ارتباط حركة أرضية بثبات سماوي ممثل بالنجم. أمّا في أحاديثهم عن الكرم، فكانوا يقرنونه بغياب الثّريّا، لأنّ غيابه يصادف في الشتاء البارد، وهو الوقت الذي تشتد فيه حاجة الفقراء إلى الطعام نظراً للمحل والقحط الذي يصيبهم، وعندها يجد الشعراء في الكرم مجالاً واسعاً للمدح إذا مدحوا[7].

---

[1] ديوان بشر بن أبي خازم: ص157.نوؤهما: وقت طلوعهما – أسحم : السحاب الأسود – مرتجف : يتحرك ويضطرب .

[2] الفحل ، علقمة بن عبدة : **ديوان علقمة بن عبدة الفحل**، شرح وتعليق: سعيد نسيب مكارم، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1996م ص59.

[3] ديوان الطفيل الغنوي: ص83.

[4] ديوان الأعشى: ص37.

[5] ديوان امرؤ القيس: المعلقة ص49، أمراس كتان: جبال كتان، الصم: الصلب– الجندل: الصخرة.

[6] ديوان لبيد بن أبي ربيعة،: ص77.

[7] الطائي ، حاتم : **ديوان حاتم الطائي**، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، دار الكتاب العربي: بيروت، 1425هـ، 2004م، ص77.

وقد أولع الشاعر الجاهلي في مراقبة النجوم، فهذه الخنساء تماضر التي فجعت بغياب النموذج في حياتها، غياب أخيها صخر، فهي تسهر حين ينام الناس تراقب النجوم حتى تختبئ وقت الفجر، فكأنّها راعية للنجوم[1]، ويجعل الحُصَين بن الحُمام المُرّي صورة الكواكب صفة لليوم الشديد، يقول:

ولمّا رأَيتُ الصَّبرَ ليسَ بنافعي وأَنْ كانَ يَوْماً ذا كَوَاكِبَ أَشْهَبَا[2] (البحر الطويل)

ولكن قيس بن الخطيم يطوّع الأنواء ويركّعها أمام الحبيبة، فيُنزل الثّريّا من فوقيتها ويصوغها عقداً على نحر حبيبته لكي يتوهج في العتمة يقول:

وجيدٍ كجِيدِ الرِّئمِ صَافٍ يَزينُهُ تَوَقُّدُ ياقُوتٍ وفَصْل زَبَرْجَدِ

كأنّ الثُّرَيّا فَوْقَ ثُغْرِةِ نَحْرِها تَوَقّدُ في الظَّلْماء أيَّ تَوَقّدِ[3] (البحر الطويل)

أمّا الشمس عند الشاعر الجاهلي فلها علاقة بخياله الواسع، فخياله ينمي إلى الشمس في سطوعها وارتفاعها، فتبدو الشمس عنده إنسانا يحزن ويفرح، يقول الأعشى:

يُضاحكُ الشمسُ منها كوكبٌ شرِقٌ مؤزّرٌ بعميمِ النّبتِ مكتهلُ[4] (البحر البسيط)

وإذا أراد النابغة إسباغ النعمة على النعمان، جعله شمساً وجعل الملوك كواكباً تختفي بظهوره[5]. والشمس امرأة تلقي رداءها على الوجه الجميل كما فعلت مع محبوبة الأعشى وقد تلقي قناعها على الفتى الكريم:

فتىً لو ينادي الشمس ألقتْ قناعها أو القَمَر السّاري لألقى المقالد[6] (البحر الطويل)

وتقترن فجيعة صخر وموته عند الخنساء بتقلّب الشمس شرقاً وغرباً، فالشروق مقترن

---

(1) الخنساء، **شرح ديوان الخنساء**، شرح وتحقيق، عبدالسلام الحوفي، دار الكتب العلمية- بيروت،1405هـ، 1985م ، ص40.

(2) الضبي ، المفضل: **المفضليات**، ص317.

(3) الخطيم، قيس بن : **ديوان قيس بن الخطيم** ،تحقيق: ناصر الدين الأسد، ط2، دار صادر – بيروت، 1387هـ- 1967م ، ص125.

(4) ديوان الأعشى: ص18.

(5) ديوان النابغة الذبياني: ص18.

(6) ديوان الأعشى: ص103

بالغارة، والغروب مقترن بالكرم والعطاء:

يُذّكرُني طُلوُع الشَّمس صَخْراً وَأَذْكُرُهْ لِكُلِ غُروُبِ شَمسِ [1] (البحر الوافر)

واغتبط الشعراء الجاهليون بالقمر، فاستعملوه وفق مشاعرهم الخاصة لحظة العمل الفنّي، فهو يفرح معهم ويحزن لحزنهم، ويحرس العشّاق تارةً ويفضحهم أخرى، وقد ذكروا القمر عند مدحهم للملوك، يقول النابغة في ملك الحيرة:

متوَّجٌ بالمعالي فوقَ مَفرقِهِ وفي الوَغَى ضَيغَمٌ في صُورة القمر[2] (البحر البسيط)

فتهلّل وجه النعمان بالسرور وأمر أن يُحشى فم النابغة جواهر وقال مزهوّا: "بمثل هذا فلتمدح الملوك"[3].

وأمّا نجم العَيُّوق[4]، فقد ورد في شعر ذؤيب الهذلي في موضعين يتصل أحدهما بالمرأة، ويرتبط الآخر بحمر الوحش[5].

إنّ العوامل التي دفعت الشعراء الجاهليين لتتبع النجوم ومعرفة أوقات طلوعها وأفولها، هي نفسها التي دفعتهم إلى معرفة السحب والبرق والرعد والرياح والأمطار ورصد ها، لأنّها عوامل تتعلق بحياتهم في البيئة الصحراوية ومعاناتهم لظروف معيشهم فيها، لذا فقد كانت معارفهم وعلمهم بهذه المظاهر تصل إلى درجة عالية من الدراية والعمق.

---

[1] ديوان الخنساء،ص62.

[2] ديوان النابغة الذبياني: ص74.

[3] المسعودي، أبو الحسن علي ابن الحسين بن علي : **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ،مجلد1، ص414-415.

[4] العَيُوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن يتلو الثّريّا لا يتقدمها. (انظر: البستاني، بطرس: **محيط المحيط:** ، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1998 ، ص645).

[5] ديوان الهذليين: القسم الأول، ص70 وص6.

صورة الأرض:

لقد اجتذبت الأرض الشاعر الجاهلي، تلك الأرض البدوية التي شكّلت الشاعر البدوي، وبالتالي أنتج لنا شعراً بدوياً مصبوغاً بتلك الصبغة. فهي البيئة الطبيعية التي عاش عليها الشاعر الجاهلي بكلّ ما تشتمل عليه من جماد ونبات وحيوان، وقد انفعل الشاعر الجاهلي معها بكلّ موجوداتها. فنراه قد شكّل وجوده أمامها، لأنّها سيطرت عليه بشكل كبير، فراح يتأملها، ويدقق النظر في كلّ بقعة فيها صغيرة كانت أم كبيرة، فوصف صلابتها وليونتها، وأخذ يقارن بين بقعة وأخرى عليها، ليعرف كيف يتعامل معها في حلّه وترحاله، وليختار منها ما يسهّل عليه سبل الحياة والعيش، فعليها يتم الترحال ومواجهة الأخطار، وعليها يتم الاستقرار والمنعة ونصب الخيام، وفيها تكون مواضع الماء وخصوبة التربة، لذا فالشاعر الجاهلي بحكم تفرّده وتميّزه عن غيره استطاع أن يكون عالِماً بتضاريس البيئة التي وُجد عليها.

لذا عبّر الشاعر الجاهلي كما يقول الدكتور صلاح عبدالحافظ "عن رد فعله تجاه المكان الذي عاش عليه، وتعامل معه كتعامله مع الزمان، وحاول أن يقتص منه بالعمل والحركة والدخول في تيار البطولة والفروسية، فلم يكن المكان سوى وضع بيئي حتمي فرض على الشاعر وجعله يوجه حياته ووجوده وجهات لا يمكن إلا أن يسير فيها، وهكذا تعامل الشاعر مع مظاهر الطبيعة تعاملاً خاصاً ومنفرداً في جميع أشكالها وأنواعها"[1].

وقد وصف الشاعر الجاهلي الأرض الغليظة والمستوية والأرض ذات الحجارة المختلفة اللون من حوله ، فعلى الحومانة ،وهي الأرض الغليظة ، يدق أوتاد خيمته ويحفر حوضه ، ويكون بمعزل عن السيل، فتبقى منيعة في وجه الرياح، حتى إذا ارتحل تظل تلك الآثار باقية في المكان لا تمحوها العواصف والأمطار، يقول زهير بن أبي سلمى:

أمِن أُمِّ أوْفى دِمنةٌ لم تَكَلَّمِ بِحَومانَةِ الدّرَّاج فالمُتَثَلَّمِ[2] (البحر الطويل)

---

[1] عبد الحافظ، صلاح: **الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره**، دار المعارف: الإسكندرية، ص: ط.

[2] ديوان زهير بن أبي سلمى: ص102

وتلبس البرقة ثوباً رقشته الحصى سوداً وبيضاً، فتلوح عليها الدّمن كأنّها الوشم في ظاهر اليـد، طال به العهد فأشرف على الاختفاء، يقول طرفة بن العبد البكري:

لِخَولَةَ أطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ تَلوحُ كباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ[1] (البحر الطويل)

والدكادك هي الأراض المستوية مع غلظ، خلاء لا نبات فيها، تصيبها الرياح فتعصف في أنحائها وتعفّي رسوم الديار عليها، يقول عبيد بن الأبرص:

تَعَفَّتْ رُسُومٌ من سُلَّيمى دَكادِكاً خلاءً تُعَفّيها الرِّياحُ سَواهِكا[2] (البحر الطويل)

وذكر عنترة الجواء أو البر الواسع، الذي يقف عليها البدوي بعد أن أصبحت قفراء من ساكنيها، فلا يجد مَن يتكلم معه، فيخاطب الأرض وما عليها من آثار، يحييها ويطلب لها طول البقاء، يقول:

يا دارَ عبلَةَ بالجواءِ تَكَلّمي وَعِمي صَباحاً دارَ علبةَ واسلَمي[3] (البحر الكامل)

وتتسع الأرض أمام اتساع رؤية الشاعر لها، وذلك عندما يحولها إلى طبيعة خاصة لديه، وعندما تتفاعل مع مشاعره ووجدانه، فهو يشكّلها تشكيلاً ينبع من داخله، ويرسم لها معالم خاصة ويلّونها بألوانه التي يتذوقها، فتخرج الصورة متكاملة الإبداع والخيال، يقول زهير واصفاً الأرض الخصبة :

شيَاهٌ رائعاتٌ بقَفرَةٍ بُمستأسِدِ القُريانِ حُوٍّ مَسائلُهْ [4] (البحر الطويل)

فهو يقدّم وصفاً لحالة الشياه الراتعة وسط نبات طال وتمّ، فهي آمنة مطمئنة في ظل اللوحة المبهجة التي قدّمها الشاعر، تلك اللوحة التي تعج بالخصب والنماء والحياة.

---

[1] ديوان طرفه بن العبد: ص19.

[2] ديوان عبيد بن الأبرص: ص100. دكادكا: الواحدة "دكدك": الأرض الغليظة- سواهكا: عاصفة شديدة.

[3] ابن شداد، عنترة: **ديوان عنترة بن شداد**، تحقيق: فوزي عطوي، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر: بيروت- لبنان، 1388هـ-1968م، ص12. وانظر: الزوزني: **شرح المعلقات السبع**، ص201. الجواء: جمع "جوّ" وهو المطمئن من الأرض أو الفضاء الواسع، أو ما اتسع من الأوديه.

[4] ديوان زهير بن أبي سلمى: ص89. الشياه: الحمر- المستأسد من النبت: الذي طال وتم- القُريان: مجاري الماء إلى الرياض- الحوّ: النبات يضرب إلى السواد- مسائله: مسائل الماء.

ويقول أيضاً واصفاً الطريق بأنّها بيضاء:

وأبيضَ عاديٍّ تلوحُ مُتُونُهُ على البيد كالسَّحْلِ اليماني المَبلَّجِ[1] (البحر الطويل)

فبياض الطريق هنا لا يبعث على الأمل والصفاء والنقاء، بل هو البياض الذي يصور الجفاف والخواء، فبياض الطريق يشبه بياض الثوب اليماني، فالشاعر يرسم صورة للطريق الصعبة المحفوفة بالمخاطر، ليظهر قدرته وقدرة ناقته على قطعها واجتيازها.

والأرض عند النابغة تشاكل خيمة في مهب إعصار رملي، فيه ترسخ رسوخ الممدوح، يقول:

تَخِفّ الأرضُ إن تفقدك يوماً وتبقى ما بقيتَ بها ثقيلاً

لأنكَ موضِعُ القُسطاسِ منها فتمنعُ جانِبَيْها أن تَميلا[2] (البحر الوافر)

هذا وقد وصف الشعراء الجاهليون كلّ ما شاهدوه في الصحراء المترامية الأطراف، وصوّروا تلك المشاهدات بما كانت تجيش في نفوسهم من الصور الجميلة التي إن دلّت على شيء فإنّها تدل على أن مبدعها يمتلك أدوات التصوير الحقيقية، ولأنّ الأرض الممتدة من حولهم تحتوي على الكثير من المشاهد الخلاّبة والمؤثرة، فأخذوا يصوّرونها بدقة متناهية، فنجد أشعارهم تحفل بالحديث عن الصقيع والندى الذي يصيب الأرض، وعن الجبال والكثبان والسراب، وعن الوديان والدّارات، والبُرَق، والرّياض، وعن الآبار العيون والحساء ، وعن الأشجار والنباتات التي تظهر هنا وهناك. وسأحاول في الصفحات القادمة الحديث عن تلك الصوّر المتنوعة.

---

[1] ديوان زهير بن أبي سلمى: ص33، أبيض: طريق- عادي: قديم- السحل: الثوب الأبيض النقي- المبلج: المجلو، المبيض.

[2] ديوان النابغة الذبياني: ص98.

أولاً: الصقيع والندى والطّل .

الصقع: هو الضرب بالراحة على مقدّم الرأس، والصقع: الذهاب أو العدل عن الطريق، وصقعت الأرض: أصابها الصقيع، والصقع: الناحية، والصقيع: هو الساقط من السماء بالليل كأنّه ثلج[1].

وأحيانا تكتسي الأرض بالصقيع أو الجليد، وعندما تجئ الريح به تنخفض درجة الحرارة، مما يدفع الإبل المسنة التزام مبركها ولا تجرؤ على تركه، يقول المسيّب بن علس:

وإذا تهيجُ الرِّيحُ من صُرَّدِها ثَلجاً يُنيخُ النِّيبَ بالجَعْجاعِ[2] (البحر الكامل)

ويندر وجود شعر جاهلي يحمد الصقيع، لأنّه يقترن بالشدة والجدب وإماته المكان الذي يحل فيه، فهو يتسبب في تلف المزروعات وحجر الحيوانات، وفي ذلك يقول أعشى باهلة:

وراحت الشَّوْلُ مغبّراً مَباءَتُها شُعْثاً تغيّر منها النّيُّ والوَبَرُ

وأَحْجَرَ الكلبَ موضوعُ الصقيع به وأَلْجأَ الحَيَّ تَنْفاحِه الحُجَرُ[3] (البحر البسيط)

أمّا صورة الندى والطّل في الشعر الجاهلي، فليس ثمة فرق واضح بين الطّل والندى، فالطّل هو المطر الصغار والقطر الدائم وهو أرسخ المطر ندى، والطّل أخف المطر وأضعفه ثمّ الرذاذ ثمّ البغش، وقيل هو الندى أو فوق الندى ودون المطر[4].

وقد وجد خيال الشاعر في الندى والطّل صورة للبلل الخفيف يرطب جفاف الأشياء، يقول "عدي بن زيد" مستخدماً الفعل (تندى) مقابلاً به (تبلل):

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "صقع"، مجلد2، ص456-457.

[2] المفضليات: ص62، الصرّاد: ريح باردة برش مطر، النيب: مسان إناث الإبل، الجعجاع: موضع البروك.

[3] الأصمعيات: ص90، الشول: جمع شائلةً، وهي الناقة التي أتى عليها من حملها أو وضعها، سبعة أشهر فخف لبنها، مباءتها: مراحها الذي تبيت فيه- النّي: يريد أنّها صارت هزيلة- تنفاحه: من النفح وهو شدة دفع الصقيع- الحجر: حظيرة الإبل.

[4] انظر: **لسان العرب**، مادة "ندي"، جزء3، ص610.

تُجْنَى لكَ الكَمْأَةُ رِبْعيَّةً بالْخَبّ تَنْدى في أُصُولِ القَصيصْ[1] البحر الرجز)

ويرتبط الندى في الذاكرة الجاهلية بالكرم، فكلاهما خيّرٌ وسخيٌّ، فهما يحوّلان حالة الجفاف والفقر إلى حالة البلل وسد الرمق[2].

ثانياً: الجبال والكثبان والسّراب .

- الجبال:

تعد سلسلة جبال السراة الممتدة من اليمن جنوباً إلى أطراف بادية الشام شمالاً، من أعلى المناطق ارتفاعاً، وتبرز في ذرى هذه السلسلة مراقب عالية، وقد اتخذ منها الصعاليك والذؤبان ملاذاً يأوون إليه للاستراحة، أو الاستخفاء، وتحتضن هذه السلسلة الممتدة وديانا ومدناً وقرى كثيرة، لاذت بها كثير من القبائل، ونعم بخضرتها الجاهليون، ووقف عند رياضها وجناتها عدد كبير من الشعراء يذكرون خيرها وخصبها ونماءها، إلى غير ذلك من السلاسل الأخرى المحيطة[3].

وكان الشعراء يتحدثون عن الجبال في أثناء حديثهم عن قطع المفاوز، وإظهار قدرتهم على اختراقها وعبورها بناقة تُقَرِّب النّائي البعيد، وتصل ما تباعد من الجبال[4].

وفي حديثهم عن ديار الأحبة، ومواضع سكناهم، فقد أشاروا إلى أماكن الجبال، ومواضعها، فذكروا جبل "خزاز"[5]،ويشير الشاعر "أوس بن حجر" إلى جبل "الرجام"[6]، وجبل "ثبير" الذي ذكره امرؤ القيس[7]. وكانوا يذكرون الجبال عند حديثهم عن السيول؛ لأنّ قوة هذه

---

[1] ديوان عدي بن زيد: ص68، ربعية: أيّ في فصل الربيع- الخبء: سهل بين حزنين يكون فيه الكمأة - القصص: جمع "قصيصة" وهي شجرة تنبت في أصلها الكمأ.

[2] ديوان الأعشى: ص25.

[3] انظر:القيسي، نوري حمودي: **الطبيعة في الشعر الجاهلي**، ط1، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، 1390هـ، 1970م، ص23.

[4] ديوان امرئ القيس: ص163.

[5] ابن كلثوم، عمرو: **ديوان عمرو بن كلثوم**، ط1، دار صادر للطباعة والنشر – بيروت، 1996، ص65.

[6] ديوان أوس بن حجر: ص80

[7] الزوزني: **شرح المعلقات السبع**، ص63.

السيول كانت تحط الوحوش من ذرى هذه الجبال، وتسقط الشجر من قللها، وتنزل العصم من كلّ جانب من جوانبها، وهذا ما دفعهم إلى تصوير هذه الحركات العنيفة في أشعارهم، يقول لبيد يصف سيلاً:

وحَطَّ وُحُوشَ صاحَةَ من ذُراها كأنَّ وُعُولَها رُمْكُ الجِمالِ

أقُولُ وَصَوْبُهُ مِنّي بَعيدٌ يَحُطُّ الشِّتَّ من قُلَلِ الجِبالِ[1] (البحر الوافر)

وقد احتوى شعر الهذليين والصعاليك على جانب كبير من الأشعار التي ذكروا فيها المراقب؛ لأنّهم وجدوا فيها أمكنة آمنة لإنجاز مهماتهم[2].

-الكثبان:

والكثبان: جمع كثيب وهو مجتمع الرمل[3]، وهي منتشرة في ساحات واسعة من الجزيرة العربية مشكلة جبالاً، وألسنة رملية متناسقة، فهي أشكال عرفها الشعراء فارتسمت صورها في أذهانهم، وحددوا أبعادها هندسياً، فما استطال منها كان "حبلاً"، وما اعوجّ "حقفاً"، وما استدار "دعصاً" وما كان بين التقطيع والاتصال فهو "سقط"، وما احدودب "كثيباً ونقاً". وظلّت هذه الأشكال واضحة بارزة لدى الشاعر الجاهلي، يستمد منها صوره، ويعقد بينها وبين ما يريد الحديث عنه تشبيهاته، ومثلما وجد الشعراء في الجبال أمكنة يذكرونها في أشعارهم كذلك وجدوا في أسنمة الرمال المتناثرة وكثبانها أمكنه يقفون عندها في أحاديثهم وحكاياتهم "[4].

فقد ذكر عبيد "رمال لين"، فقال:

تَغيرَّتِ الديارُ بِذِي الدَّفينِ فَأودِيَةِ اللِّوى فَرِمالِ لينِ[5] (البحر الوافر)

---

[1] ديوان لبيد بن أبي ربيعة، ص110، صاحة: اسم جبل- رمك: سود والمفرد "أرمك"- الشت: نوع من الشجر- القلل: جمع " قلة " وهي أعلى الشيء.

[2] ديوان الهذليين، القسم الثاني: ص96-97.

[3] انظر: **لسان العرب**، ابن منظور، مادة "كثب"، ج3، ص233.

[4] القيسي، نوري حمودي: **الطبيعة في الشعر الجاهلي**، ص27.

[5] ديوان عبيد بن الأبرص: ص145.

ووقف أمرؤ القيس عند رملة "حومل" فقال:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقط اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْمِلِ[1] (البحر الطويل)

وقد أشار إليها أيضا "طرفة بن العبد البكري" وهو يصف ناقته[2]. كما ذكر "زهير بن أبي سلمى" رملة "عالج" فقال:

يُهَدُّ لهُ ما دُونَ رَملةِ عالجٍ ومن أَهلُهُ بالغورِ زالت زَلازِلُهْ[3] (البحر الطويل)

ويمكننا القول: إنّ أغلب الأشعار التي ورد فيها ذكر الرمال كان في حديث الشعراء عن الأطلال، وتخصيصهم ملتوى الرمل، لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في الأماكن الصلبة من الأرض، وذلك لأنها أثبت لأوتاد خيامهم. كما كانوا يتعرضون لذكر الرمال في حديثهم عن البقر الوحشي، وغيرها من الحيوانات التي كانت عرضة لهجمات الصيادين، فقد كانت تتخذ الرمال الصريحة أمكنة للاختفاء لشدتها، وصلابتها، وصلاحها للبقاء كما جاء في شعر النابغة[4].

- السَّراب:

لقد وصف الشعراء كلّ ما شاهدوه في صحرائهم المترامية الأطراف، وصوّروه بعدستهم الشعرية، وأكثر ما كانوا يتحدثون عنه هو مظاهر الصحراء في حديثهم عن المجالات التي يظهرون فيها بطولاتهم، وفي حديثهم عن الصحراء تطرّقوا إلى الحديث عن السّراب، وتناولوا في حديثهم عنه ارتفاعه الذي يكنّون به عن ارتفاع النهار وشدة الحر، ثم انتقلوا إلى وصف رواحلهم، حيث وصفوها بالقوة وهي ترتفع وتنخفض وسط السّراب كما كانت تتراءى لهم، وحتى في حديثهم عن الجبال الشامخة وسط الفضاء الرحب والكثبان الرملية المنتشرة بينها، وكانوا يختارون لأوصافها أوقات النهار حين يمتد هذا السراب، فإذا كلّ هذه المظاهر تتحرك في

---

[1] ديوان امرؤ القيس: ص29.

[2] ديوان طرفة بن العبد: ص23.

[3] ديوان زهير بن أبي سلمى: ص93، يهد له: يكسر ويزلزل- الزلازل: الشدائد.

[4] ديوان النابغة الذبياني: ص96.

الصورة وتتراقص أجزاؤها، فكأنّها مجموعات من شجر "الدوم، والنخيل" تارة، أو "السفين" تارة أخرى، يقول امرؤ القيس:

فَشَبَّهتُهُمْ في الآلِ لما تَكَمَّشُوا حَدَائقَ دَوْمٍ أَو سَفيناً مُقَيَّرا

أو المُكْرَعاتِ من نَخيلِ ابن يامِنٍ دُوَينَ الصَّفَا اللائي يَلِينَ المُشقَّرَا

سَوَامِقَ جَبّارٍ أثِيثٍ فُرُوعُهُ وَعالَينَ قِنْواناً منَ البُسْرِ أحمَرا[1] (البحر الطويل)

واغلب الأشعار التي وردت في ذكر السراب كان من خلال أحاديث الشعراء عن الإبل وسرعتها وشدتها، والأعلام التي كانوا يهتدون بها[2]

وهذا امرؤ القيس يدفع بناقته الذمول هاجرة في تلك الغيطان التي علاها السّراب فبدت كأنّها كسيت ملاحف بيضاً، يقول:

فَدعْ ذا وَسَلِّ الهمَّ عنكَ بجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إذا صَامَ النَّهارُ وَهَجّرا

تُقَطِّعُ غِيطاناً كأنَّ مُتُونَهَا إذا أظهَرَتْ تُكسَى مُلاءً مُنَشَّرا[3] (البحر الطويل)

ثالثاً: الوديان والدّارات والبُرَق والرياض .

- الوديان:

كان ورود الوديان في الشعر الجاهلي يأتي في كثير من الأحيان مقترناً بذكر الأحبة، والاشتياق إلى ديارهم، يقول زهير:

بكرن بكوراً واستحرن بُسحرةٍ فهُنّ ووادي الرسّ كاليد في الفم

ظَهَرْنَ من السوبان ثم جَزَعْنَه على كُلِّ قَينِيّ قَشِيبٍ ومُفْأَمِ[4] (البحر الطويل)

---

[1] ديوان امرئ القيس: ص91-92. المقير: المطلي بالقار- المكرعات: النخيل المغروس في الماء، وهي أنعم النخيل وأطولها- الصفا والمشقر: موضعان- الجبار: الذي فات الأيدي من التناول.

[2] المفضل: **المفضليات**، ص 226 .

[3] ديوان امرؤ القيس: ص94، الذمول: السريعة- صام النهار: قام واعتدل- الغيطان: السهول والوعور.

[4] ديوان زهير : ص104، قيني: رحل ، قتب طويل يكون تحت الهودج ،القشيب: الجديد- المفأم: الواسع.

ومن العوامل التي دفعت الجاهليين للسكن في هذه الوديان والنزول بها هي خصوبتها ووفـرة المياه فيها، لذا كثرت أسماؤها في أخبارهم، "فالأحص" وادٍ لبني تغلب كانت فيه وقعة مع إخوتهم "بكر" يقول المهلهل:

وادي الأَحَصِّ لقد سَقَاك من العِدَى فَيْضَ الدُّموع بأَهْلِهِ الدَّعْسُ[1] (البحر الكامل)

وقد ذكر الشعراء بعض الوديان في أحاديثهم عن ظعائن الأحبة، التي كانت تتخذ بعـض الوديان مراكز للنزول فيها بعد عناء السفر المتواصل، وذلك لكي تتزود بما تحتاج إليه من مياه أو طعام[3].

- الدّارات:

توجد في بلاد العرب دارات كثيرة، وهي كلّ أرض واسعة بين جبال[3] ولبعض الـدّارات شهرة كبيرة في الأدب العربي، وذلك لورودها على ألسنة الشعراء وتغنيهم بها، وتذكرهم الأيـام التي قضوها في ربوعها.

وأشهر هذه الدارات دارة "جُلجُل" التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

ألا رُبّ يومٍ لكَ مِنْهُنّ صالحٍ ولا سيّما يومٍ بدارَةِ جُلجُلِ[4] (البحر الطويل)

ودارة "القلّتين" التي ذكرها "بشر" فقال:

سَمِعْتُ بِدارَةِ القَلْتَيْنِ صَوْتاً لِحَنْتَمَ فالفُؤادُ بِه مَرُوعُ[5] (البحر الوافر)

---

[1] شعراء النصرانية: ص180.

[2] ديوان امرؤ القيس: ص133.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "دار"، ص1031.

[4] ديوان امرؤ القيس: ص32.

[5] ديوان بشر بن أبي خازم: ص132، حنتم: اسم امرأة جارية مرخماً والأصل حنتمـة، والتـرخيم: ترقيـق الصوت وحذف آخر الاسم في النداء تسهيلاً للنطق به- مروع: من الروع وهو الفزع.

ودارة "موضوع " التي قال فيها الحصين بن الحمام:

جزى اللهُ أفناءَ العَشيرَةِ كُلِّها بِدَارَةِ مَوْضوعٍ عُقُوقاً ومَأْثَماً [1] (البحر الطويل)

وكان لهذه الدارات وقع تاريخي في نفوس الشعراء، حيث ارتبطت ببعض الحوادث، فتركت أثراً نفسياً علق بأذهانهم ونفوسهم، وارتبط بمشاعرهم وأحاسيسهم.

- البُرَق:

أما البُرَق: هو غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة، وتنبت أظهرها البقل والشجر، وتكون إلى جنبها الرياض أحياناً، والغالب على حجارتها البياض، وفيها حجارة حمر وسود تبرق بلون حجارتها وترابها[2].

وقد ذكر الشعراء الجاهليون البرق وأسماءها في أحاديثهم عن أيام لهوهم وصباهم، وحنينهم إلى مرابع أحبتهم التي كانوا يتخذونها في مثل هذه البرق، ويقيمون عندها، وكان ذكرهم لها يأتي من خلال أحاديثهم عن الحوادث التي اقترنت بها.

ومن أشهر هذه البرق: برقة "ثهمد"، يقول طرفة بن العبد البكري مفتتحاً معلقته:

لِخَوْلَة أطلالُ ببُرقَةِ ثَهمَدِ تلوحُ كباقي الوَشْم في ظاهرِ اليَدِ[3] (البحر الطويل)

وبرقة "الروخان"، يقول عبيد يتحسر على تفرّق قومه:

لِمَنِ الدِّيارُ ببُرقَةِ الرَّوخانِ دَرَسَتْ وغَيَّرها صُرُوفُ زمَانِ[4] (البحر الكامل)

---

[1] المفضليات: ص64، عقوقاً ومأثما: جزاء عقوقهم واثمهم.

[2] انظر: لسان العرب ،مادة "بَرَق" ، جزء1، ص198.

[3] ديوان طرفة بن العبد: ص19.

[4] ديوان عبيد بن الأبرص: ص148.

- **الرّياض:**

تشكل الرياض في جزيرة العرب مساحات شاسعة، حيث إن فيها مائـــة وســـتاً وثلاثـــين روضة، وسميت بهذا الاسم لاستراضة الماء فيها[1].

وقد يكون الحرمان الذي عاشه الإنسان الجاهلي في الصحراء، وإحساسه بالعطش الـــدائم وندرة المياه، نظراً لجدب الطبيعة من حوله، هو الذي دفعه إلى تقدير أماكن الخصـــب ووفـــرة المياه ومن ثم وصفها، فوجدوا فيها سُبل الحياة التي تعوضهم عن المعاناة الطويلة وأنواع المشاق التي واجهوها عبر الصحاري الجرداء.

وللشعراء في ذكر الرياض مواقف عدة، يقول المسيب بن علس "في رياض الأَخْرَمَيْن":

تَرْعَى رياضَ الأَخْرَمَينِ لَهُمْ منها مَوَارِدُ مَاؤُها غَدَقُ[2] (البحر الكامل)

ويقول لبيد في رياض الأعراف:

هَلَكَتْ عامرٌ فلَمْ يَبقَ منها بِرياضِ الأعرافِ إلاَّ الدِّيارُ[3] (البحر الخفيف)

لقد تنوّع وصف الشعراء للرياض، فهو لم يكن وصفاً يسير على وتيرة واحـــدة، بـــل يتفـــاوت ويختلف من شاعراً لآخر بحسب تفاوتهم في إدراك جمال الطبيعة والإحساس بمناظرها من حولهم.

رابعاً: المياه .

- **الآبار والعيون والحساء :**

يجمع الباحثون على أنّ الجزيرة العربية كانت تختلف اختلافاً كلياً من حيث وفرة الميـــاه، والخصب، وكثرة الأمطار. والشعر الجاهلي يحفل بإشارات كثيـــرة إلـــى الغـــدران والجـــداول والعيون والسيول والوديان، وكثيراً ما يأتي ذكر بعض هذه المظاهر في أحاديث الشعراء عـــن

---

[1] الحموي ،شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت : **معجم البلدان**، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، جزء3، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410هـــ، 1990م ، ص83.

[2] عوض، لويس شيخو: **شعراء النصرانية**، ص354.

[3] ديوان لبيد بن أبي ربيعة: ص77.

قدرتهم على اجتياز المسالك الصعبة، وقطع مجاهل الأرض في جرأة لا تحتاج إلى وصف الواصف وهداية الدليل، يقول "تأبط شراً" يصف غدراناً تجمعت من سيل عظيم ، خلع الصخر من مواضعه:

وَشِعْبٍ كَشَلِّ الثَّوْبِ شَكْسٍ طَرِيقُهُ مَجَامِعُ صُوْحَيْهِ نِطَافٌ مَحَاصِرُ

بِهِ مِنْ سُيُولِ الصَّيفِ بِيضٌ أَقَرَهَا جُبَارٌ لِصُمِّ الصَّخْرِ فِيهِ قَرَاقِرُ[1] (البحر الطويل)

وقد عُني الشاعر البدوي بوصف الماء وموارده، فهي إمّا أن تكون ماءً سطحياً يسيل على وجه الأرض كمياه الأنهار والجداول الصغيرة، يقول بشامة بن الغدير:

كعُرُوضِ فَيَّاضٍ على فَلَجٍ تَجْري جَدَاوِلُهُ على الزَّرْعِ[2] (البحر الكامل)

أو ماءً مجتمعاً في حفرة أو بئر، يقول زهير بن أبي سلمى:

يُغرِّدُ بين خُرْمٍ مُفضياتٍ صَوافٍ لم تُكدِّرْها الدِّلالُ[3] (البحر الوافر)

وإما ماءً غائراً في الرمال، يقول امرؤ القيس:

يَجُمُّ على السّاقينِ بَعدَ كلالِهِ جُموع عُيونِ الحِسْيِ بَعدَ المَخيضِ[4] (البحر الطويل)

ولقد أحب الشاعر الجاهلي الماء الصافي، الأزرق اللون لشدة صفائه، وأكثر ما يظهر صفاؤه إذا تلألأت فيه الحصباء[5]. ومن سنن ورود الماء في الجاهلية ان يتقدم الأسياد للشرب من الماء العذب الصافي، قبل أن تعكره الأيدي، ويتركون الماء العكر للآخرين، وهذا الأمر رمز للسيادة والفخر، يقول عمرو بن كلثوم:

---

[1] شراً ، تأبط **:ديوان تأبط شراً** ،اعتنى به: عبدالرحمن المصطاوي، ط1، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 1424هـ- 2003م، ص29. الشَّعب: الطريق الضيقة في الجبال- شل الثوب: يريد أنّ الثوب مخاط خياطة متباعدة ذات اتساع- الشكس: الصعب- صوحيه: جانبيه او طرفيه- البيض: جمع أبيض، وهو الغدير- الجُبار: ماء السيل التي تستقر في وادٍ او حوض- قراقر: أيّ أصوات قرقرة.

[2] المفضليات: ص407. الفياض: الماء الكثير الفيضان، عروض: نواحي – الفلج: النهر العظيم.

[3] ديوان زهير بن أبي سلمى: ص16.

[4] ديوان امرؤ القيس: ص128، الحسي: السهل من الأرض يستنقع فيه الماء، المخيض: استخراج الماء بالدلاء.

[5] المفضليات: ص424.

وَنَشْرَبُ إنْ وَرَدْنا الماءَ صَفْواً وَيَشْرَبُ غَيْرُنا كَدِراً وطينا[1] (البحر الوافر)

وكانت العرب تشبه السيوف والدروع الرقيقة النسج لصفائها، بالغدران، يقول عبد قيس بن خُفاف يصف درعه:

وسابغةٍ منْ جيادِ الدَّرُو عِ تَسْمَعُ للسَّيف فيها صَليلاً

كمَاءِ الغَدِيرِ زَفَتْهُ الدَّبُورُ يَجُرُّ المُدَجَّجُ منها فُضُولا[2] (البحر المتقارب)

فإذا امتلأ الغدير، وضربته الرياح بدت فيه طرائق، وعندها تتضح الصورة في ذهن الشاعر، وتتمثل صافية رقراقة، يقول أبو قيس بن الأسلت يصف درعه:

أَعْدَدْتُ للأَعْداءِ مَوْضُونِةً فَضْفَاضَةً كالنَّهْي بالقَاعِ

أَحْفِزُها عَنِّي بِذِي رَوْنَقٍ مُهَنَّدٍ كالمِلْحِ قَطَّاعِ[3] (البحر الرجز)

واستخدم الشعراء صورة الأنهار المتدفقة في المدح لإظهار فيض الممدوحين، يقول "النابغة" يمدح "النعمان بن المنذر" ويعتذر إليه:

فما الفراتُ إذا هَبَّ الرّياحُ له ترمي أواذِيُّهُ العِبْرَينِ بالزَّبَدِ

يوماً بأجودَ منه سَيْبَ نافِلَةٍ ولا يحُولُ عَطاءُ اليومِ دُونَ غَدِ[4] (البحر البسيط)

كما يحلو للشاعر الجاهلي أن يشبه الجفان المترعه للقرى بالحوض العظيم يجبي إليه الماء ويجمع فيه[5].

---

[1] ديوان عمرو بن كلثوم: ط1، ص70.

[2] المفضليات: ص386.

[3] المرجع السابق: ص284. الموضونة: الدرع التي نسجت حلقتين- النهي: الغدير- الرونق: ماء السيف.

[4] ديوان النابغة الذبياني: ص36-37. العبرين: الناحيتين- الزبد: ما يطرحه الوادي إذا جاش ماؤه، واضطربت أمواجه- السيب: العطاء- النافلة: الزيادة.

[5] ديوان طرفة بن العبد: ص43.

وقد تحدث الشعراء عن الوسائل التي كانوا يستخرجون بها المياه، وتحدثوا عن الوسيلة التي كانوا ينقلون بها المياه من قرب ومزادات وما كانت تبعثه وأصواتها في نفوسهم من شوق وحنين، بالإضافة إلى الصور والتشبيهات[1].

وأمّا الحساء فقد ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، ومياه الحساء تجري تحت الحصا على مقدار ذراع ودونه، وأحياناً على ذراعين، وربما أثارته الدّواب بحوافرها، ومواضع الحساء هي المناطق الرملية التي تكون تحتها صلابة، فإذا أمطرت السماء على ذلك الرمل نزل الماء فمنعته الصلابة أن يفيض، ومنع الرمل السمائم أن تنشفه، فإذا بحث ذلك الرمل أصيب الماء[2].

ومناطق الحساء معروفة لدى الجاهلي، فكانوا ينزلون عندها، وقد ذكرها الشعراء وهم يستذكرون ديار أحبتهم[3]، وتتميز الحساء بأنّها كلما نزح منها دلو جمعت أخرى، ولهذا شبّه امرؤ القيس فرسه بها، فكلما حرّك بالساقين، واستحث بهما كثر جريه، يقول:

يَجُمُّ على السّاقين بَعدَ كَلالِهِ جُمومَ عُيونِ الحِسْيِ بَعدَ المَخيضِ[4] (البحر الطويل)

وهكذا أوحت المياه ومعالمها وأماكنها ووسائلها إلى الشاعر الجاهلي بكثير من معانيه وصوره، فغدت أحد الأسس التي قام عليها شعره في مجال التعبير عن حياته، وأحوال معيشته.

خامساً: الأشجار والنباتات.

من الطبيعي أن ينال الشجر والنبات والأزهار والثمار والأعشاب حظّاً وافراً من حديث الشعراء الجاهليين؛ لاتصالها المباشر بحياتهم، وعلاقتها بحاجاتهم التي يعتمدون عليها في مواجهة الحياة وعوارضها، فهي تدخل فيما يأكلونه منها وما يبنون منه بيوتهم وخيامهم، وما يصنعون منه سهامهم ورماحهم وجفانهم وأقداحهم وغيرها، إضافة إلى ما كانت ترعاه ماشيتهم وإبلهم، وكان لشجر "التالب" عناقيد، إذا جفت، اعتصرت للمصابيح، وهو أجود لها من الزيت،

---

[1] ديوان بشر بن أبي خازم: ص14.

[2] انظر: لسان العرب، مادة "حسا"، ج1، ص640.

[3] انظر: ديوان بشر بن أبي خازم، ص2.

[4] ديوان امرئ القيس: ص128.

"والتنوب" شجر عظيم كانوا يتخذون منه أجود القطران، "والجعدة" لها ثمر ثخين متلبد تحشى به المخاد، "والضرّم" له ثمر أشباه البلوط تأكله الغنم والحُمُر ولا تأكله الإبل[1].

لقد أعطى الشاعر الجاهلي اهتماماً كبيراً للأشجار من حوله، فشجر النخيل كان ظاهرة واضحة في أرض الجزيرة العربية، فقد وجد في كثير من أماكنها خاصة تلك التي يتوفر فيها المياه، لذا أصبحت النخلة رمزاً شامخاً من رموز الصحراء، تغنّى بها الشعراء، فقد كانت مصدراً مهماً من مصادر الانتفاع، وكذلك الاستفادة من ثمارها التي شكّلت غذاءً رئيسياً للناس ودوابهم.

وكان الجاهلي يستخلص من ثمر النخيل عصيره (الدبس) لينتفع به في الشتاء، وبه شبّه عنترة العرق السائل من رأس فرسه وعنقها، فيقول:

وكأن رُبّاً أو كُحَيْلاً مُعْقداً حَشَّ الوَقُودُ به جوانبُ قُمْقُمِ[2] (البحر الكامل)

وكانت الأماكن المليئة بالزروع والنخيل مدعاة للفخر، وفيها يفاخر الأعشى علقمة فيقول:

ألم تر أنّ العَرْضَ أصْبَحَ بَطْنُها نَخِيلاً وَزَرْعاً نابِتاً وفَصَافِصَا[3] (البحر الطويل)

وإذا أراد الجاهليون المحافظة على فسيل النخيل، قاموا بتغطية عروقه خوفاً من الجراد والحر والقر، وهذا ما جعل الطفيل الغنوي يشبّه أحبته في ظعونهم بالفسيل المكمم:

أَشَاقَتْكَ أَظعَانُ بِجَفْنِ يَبَنْبَمِ نَعَمْ بُكُراً مِثْلَ الفَسيلِ المُكَمَّمِ[4] (البحر الطويل)

---

[1] ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي:**المخصص**، مجلد3، سفر11، دار الفكر- بيروت ، ص142-145.

[2] ديوان عنترة: ص14 . وانظر: الزوزني: **شرح المعلقات السّبع**، ص211، الربّ: الطلاء- الكحيل: القِطْران- حش: أوقد.

[3] الأعشى: **ديوان الأعشى**، تحقيق: كامل سليمان، ط1، دار الكتاب اللبناني، ص103، الفصافص: جمع "فصفصة": نبات تعلفه الدواب.

[4] ديوان الطفيل الغنوي، ص72. أشاقتك: وجدت لها اشتياقاً- الظعينة: المرأة في الهودج- جفن يبنبم: موضع أو جبل- بكر: ابتكار- الفسيل المكمم: جذع النخل الذي تغطي عذوقه من الجراد ومن الحر والقر.

وكانت ظاهرة حرق النخيل معروفة في العصر الجاهلي، فإذا غلب قوم قوماً أحرقوا نخيلهم حتى تصبح كأنّها نساء قائمات في مأتم، وقد لبسن الحداد، يقول "الأعشى" مفاخراً:

وأيام حَجرٍ إذْ يُحَرَّقُ نخلُهُ ثأَرْناكُمُ يوماً بتحريق أرْقَم

كأنَّ نخيلَ الشطِّ غِبَّ حريقه مآتِمُ سودٌ سَلَّبتْ عند مأتَمِ[1] (البحر الطويل)

وكانت توحي للشعراء ألوان النخيل وقد زها ثمرها وتلوّن رطبها، واخضرّ سعفها، بألوان الظعون اللامعة، وما على الهودج من ألوان الوشي والعهون، وهي تغطي الأحبة؛ لتحفظهم من الشمس الحارقة ولفح الهجير، يقول امرؤ القيس، يصف هوادج أحبائه:

عَلَوْنَ بأُنطاكِيّةٍ فَوْقَ عِقْمَةٍ كجِرْمةِ نَخْلٍ أوْ كجَنّةِ يَثْرِبِ[2] (البحر الطويل)

وكذلك في تأملهم لهذه الشجرة، شبهوا الخيل الطويلة المرتفعة بالنخيل التي طالت على الذين يجنون ثمارها فلا تنالها أيديهم[3].

ولعلّنا ندرك أهمية شجرة النخيل في الحياة الجاهلية من تلك الصور التي استمدها الشعراء منها في تشبيهاتهمُ واستعاراتهم، وقد ذكر الشعراء الجاهليون أشجاراً غير النخيل كشجر النبع، وكانوا يتخذون منه القسي والسهام[4]. ولقد عرف الشعراء الجاهليون شدة هذه الأشجار، وقد حاولوا الاستفادة من ذلك في إبراز معاني الشدة والصلابة اللتين كانوا يريدون التعبير عنهما، يقول الأعشى مفاخراً:

ونحنُ أُناسٌ عُودُنا عودُ نَبْعَةٍ إذا انتسَبَ الحيّانِ: بَكرٌ وتَغْلِبُ[5] (البحر الطويل)

ولم ينس الشعراء الجاهليون أن يعبروا عن الألم والقلق والحذر والانتظار الذي اعتراهم في حياتهم الصعبة، فهذا الأعشى يصور حالته المضطربة، التي عبّر عنها بمداعبة النوم للجفون

---

[1] ديوان الأعشى: ص204.

[2] ديوان امرؤ القيس: ص65، أنطاكية: ثياب مصنوعة بانطاكية– العقمة: ضرب من الوشي الأحمر– الجرمة: ما صرم من النخل وصار في الأرض.

[3] ديوان عبيد بن الأبرص: ص131.

[4] المرجع السابق: ص132.

[5] ديوان الأعشى: ص178.

وشبة امتناع الجفون عن الغمض بجريانه خلال شوك "السيال"، هذه الصورة التي تكمن فيها البراعة الفنية، يقول الأعشى:

باكرتها الإِغرابُ في سِنَةِ النّوْ مِ فتجري خلالَ شَوْكِ السَّيالِ[1] (البحر الخفيف)

ولعلّ صورة الألم تتخذ شكلاً آخر عند أوس، فعندما صرعته ناقته واندقّت فخذه، واعتراه الألم، كانت هذه الآلام عنده تشبه في قوتها وشدتها طعنة من شوك السيال، يقول:

كأنَّ أطَاولَ شَوْكِ السيال تَشُكّ بها مَضْجَعي شَاجِرَهْ[2] (البحر المتقارب)

وهذا أيضاً النابغة الذبياني، عندما وشي به عند النعمان، فبات ليلته قلقاً يتقلب على مضجعه، فقد رسم لنا صورة هذا القلق والانتظار، لبيان ما يعانيه، فخرجت لوحة معبرّة، يقول فيها:

فبِتُ كأنّ العائدات فرَشْنَني هَرَاساً به يُعْلى فِراشي ويُقْشَبُ[3] (البحر الطويل)

إنَّ شجر الألاء (الدفلى) والشبرم والحنظل من الأشجار التي تجمعها صفة المرارة، والحرارة التي تدمع منها العين وقد شبّه امرؤ القيس ما جرى من دمعه لفقد أهل الديار بما يسيل من عين ناقف الحنظل:

كأني غَداةَ البَينِ يَوْمَ تَحَمّلو لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حنظلِ[4] (البحر الطويل)

وشجر الدفلى طعمه مرّ، فقد وجد فيه الشاعر الجاهلي صورة للمنافق الذي يظهر للناس وجهاً لطيفاً، ويبطن مرّاً كثيراً [5].

---

[1] ديوان الأعشى:ص24.

[2] ديوان أوس بن حجر: ص35.

[3] ديوان النابغة الذبياني: ص17. العائدات: الزائرات في المرض- فرشنني: بسطن لي- الهراس: شجر كبير الشوك- يقشب: يخلط ويجدد.

[4] ديوان امرئ القيس: ص30. سمرات: جمع سمرة: من شجر الطلح.

[5] ديوان بشر بن أبي خازم: ص3.(ولم يلتفت الشعراء في تلك الحقبة إلى ما نلتفت له نحن اليوم بالنسبة لشجر الزينة) .

وأمّا ذكر الشعراء للنبات، فهو قليل بالقياس إلى الشجر، وأكثر النبات وروداً في الشعر "البردي" وبه شبهت العرب السيقان، يقول عبيد:

خَوْدٌ مُبَتَّلَةَ العِظامِ كأنَّها بَرْدِيَّةٌ نَبتَتْ خِلالَ غُروَسِ[1] (البحر الكامل)

ووردت في الشعر إشارات لنبات العنصل "البصل البري" عند حديث الشعراء عن السيل[2].

وأمّا الأزهار، فهي أقل ذكراً في الشعر الجاهلي من الشجر والنبات، وصورتها لم تكن واضحة في أذهانهم ومخيلتهم، ويبدو أنّ طبيعة الحياة الجاهلية ومتونها أبعدتهم عن التأمل فيها ونسج الصور حولها، ومن الأزهار التي ذكرها الشعراء: الأقحوان، والخزامى، والعرار، والريحان، وشقائق النعمان، وغيرها.

ويبدو أنّ ذكر مثل هذه الأزهار غلب في مواضع الغزل والتشبيب، فزهرة "الأقحوان" ارتبطت في وصف الشعراء للثغور؛ وذلك لبياضه، يقول الأعشى يصف ثغر محبوبته:

وتضحكُ عن غُرّ الثّنايا كأنّهُ ذُرَى أُقحُوانٍ نبتُهُ مُتناعِمُ[3] (البحر الطويل)

وزهر الخزامى من أطيب الأزهار والروائح، وكان الشعراء يذكرونه في حديثهم عن الرياض والمياه المنسابة[4].

ويذكر الأعشى زهر "العرار" المعروف بطيب الرائحة، في حديثه عن وصف امرأة ناصعة البياض:

بَيْضاءُ ضَحْوَتُها وصَفْـ ـراءُ العشِيُةِ كالعَرارة[5] (مجزوء الكامل)

يتضح لنا مما سبق، أنّ الشعراء الجاهليين استوحوا من الأشجار والنباتات والأزهار صوراً لكلّ ما أرادوا أن يصفوه أو يمدحوه أو يتغزلوا فيه، ذلك أنّ الطبيعة الخضراء من حولهم

---

[1] ديوان عبيد بن الأبرص: ص77.

[2] انظر: ديوان امرئ القيس: ص26.

[3] ديوان الأعشى: ص197.

[4] ديوان عبيد بن الأبرص: ص119.

[5] ديوان الأعشى: ص182.

أثّرت في أخيلتهم ومشاعرهم، فلم يمروا منها مرور الكرام، بل صاغوا الكثير من الحكايات والمشاهد التي انطقها فرسمت صوراً خضراء يانعة تسرّ الناظرين.

عندما كانت الصحراء تتصف بالاتساع المترامي الذي يكتنفه الغموض والخفاء، لم تكن باعثة على الجمود والخوف والتقصير في البحث بمكنوناتها، ولم تكن النظرة الجاهلية إزائها نظرة عاجزة ضعيفة، بل تأثر بها الشاعر الجاهلي، وأعمل نظره وفكره في زواياها وخباياها، فاستطاع أن يجعلها واضحة بارزة. وقد تحدّث الشعراء الجاهليون في صحرائهم الشاسعة عن صورتي السماء والأرض بكلّ ما تحتويهما من عناصر متعددة ألّحت عليهم، واستولت على مشاعرهم، وهم بذلك وصفوا كلّ ما وقعت عليه عيونهم من صور ناطقة جميلة، وعبّروا عنها بكلّ براعة ودقة، فكان حديثهم عنها حديثاً فضفاضاً لم يقتصر على غرض شعري بعينه، بل تعداه إلى أغراض أخرى كالغزل، والمدح، والفخر، والحماسة، والرثاء أيضا.

وفي تجوالنا في تلك الأشعار الجاهلية، رأينا أنّها كانت متجاوبة ومتفاعلة مع البيئة التي نشأت فيها، وكانت مرآة أصيلة لها تعكس الواقع بكلّ جزئياته الدقيقة، وعناصره البسيطة، وبالتالي فقد فتحت وأمدت الطبيعة الجاهلية خيال شاعرها بمقوّمات عناصر المادة التي شكّل منها صوره وفنّه، فخرج ذلك الفن متسماً بسمات الصدق والبساطة والوضوح، لا سيّما وأنّ حواس الشاعر الجاهلي قد تعايشت مع كلّ مشهد من حولها، فأذنه كانت تسمع أدق تفاصيل الأصوات، وعينه كانت تبصر أبسط المناظر والألوان وأبعدها ، وبالتالي استطاع الشاعر الجاهلي أن يكون أبرع مصوّر في بيئة تعج بالصور وتثير الكثير من الانفعالات.

المبحث الثاني: صورتا السماء والأرض في الفكر الأسطوري .

يرى أحمد بن فارس، أنّ الأساطير كأنّها أشياء كُتبت من الأباطيل، فصار ذلك اسما لها مخصوصاً بها[1]، ويعرّف الزمخشري كلمة أسطورة، فيقول:" سطر، واستطر كتب، وهذه أسطورة من أساطير الأوّلين ممّا سطروا من أعاجيب أحاديثهم، وسطر علينا فلان قصّ "[2]،

وورد تعريف الأسطورة في لسان العرب بأنّها:" تعني الأباطيل وأحاديث لا نظام لها" [3]،ويرى الزبيدي في تاجه أنَّ الأسطورة، وجمعها أساطير تعني "الأباطيل، والأكاذيب، والأحاديث التي لا نظام لها"[4].

وتكاد تجمع تلك التعاريف على أنّ كلمة أسطورة تعني: القصّ، والأكاذيب والأباطيل، والأحاديث العجيبة غير المألوفة، والتي لا تخضع لنظام متسلسل منطقي.

وبما أنّ القرآن الكريم هو أقرب مصدر إلى عصر ما قبل الإسلام، فقد وردت كلمة أسطورة في أكثر من آية قرآنية، لنجدها تعبّر عن مفهومها في العقلية العربية، ومن ذلك قوله تعالى:" **إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**"[5].

"**إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**" [6].

"**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**" [7].

"**يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**" [8].

---

[1] انظر: ابن زكريا ،أبو الحسن احمد بن فارس : **معجم مقاييس اللغة** ، مادة: "سطر " ، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون ، جزء3 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص72-73.

[2] الزمخشري ،جار الله: **أساس البلاغة**، مادة: سطر ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون، 1996، ص205

[3] ابن منظور: **لسان العرب** مادة "سطر"، مجلد 2، ص143 .

[4] الزبيدي، محمد مرتضى: **تاج العروس**، مادة: " سطر"،مجلد3، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت: لبنان ص267.

[5] سورة القلم: آية 15.

[6] سورة المؤمنين: آية 83.

[7] الفرقان: آية5.

[8] الأنعام: آية 25.

" **قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**"[1].

" **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**"[2].

وتخبرنا كتب التفاسير عن معنيين للأسطورة هما: الخرافات والأباطيل، وكُتب المتقدمين، فيذكر ابن كثير في تفسيره " أساطير الأولين" في سورة الأنفال قوله: "ومعنى أساطير الأولين، وهو جمع أسطورة أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس وهذا هو الكذب البحت "[3] وفي سورة النحل علّق بقوله:" أيّ مأخوذ من كتب المتقدمين "[4].

أمّا الصابوني فيذكر في تفسيره "أساطير الأولين" الواردة في سورة القلم على لسان "الوليد بن المغيرة" حين تُقرأ آيات القرآن على ذلك الفاجر يقول مستهزئاً ساخراً: إنّها خرافات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله[5]، وفي تفسيره لها في سورة "المؤمنون "تأتي بمعنى: "أكاذيب وأباطيل المتقدمين"[6]. وفي سورة الفرقان، أنّ النضر بن الحارث قال في حقّ القرآن: إنّه خرافات الأمم السابقة أمر أن تُكتب له وتُلقى وتُقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً[7]، وفي سورة الأنعام على لسان الكافرين الذين جاءوا مجادلين يقولون عن القرآن:" بأنّه خرافات وأباطيل الأولين "[8].

---

[1] الأنفال: آية 31.

[2] النحل: آية 24.

[3] ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل :**تفسير القرآن العظيم**، ، جزء "2" ،المكتب الجامعي الحديث– الإسكندرية ، ص347.

[4] المرجع السابق: ج 2، ص638.

[5] انظر:الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، جزء 3 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص426.

[6] المرجع السابق: ج2، ص318.

[7] انظر:المرجع السابق: ج2، ص355.

[8] المرجع السابق: ج1، ص385.

لم تظهر الأسطورة عند العرب دون قاعدة متينة تستند إليها، ولم تبدع العقلية الإنسانية الأولى فيها دون علاقة تفاعلية مع الوجود والكون من حولها، بل كان الإنسان يتفاعل ويتواصل مع الكون من حوله، بكلّ موجوداته التي كانت تعني له الشيء الكثير.

فالأسطورة كما يراها فراس السواح: "نظام فكري متكامل، استوعب قلق الإنسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، والأحاجي التي يتحداه بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه. إنّها إيجاد النظام حيث لا نظام، وطرح الجواب على ملحاح السؤال، ورسم لوحة متكاملة للوجود، لنجد مكاننا فيه ودورنا في إيقاعات الطبيعة. إنّها الأداة التي تزودنا بمرشد ودليل في الحياة، ومعيار أخلاقي في السلوك، إنّها مجمع الحياة الفكرية والروحية للإنسان القديم "[1].

أمّا محمد الخطيب فيتكلم عن الأسطورة بشكل عام ويرى أنّها مزيجٌ من العقل والخيال، فيقول: "إذا نظرنا إلى الأسطورة من زاوية كونها محاولة فكرية بذلها الإنسان في سياق بحثه عن هويته وعن تفسير معنى وجوده بالذات، فإنّنا سوف نصل بالضرورة إلى تفسير يرى الأسطورة مزيجاً من العقل والخيال تتوحد فيه نظرة الإنسان إلى ذاته وإلى الطبيعة والعالم"[2].

وأمّا أحمد كمال زكي في حديث له عن منطق الأسطورة فيكاد يجمع على أن "الأسطورة لا تخرج على أن تكون قصة خيالية قوامها الخوارق والأعاجيب التي لم تقع في التاريخ ولا يقبلها العقل، حتى أنّنا عندما نريد أن ننفي وجود شيء نقول: إنّه أسطوري"[3]. ويمضي في القول: "إن منطق الأسطورة هو اللامنطق واللامعقول واللازمان، وفي هذا كلّه تبدو الأسطورة وسطاً بين الحلم واليقظة، أو لعلّها تبدو كأنّها ضرب ممتع من أحلام اليقظة[4].

وأمام كلّ ما سبق، نلاحظ أنّ الطبيعة بدورها أثرت تأثيراً كبيراً على الإنسان، ووضعته أمام امتحان صعب، ومهمات شاقة؛ للوصول إلى حالة من التوازن بينه وبين ذاته، وبينه وبين

---

[1] السوّاح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، دراسة في الأسطورة، ط11، دار علاء الدين. دمشق، ص19.

[2] الخطيب، محمد: **الفكر الإغريقي**، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 1999م، ص12.

[3] زكي، أحمد كمال: **الأساطير**، دراسة حضارية مقارنة، ط2، دار العودة، 1979م، ص107.

[4] المرجع السابق: ص115.

مكوّناتها إزاء التساؤلات الملحّة تجاه الكون. فلا شك أنّ الأسطورة عبارة عن موقف أو لحظة انفعال أمام المؤثرات الخارجية من حوله ومما يحيط به، وبالتالي ثمرة لجهوده في فهم طبيعة ظواهر الكون، وتسمية تلك الظواهر، وتحديد أماكنها، وماهيتها؛ ذلك أنّ الإنسان يحاول بخياله أنّ يفسرها ويبحث لها عن مخرجات، فالأسطورة كما نرى تتضمن بذلك وجداناً جماعياً، لها طقوسها، وشعائرها التي تمارس على الأرض.

لذلك سوف نتعامل في الصفحات القادمة مع الأسطورة الجاهلية باعتبارها أخباراً ضاربة في القدم، تلك الأخبار التي تتعلق بالموروث الجاهلي المقدّس، والتي وسمت ذلك العصر بسمات أسطورية، وعادات ومذاهب تشوبها معاني الوثنية والشرك.

*** صورة السماء:**

اشترك الجاهليون مع الوثنيين في عكس تصوّراتهم الأسطورية على السماء، فالسماء في منظورهم هي مكان للآلهة المتقاتلة أو المتحالفة مع بعضها بعضاً، وحاول العربي أن ينقل تلك الصورة على الأرض من خلال الأصنام التي عبدها، التي كانت تمثل رمزاً للآلهة في السماء، فنجدهم قد عبدوا الإله "بعل" "وهبل" "ونسر" وغيرها، ومن ناحية أخرى لم تكن السماء ذلك المكان العالي المفتوح الذي لا حدود له فحسب، بل تصوّر الإنسان الجاهلي أنّ أعلى قمّة فيها هي مكان العرش الخاص بالله عزّ وجل، وعدا ذلك هو المكان الذي تتوزع فيه الملائكة والجن والكواكب، وتجري عليه مختلف الحوادث المتعلقة بالكواكب خاصة الشمس والقمر[1].

إنّ الإنسان الجاهلي الذي عاش في الجزيرة العربية ذات الصحاري المترامية، قد تأثر بها وبكلّ مظهر من مظاهر الطبيعة عليها، فرأى النجوم والكواكب تسبح في صفحة السماء، وكما رأى الأشجار والجبال ومعالم الحياة موزّعة على صفحة الأرض، لذا لا بدّ ــ والحال كذلك – أن يتفاعل معها ولكنّه في مراحله الوجودية الأولى فوق هذه البيئة، حتماً أنّه قد وقع في حيرة من أمره، وألحّت عليه أسئلة كثيرة حول كيفية التعامل مع تلك المظاهر، فنجده يضفي عليها ثوباً من الحياة، فهي من منظوره أشخاص لها حياتها مثله تماماً.

---

[1] انظر: عسكر ، قصي الشيخ: **أساطير العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة**، ط1، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع 2007م،ص129– 130.

وللعرب أساطير عن الكواكب، ومن ذلك ما ذكـروه مـن أنّ " الـدَّبران "[1] خطـب " الثريّا"[2] وأراد القمر أن يزّوجه منها، لكنها أعرضت عن ذلك، وقالت للقمر: ماذا أصنع بهـذا (السبروت) الذي لا مال له؟! فجمع الدبران قلاصه[3]، ووضعها أمامه، وأخذ يتبعها ويلاحقهـا لإقناعها بالزواج منه[4]. غير أنّ "العيوق"، وهو كوكب آخر مضيء، يطلع قبل الجوزاء، عـاق الدبران عن لقاء الثريا، فسمي بذلك[5].

ولعلّ في هذا كلّه ما يعلل لنا عبادة العرب للثّريّا بوصفها "ربّة" للخصب، ومانحة للغيث، فقد ارتبطت عبادة الكواكب عند العرب كغيرهم من المجتمعات القديمة، بما كانت تتركه من آثار في حياتهم، ومن ثم اختلفت دوافعهم إلى هذه العبادة ومواقفهم من تلك الكواكب التـي عبـدوها، فكانت عبادة حب لما تبعثه في حياتهم من خصب وثراء، وعبادة خوف ورعب لما تبعثـه مـن شؤم وجدب، كما حدث في عبادتهم لـ (الدبران)، حيث كانوا يعدونه كوكباً مشؤوماً[6].

ومن ذلك أيضاً ما ذكروه في "المرزم"، وهو الشِعْرى، يطلع بعد الجوزاء في شدة الحـرّ، تقول العرب: إذا طلعت الشعرى جعل صاحب النحل يرى، وهما الشعريان: (العبور) التي فـي (الجوزاء) و (الشعرى الغميصاء) التي في الذراع، تزعم العرب أنّهما أخت (سهيل). وقد عبدت طائفة من العرب (الشعرى العبور). قالوا: إنّها عبرت السماء عرضاً، ولـم يعبرهـا عرضـاً

---

(1) الدّبران: نجم بين الثّريّا والجوزاء، ويُقال له التابع والتّويبع، وهو من منازل القمر، وسمي كذلك لأنه يـدبر الثّريّا أي يتبعها،[انظر: لسان العرب، مادة "دبر" ، مجلد1،ص941].

(2) الثّريّا: من الكواكب، سميت لغزارة نَوْئها، وقيل سميت بذلك لكثرة كواكبها مع صغر مَرْآتها، فكأنها كثيـرة العدد بالإضافة الى ضيق المحل، [انظر: لسان العرب ، مـادة " ثـرا " ، مجلـد1، ص356] . [وانظـر: البستاني، بطرس: محيط المحيط، مادة "ثرا.. ثريا"، ص80].

(3) القُلاص: الفَتيّة من الإبل، أيّ صغارها التي ساقها "الدّبران" صداقا للثريا،[انظـر: لسـان العـرب، مـادة "قَلَصَ"، مجلد3، ص151] .

(4) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الجزء6، ط1، دار العلم للملايـين، بيـروت، 1970، ص817.

(5) انظر: **لسان العرب**، مادة "عوَق "، مجلد2، ص930.

(6) انظر: عبد الرحمن ،إبراهيم: **التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي**، مجلة فصول، مجلد1، العدد الثالث، ابريل 1981، جمادى الآخرة 1401، ص131.

غيرها، فأنزل الله: "**وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى**"[1] وسميت الأخرى (الغميصاء)؛ لأنّ العرب قالت في حديثها إنّها بكت على أثر العبور حتى غمصت[2].

وزعموا أنَّ (سهيلاً) كان عشاراً [3]على طريق اليمن ظلوماً فمسخه الله كوكباً، وعُرف بأنّه نجم يماني عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ[4].

كما أنَّ (الشمس) إلهة عند كثير من الجاهليين، فتعبدوا لها، وعدّت صنماً عندهم[5]. وقد زعموا كذلك أنّها ملك من الملائكة لها نفس وعقل، وهي أصل نور القمر والكواكب وتكوّن الموجودات السفلية كلّها عندهم منها، فهي تستحق التعظيم والسجود، ومن شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها صنماً بيده جوهر بلون النار، وجعلوا له بيتاً وسدنة وحجبة يأتونه ويصلّون فيه للشمس ثلاث مرّات يومياً، وكذلك يأتيه أصحاب الأمراض فيصومون ويصلّون ويبتهلون بالدّعاء، أمّا أوقات سجودهم لها فهي عند طلوعها، وغروبها، وإذا توسطت الفلك، وهي أوقات نهى الإسلام عن الصلاة فيها منعاً للتشبه بالكفار، وسدّاً لذريعة الشرك وعبادة الأوثان[6].

وزعم العرب كذلك أنّ القمر يستحق التعظيم والعبادة، فقد اتخذوا له صنماً على شكل عجل وبيد الصنم جوهرة، وهم يعبدونه ويسجدون له أياماً من كلّ شهر، ويأتون إليه بالطعام والشراب، فإذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء، وكان السبئيون يرمزون للقمر في كتاباتهم برأس ثور، كما كانت الثيران من أكثر الحيوانات التي يقدمونها ضحايا له. ومما يدل على تقديس الجاهليين للثور الذي اتخذوا منه رمزاً على القمر، هي تلك المشابهة التي يعقدونها بين قرني الثور وبين القمر عندما يكون هلالاً[7].

---

(1) النجم: آيه49.

(2) الزبيدي، محمد مرتضى: **تاج العروس**، مادة: " شعر " ، مجلد3، ص305.

(3) العشّار: قابض العُشر. [انظر: **لسان العرب**، مادة "عَشَرَ"، مجلد2، ص783].

(4) انظر:الزبيدي: **تاج العروس**، مادة (سهل).مجلد7،

(5) انظر: المرجع السابق :مادة "شمس"، مجلد 4، ص172،

(6) انظر :الآلوسي، محمود شكري: **بلوغ الأَرَب في معرفة أحوال العرب**، الجزء2، دار الكتب العلمية– بيروت، ص215–216.

(7) انظر: عبد الرحمن ،إبراهيم : **التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي** ،مجلة فصول، ص131.

ومن تخيلات العرب وأساطيرهم حول الشمس، أنّه إذا سقطت سنّ الغلام، أخذها بين السبابة والإبهام، فإذا طلعت الشمس، استقبلها وقذف السنّ في عينها، وهو يقول في ذلك: "أبدليني بسن أحسن منها، ولتجرِ في ظلمها آياتك"[1]. قال طرفة بين العبد البكري:

بدّلَتْهُ الشَمْسُ من مَنْبَتِهِ بَرداً أبيضَ مَصْقولَ الأُشُرْ[2] (البحر الرمل)

ومن طقوس العرب في الاستسقاء، كانوا إذا أجدبت السماء وأمسكت عنهم، وتضايقوا من انحباس المطر، وأرادوا أن يستمطروا، عمدوا "السلع" و "العُشَر"، فخرموها، وعقدوها في أذناب البقر، وأضرموا فيها النيران، وأصعدوها في موضع وعر، واتبعوها يدعون الله ويستسقون، وكانوا يضرمون النار في أذنابها تفاؤلاً للبرق بالنار. وكانوا يسقونها باتجاه الغرب من دون الجهات الأخرى[3]، ويُقال لهذا الفعل (التسليع)[4].

واستنتاجاً لما سبق فإنّ إضرام النيران في أذناب البقر، إنّما فعلوا ذلك من باب التفاؤل بالمطر، لا سيّما وأنّ النار تشير إلى البرق ولمعانه، والبرق يجلب المطر فيعم الخير على الأرض، ويتضح من ذلك الطقس أنّه تمثيل لهذه الظاهرة الطبيعية بكلّ أحداثها، حيث يمثل الدخان تراكم السحب في السماء، وتمثل ألسنة النار إضاءة البرق، وهبوط الأبقار يشير إلى التفاؤل والأمل بالنتيجة المحتملة من الطقس وهي هطول الأمطار استجابة للصلوات المؤداة، والواسطة الإلهية في ذلك هي البقر والثيران الوحشية التي يؤديها الطقس[5].

---

(1) الألوسي، محمود شكري: **بلوغ الأَرَب في معرفة أحوال العرب**، الجزء2،ص318.

(2) ديوان طرفة بن العبد: اعتنى به: حمدو طمّاس، ط1، 1424هـ، 2003م، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت، ص48، الأشر: التحزيز في الأسنان خلقة أو صناعه.

(3) انظر: الألوسي: محمود شكري : **بلوغ الأرب**، جزء2 ،ص301،.

(4) انظر: ابن منظور: **اللسان**، مادة " سلع "، ص184.

(5) انظر:البطل، علي: **الصورة الفنية في الشعر العربي** حتى أخر القرن الثاني الهجري ــ دراسة في أصولها وتطورها ، ط 1 ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1980، ص131.

ويؤكد أنور أبو سويلم على أنّ الإنسان القديم سعى إلى استرضاء القُوى الخفية التي كانت تتحكم في سقوط المطر وفق رأيه، وكذلك إلى التوسّل والتَّذلُل والتّفـرُّع، والبكـاء والتعاويـذ، والسحر، وتقديم القرابين، والصلوات والابتهالات[1].

وقد كان الاستسقاء بالنجوم من أهم معتقدات الجاهليين، فقد جعلوا المطر فعلاً للكواكـب، وحادثاً عنها، فقد نسبوا الأمطار والرياح إلى الساقط والطالع من النجوم، وأضافوا الغيـث إلـى الكواكب، فقالوا مُطِرْنا بنوء كذا... فقد جاء في المخصص: "وإنما جاء حمدهم بعـض الأنـواء وذمهم بعضاً من قِبَل مواقع الأمطار التي تكون في أيامها، فأيّ كوكب جاء وقت نَوْئه، فصادف المطر الذي يكون فيه من الزمان ومن البلد موافقة ونجع، فتبيّن خيره ونفعه، حمدوا ذلك النوء، وأضافوا حمده إلى الكواكب، ونوّهوا به، وإلا يكنْ ذلك ذمّوه، وسمّوا نوءَه به، حتى كان الفعـل في ذلك فعل الكواكب، ولمّا جرّبوا هذه الأمور في القديم وطال اختبارهم لها، فوجدوها ثابتة في مراتبها، ألزموا الكواكب ذلك"[2].

ويعلّق الدكتور "محمد عبدالمعيد خان" على طبيعة ابتكار الأساطير عند العربي الجـاهلي منتصراً لخياله من ناحية التخيل التصوري على حساب التخيل الاختراعي، فيقول: "إنّ التصور أو الخيال التصوري هو الغالب والمسلط على حياته العقلية، وهـذا الخيـال التصـوري يولّـد الأسطورة التصورية، كما يضع الخيال الأساطير الاختراعية، وكذلك نرى العربي يمثل نجـوم السماء، بما يشاهده في البيداء، وينقل شكل حياته الاجتماعية البدوية على رقعة السماء، غير أنه لا يخترع الأساطير مثل اليونان. فإذا أردنا أن نبحث أسطورة عربية فعلينا أن نراها في خيـال تصوري أكثر مما نراها في خيال اختراعي. وإذا أردنا أن نبحث عـن العربـي الـذي ينسـج الأسطورة فيجب أن نرى ذلك العربي حين يلعب بالألفاظ"[3].

---

[1] انظر: أبو سويلم، أنور: **المطر في الشعر الجاهلي**، ط1، دار عمار للنشر والتوزيع- عمـان، 1407هـ، 1987م، ص58 .

[2] ابن سيدة ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي : **المخصص**، مجلد2، ص2.

[3] خان ، محمد عبدالمعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القـاهرة ، ص38-40.

وبشأن علاقة الأسطورة بالمعتقد الديني، يضيف فراس السّواح قائلاً: "تنشأ الأسطورة عن المعتقد الديني وتكون بمثابة امتداد طبيعي له، فهي تعمل على توضيحه وإغنائه، وتثبّته في صيغ تساعد على حفظه وعلى تداوله بين الأجيال. كما أنّها تزوده بذلك الجانب الخيالي الذي يربطه إلى العواطف والانفعالات الإنسانية. ومن ناحية أخرى، فإنّ الأسطورة تعمل على تزويد فكرة الألوهية بألوان وظلال حسيّة، لأنّها ترسم للآلهة صورها التي يتخيلها الناس وتعطيها أسماءها وصفاتها وألقابها، وتكتب لها سيرتها الذاتية، وتاريخ حياتها، وتحدد صلاحياتها، وعلاقات بعضها ببعض"[1].

ونحن بدورنا نرى أنّه مهما كان نوع التخيل الذي ارتكز عليه الجاهلي في صنع منظومته الأسطورية فقد استطاع فهم ما وراء الطبيعة، وذلك لأنّه أحبّ الطبيعة الجاهلية التي كانت مركز نشاطاته وانفعالاته ومحطهما ، فأجاد وصفها وتصويرها وتشخيصها، وما مشاهداته في السماء من فوقه خير دليل على ذلك، فكان يرسم على صفحتها ومن خلال تحديقه بالأفلاك الموجودة عليها كلّ ما كان يراه في باديته العربية، ولعلّ هذا يظهر واضحاً وحلّياً في الأساطير التي نسجها حول النجوم والكواكب والأنواء.

*** صورة الأرض:**

إنّ لأهل الجاهلية عادات وأساطير كثيرة تتعلق بالأرض التي عاشوا فوقها، لا سيّما وأنّ الصحراء أمامهم تفيض بموجوداتها التي خلبت الأنظار، من حيوانات ونباتات وجمادات موّزعة هنا وهناك، فلا بدّ للجاهلي– والحال كذلك– أن ينسج أساطيره ومعتقداته بشكل يرتبط مع هذه المكوّنات على الأرض.

فمن تلك الأساطير ما كانوا يفعلونه في أسفارهم فإذا خرج أحدهم إلى سفر "عمد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها، فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط، فإن وجده على حاله علم أنّ

---

[1] السواح ،فراس: **الأسطورة والمعنى**، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط1، 1997م ، منشورات دار علاء الدين– دمشق، ص24.

زوجته لم تخنه، وإن لم يجده كذلك أو وجده محلولاً قال: قد خانتني، وكانوا يسمون ذلك العقد "الرتم" و "الرتمة". ويقال: بل كانوا يعقدون طرفاً من غصن شجرة بطرف غصن آخر"[1]. وكانوا يعقدون الرتم للحمى، ويرون أنّ من حلها انتقلت الحمى إليه[2].

وكانت العرب إذا ولدت المرأة أخذوا شيئاً من صمغ "السمرة" "حيض السمرة"، وهي شجرة من شجر الطلح، فينقطون منه بين عين النُفَساء، ويخطون على وجه الصبي خطاً خوفاً عليه من الخطفة والنظرة، فلا تجرؤ الجنية – حسب معتقداتهم– على التقرب من الصبي– ويسمونه "النفرات"[3].

ويبدو أنّ الإنسان الجاهلي قد عبد الأشجار وتبرّك بها، وربط بينها وبين الجنّ والأرواح وهذا ما يؤكده محمد عبدالمعيد خان في كتابه: الأساطير العربية قبل الإسلام، حين قال: "إنّ العربي كان يعبد الأشجار ويرى فيها روح الشرّ مثل "الحماطة"، وهي شجرة شبيهة بالتين، وهو أحب الشجر إلى الحيّات، أو" العشر" التي كانت العرب تظنها مسكن الشياطين قبيل الإسلام. وإذا كان العلم بالجن والشياطين علماً حديثاً وفكرة دينية، فإنّ وجود فكرة مثل هذه تدل نفسها على أنّ تلك الأشجار، كانت ذات حيوية عند العرب، وأنّ هذه الحيوية تحولت في صورة الشياطين في عصر الأديان، كما أصبحت الآلهة القديمة "جنا" في عصر اليهود والنصارى؛ فتطور حيوية الأشجار في أرواح الشياطين إنّما كان وقت انتشار الأديان في شبه جزيرة العرب. ومن ذلك ما قبل من أنّ العزّى وهي من آلهة العرب القدماء كانت شيطانه. أمّا ظهور العزى على ثلاث شجرات سمرات فهو يدل على الفكرة، لأنّ الأشجار التي كانت تمثل روح الشجر نفسه أصبحت محل حلول تلك الأرواح التي تقيم فيه وتهجره كيفما تشاء"[4].

ونلاحظ هاهنا أنّ عقيدة الجاهليين في تعاملهم مع الأشجار لم يتخذ شكلاً واحداً، أو صورة ثابتة، فلم تبق الشجرة في عُرف الجاهلي مجرد مادة يستظل بها، أو يستعين بها في طعامه وشرابه ومسكنه وموقده وسلاحه، بل هي عنده أسمى من ذلك كلّه، فقد أعطاها حياةً جديدة، ونقلها إلى مركز الألوهية.

---

[1] الألوسي: **بلوغ الأرب**، جزء2، ص316.

[2] انظر:المرجع السابق: جزء2، ص117.

[3] انظر:المرجع السابق: جزء2، ص325.

[4] خان ،محمد عبدالمعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، ص52.

ومما يذكر في ذلك أيضاً أنّ "ذات الأنواط" شجرة عظيمة خضراء، كانت قريش ومن سواهم من المشركين، يأتونها كلّ سنة، فيعلقون عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويقومون يوماً[1].

ويحدثنا الدكتور خليل أحمد خليل عن تقديس الإنتاج النباتي عند العرب، من خلال شجرة النخيل التي كان لها المكانة الأولى في احتفالية العرب، فأهل نجران كانوا يعبدون نخلة طويلة ويقيمون لها عيداً كلّ سنة، كما تميز العرب في الجزيرة عموماً بتعظيم وتقديس الأشجار والحج إليها، وتميّزت بعض القبائل عندهم باحتفالية خاصة كانوا يقيمونها لإله مصنوع من التمر، فإذا جاعوا، أكلوه كقبيلة بني حنيفة[2].

ويؤكد أحد الدارسين على أنّ شجرة النخيل شكلّت مقوّماً هاماً من مقومات الوجود العربي، فقد رافقت البدوي في أقسى ظروف حياته، وأنتجت له ما يغنيه عن الموت جوعاً، ولأجل ذلك، فقد عُظمت وعُبدت وقُدّست[3].

وتقدير بعض الأقوام والقبائل لهذه الشجرة, واتخاذ مواضعها حرماً آمناً مقدساً يتبركون بها، ويتقربون إليها بالنذور والقرابين، يدل على تصورهم وجود قوى روحية كافية فيها، معتقدين أنّ لهذه القوى أثراً خطيراً في حياتهم وربما جاء هذا التصور والاعتناء نتيجة ضخامة هذه الأشجار وقوتها، أو ثمرها الكثير، أو نفعها من حيث استعمالها، ومن هنا جاء تقديسهم لها، وعنايتهم بها، فاجتمعوا حولها وهم يقيمون هذه الاحتفالات[4].

أمّا فيما كانوا يعتقدونه حول الوديان وأماكن المياه، فكان مسافرهم " إذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل، عمد إلى وادٍ ذي شجر، فأناخ راحلته في قرارته، وهي

---

(1) ابن منظور: **اللسان**، مادة "نوط"، ص744.

(2) انظر: خليل، أحمد خليل، **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، الأسوار للطباعة والنشر– عكا القديمة، ص40.

(3) دغيم، سميح: **أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام**، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبناني، بيروت، ، 1995م، ص153.

(4) انظر: علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج6، ص806.

القاع المستديرة، وعقلها، وخط عليها خطاً، ثمّ قال: أعوذ بصاحب هذا الوادي"[1]. وإلى ذلك أشار القرآن الكريم:"**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**"[2].

وإذا غاب إنسان، فلم يقفوا على أثره، فيمكن الاهتداء إليه، وذلك بأن يذهبوا إلى بئر قديمة أو حفر قديم في الأرض، ثم ينادوا في البئر أو الحفر اسم الغائب ثلاث مرّات، فإن سمعوا صوتاً علموا أنه حي معافى، وإن لم يسمعوا شيئاً علموا أنّه قد فارق الحياة[3].

وبذلك نرى أنّ الجاهليين لم يكتفوا بتقدير أماكن الخصب وتصويرها فحسب، وإنّما قدسوا مواض المياه القديمة، واعتقدوا أنّ فيها أسراراً غامضة، وأضفوا عليها قوى خفية، يعتقدون من خلال أنّها تنقظهم في أوقات الشدة، وتكشف لهم عن المستور.

وما بئر زمزم إلا دليل على ذلك، فقد انصرف إليها الناس لفضلها على سواها من المياه، لجلال قدرها، وكان يتمثل بشرفها على سائر المياه، فكانوا يتفاخرون في المقام عليها، والشرب منها، والاغتسال بها، لمكانها من المسجد الحرام، ولأنّها بئر إسماعيل عليه السلام[4].

وكان من معتقداتهم الجاهلية أنّهم كانوا إذا أرادوا أن تورد البقر الماء، فعافته، قدمّوا ثوراً، فضربوه، فورد الماء، فإذا فعلوا ذلك، وردت البقر، وكانوا يقولون، إنّ الجن تصدّ البقر عن الماء، وإنّ الشيطان يركب قرني الثور[5]. فقد كانوا يزعمون أنّ الجن هي التي تصدّ الثيران عن الماء، وبالتالي يمتنع البقر عن وروده حتى يهلك ويموت.

وكانت الجبال عندهم تؤثر في حياة الإنسان، وممّا اعتقدوا حولها أنّ " تأثير جبل "أبي قبيس" يزيل وجع الرأس، وتأثير جبل "خودقور" أنّه يعلّم السحر " [6].

---

[1] الألوسي: **بلوغ الأرب**، الجزء الثاني، ص325.

[2] سورة الجن: آية 6.

[3] انظر: الألوسي: **بلوغ الأرب**، الجزء الثالث، ص3.

[4] انظر: الحموي ،شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت : **معجم البلدان**، ط1 ، جزء 3 ،ص166.

[5] انظر: الألوسي: **بلوغ الأرب**، الجزء الثاني، ص303.

[6] خان، محمد عبدالمعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، ص51.

وكانوا يخاطبون الجبل كما يخاطب الرجل أخاه، كما قيل: كان المشـركون إذا أرادوا الإفاضـة قالوا: "أشرِقْ يا ثبير كيما نُغْير" وكانت الشمس تشرق من ناحية جبل ثبير[1].

وكانت الأسطورة العربية تعتبر أنّ الأماكن المقدسة هي أعلى ارتفاعاً، وأنّ الجبل يسـتمد قداسته من ارتفاعه، فجبل "أبي قبيس" في الحجاز ليس جبلاً عادياً، إنّه مسؤول، ونـاطق أمـين مقدّس، ولهذا الجبل سرّ متعلق بخروج الحجر الأسود منه، توضحه لنا الحكايـة الأسـطورية، "بينما إبراهيم يبني البيت إذ ناداه جبل أبي قبيس: يا إبراهيم إنّ لك عندي وديعة فخذها، فلما دنا منه انشق الجبل وخرج منه الحجر الأسود"[2].

أما بشأن تقديسهم للحجارة وعبادتهم لها، فقد روى الألوسي: " وكنا نعبـد الحجـر فـي الجاهلية فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه، ثم طفنا به"[3].

ونحن نرى أنّ الأساطير التي نسجها الجاهلي حول تلك الظـواهر الطبيعيـة كالأشـجار والآبار والجبال وغيرها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالديانة الوثنية التي كان عليها، وأنّ تلك الديانة قـد ركّزت اهتمامها في الأشياء التي عايشها الجاهلي واستفاد منها وبنى حياته عليها، لذلك فالديانـة كان لها حضورها في الأساطير الجاهلية، وأيضاً كان للعرب حياتهم الأسـطورية وحضـارتهم التي يعتزون بها ويحافظون عليها قبل الإسلام. وهكذا نستطيع أن نقول: إنّ الأسطورة الجاهلية تمثل صيغة من صيغ الانفعال التي تعرض لها الإنسان الجاهلي فوق صحرائه. كما أنّ دراسـة الأسطورة وفهمها من خلال المنظور الذي تمّ تقديمه، تتحول إلـى دراسـة الإنسـان ودراسـة ماضيه، وبالتالي إلى فهم للحاضر واستشراف المستقبل.

---

[1] انظر: الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، " ثبير"، جزء 2، ص85.

[2] خليل ، أحمد خليل: **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، ص56.

[3] الألوسي: **بلوغ الأرب**، جزء2، ص211.

المبحث الثالث: دلالات مشتركة بين الفكر الأسطوري والشعر الجاهلي .

لم يكن هدف الشاعر "أن يأتي بالمعاني الجديدة، ولكنّه مسوق بحكم طبيعة اللغة والتجربة، إلى خلق الوجد الحسي، وكلما نجح في خلق هذا الوجد، فإنّه لا يجدد على مستوى المعنى كما نفهمه اليوم، ولكنه يجدّد على مستوى بعث البنية الوجدانية كلّها لدى المستمع المرتبط مع هذا الشاعر، بذات نوازع التجربة القائمة في عالمها، كتفاصيل تثبت خبرات علمية، وكانطلاق ميثولوجي إلى آفاق الوجد شبه الصّوفي باللانهاية غير المعروفة، وغير المجسّمة إلا في فضاء النفس الشعرية، على الطريقة الجاهلية آنذاك"[1].

لقد كان الجاهلي يحتفظ بمقدار كبير من الطبائع العقلية لأجداده القدامى، وكان يلح ويصرّ على الاحتفاظ بها، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى :" **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**"[2]. وهكذا ندرك أنّه كان يتصرّف لحل قضاياه الوجودية بدوافعه الروحية أكثر من وعيه العقلي، ومن ثم كانت هذه العقلية تحقق النظرة الأسطورية التي "تجمع الأشياء والأحياء في وحدة وجودية شاملة حيث يغدو الإنسان فيها لا يتصور عالمه الطبيعيّ صامتاً، وإنّما يتصوره حيّاً مدركا" [3].

وهكذا تلتقي الأسطورة والشعر؛ ذلك لأنّ الشعر والأسطورة ينشأان من الحاجة الإنسانية ويمثلان نوعاً واحداً من البِنْية الرمزية، حيث إنّ في كليهما انتصاراً للخيال على الواقع، أو تجاوزاً للواقع المخيف إلى بناء واقع جديد يتواءم مع النفس البشرية وآمالها المشرقة التي تسعى إليها[4].

ولعلّ هذا يدل على التوافق القائم بين عالمي الفن والأسطورة، فلولا الأسطورة ما ظهر إبداع فني متميز، ولولا وجود الحس الفنيّ ما تعرّفنا إلى ملامح الأسطورة وأساسيّاتها في الفكر البدائي.

---

[1] موسوعة الشعر العربي: **الشعر الجاهلي**، مجلد1، شركة خيّاط للكتب والنشر- بيروت: لبنان 1974م ، ص26.

[2] سورة الزخرف: آية22.

[3] الشوري ،مصطفى عبدالشافي: **الشعر الجاهلي**، تفسير أسطوري،ط1 ، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، 1996 م، ص67.

[4] انظر: المرجع السابق: ص83.

إنّ الكثير من الشعر الجاهلي يرتبط بهذه النظرة الأسطورية، لا سيّما وأنّ هذا العصر اتسم بغزارة انتاجه الشعري، رغم قلة ما روي منه.وهذا ما جعل الدكتور شوقي ضيف يقول: "ويخيل إلى الإنسان أنّ الشعر لم يكن يستعصي على أحد منهم"[1]، وهذا يدل على كثرة الشعر الجاهلي، وأنّ الطابع العام لهذا العصر هو الطابع الشعري، والذي لا بدّ وأن يعكس النظرة الأسطورية لهذا العصر، فالشاعر الجاهلي وهو ينظم قصيدته، "كان كالعابد والساحر يواجه قدره، ويعيد إلى نفسه الثقة في أن يمتلك الكون بالنظام التصوّري الخاص الذي يحدثه في قصيدته، فالقصيدة عنده شبيهة بابتهالات العابد وتميمة الساحر، ويخرجها بدوافع روحية فكرية قاصداً بها السيطرة على الكون، ومن هنا يمكننا القول بأنّ الشعر كان ذا طابع أسطوري لم يفض بعد"[2].

لا يمكن لأيّ باحث مهما كان على درجة كبيرة من الاطلاع والسعة، أن يحيط إحاطة شاملة بالتجربة الجاهلية، لا لأنّها تتصف بالغنى الخصيب فحسب، بل لأنّها تمثل درجة معينة من درجات ارتقاء الروح، من جهة، ومرحلة معينة من مراحل التشكل الاجتماعي- الاقتصادي، من جهة أخرى كذلك، ولما كنا نعيش اليوم في حضارة أرقى، ونملك عقلاً أكثر تقدماً، فإنّنا نشعر باتساع الهوة بيننا وبين المرحلة الجاهلية مما يسهم كثيراً في ضعف تواصلنا مع تلك المرحلة، لكن هذا التطور لن يستهلك التجربة الجاهلية، لأنّها تجربة بدائية محضّة، كما أنّ الشعر الجاهلي لا يتصف بشمولية الواقع فحسب، أيّ بشمولية اللحظة الجاهلية، بل هو يحيط بكلّ ما هو متأصل في الحياة، ويشمل ثوابت الكيان النفسي[3].

إنّ من يطالع الشعر الجاهلي يجد أنّ الشعراء يكررون الكثير من الصور المتشابهة في قصائدهم، مثل الوقوف على الأطلال، والبكاء والحنين إلى الظعائن الراحلة، وصور الحيوان بما فيها أوصاف الناقة والفرس، والثور والبقرة الوحشيين، والحمار الوحشي وأتنه، وهذا ما يجعلنا نَسِم هذا الشعر بأنّه يتخذ شكل النزعة التصويرية من تنوّع أدواتها وخصوبة صورها وعمق رموزها.

---

(1) ضيف، شوقي: **العصر الجاهلي**، ط7، دار المعارف بمصر- القاهرة، ص186.

(2) الشوري، مصطفى عبدالشافي: **الشعر الجاهلي**- تفسير أسطوري، ص83.

(3) انظر: اليوسف ، يوسف **:مقالات في الشعر الجاهلي**، ، ط3، دار الحقائق بالتعاون ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1975، ص15-16.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ها هنا، لماذا ظاهرة التكرار هذه في جميع القصائد؟ ولماذا حرص الشاعر الجاهلي على ترديدها بصورها ومعانيها؟ وهل كان شعراء الجاهلية مقلدين لبعضهم بعضاً، ومقتفين أثر شاعرهم الأول الذي صنع الصورة الأولى وتركت أثراً محبباً في ذهنه وذهن غيره؟ أم كان ذلك عرفاً جاهلياً في أشعارهم، يتضمن علماً بالموروث الديني القديم تناقله الشعراء شاعراً تلو آخر؟.

لقد حافظ الشعراء الجاهليون على النسق الخاص في عرض القصيدة الجاهلية، من الوقوف على الأطلال، ووصف رحلة الظعن ورحيل المحبوبة، وغيرها، وإن دلّ هذا على شيء، فإنّه يدل على أنّ هذه الصور العامة والثابتة، وإنّ تنوعت جزئياتها، فهي مترابطة ومتداخلة لا فكاك بينها، بحيث تعطي في النهاية طابعاً وفكراً وقيماً خاصة عن معتقدات الجاهليين وتصوراتهم.

ولذلك لم يكن حرص الشاعر الجاهلي على تكرار هذه الصور من أجل البحث عن الجديد في ابتكار المعاني والتشبيهات؛ "ذلك أن عقلية التعلّق بالنماذج سواء على صعيد الواقع أو صعيد الفن، لم تكن لتسمح للشاعر بحرية ابتكار القوالب العامة للقصيدة، بل كان يطلب منه كما يطلب من الساحر أن يأتي بالواقعية بأساليب تفوق الواقع وقدرته في الوقت ذاته"[1].

كان عقل الشعراء الجاهليين يختزن – دون وعي منهم– أشياء ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، ولا شك أن هذا المخزون اللاوعيي كان يظهر في نتاجهم الشعري، ويؤيد هذا الرأي ما قاله الدكتور أحمد كمال زكي: "فالإنسان على مدى التاريخ يسجل تجاربه، أو ما يبدو منها خطيراً ومؤثراً في حياته، وهو في أي مجتمع يختزن في ذهنه أشياء عن شتى الأطوار التي مرّ بها هو وأجداده، ولقد يلحّ عليه بعض المخزون بما يدل على وجوده في دائرة الشعور من حيث هو مكوّن لحقائق قائمة، بينما يظلّ بعضه الآخر في الأعماق محتفظاً بكلّ ما وعته الإنسانية منذ ما قبل العصر الحجري القديم. ومن حين إلى حين يندفع إلى السطح بحيث يمكن أن يشاهد ويقرأ"[2].

---

[1] موسوعة الشعر العربي: **الشعر الجاهلي**، مجلد1، ص44.

[2] زكي، أحمد كمال: **الأساطير**– دراسة حضارية مقارنة، ص263.

وعليه فإنّ الشعر الجاهلي كان حافلاً ببقايا الأساطير التي كانت منتشرة بين الشعوب العربية القديمة، وهذا يدل على أنّ العقلية الجاهلية وعت هذا الموروث الثقافي بما فيه من أساطير وخرافات، فليس غريباً أن تظهر مثل هذه المعتقدات في أشعارهم، إذ إنّ الشاعر الجاهلي عبّر عنها بالتجربة الشعرية التي عاشها وصقلها بعناصر وأفكار وأخيلة مختلفة.

وبعد القراءة المتأنية للقصيدة الجاهلية، ومتابعة لوحاتها وعناصر تلك اللوحات، رأينا أنّ الأسطورة ماثلة فيها، وأنّ الشعراء الجاهليين حاولوا جاهدين عكس تصوراتهم وقيمهم الأسطورية عبر تلك العناصر، التي تبدو للوهلة الأولى عناصر مادية تمثل نفسها ووجودها في البيئة الجاهلية، لكن المتمعن فيها والمتعمق في دراسة معتقدات العرب في الجاهلية، يرى ويتيقن أنّ ثمة علاقة واضحة وقوية بين الموجودات المادية في الشعر ومعتقداتهم الأسطورية، لكن اللافت للنظر أننا لا نستطيع أن نصنّف الدلالات المشتركة بين الفكر الأسطوري والشعر الجاهلي لصورة الأرض بشكل منفصل ومحايد عن صورة السماء؛ إذ إنّ صور الشعر الجاهلي بلوحاتها المتكاملة والجزئية والتي تمثل الجانب المادي للحياة الجاهلية، نجدها تتطابق تطابقاً كلياً مع عالم الكواكب السماويّ كما تصوّرها العقل الجاهلي، هذا يعني أنّ عالم الأرض بكلّ مكوناته وموجوداته من إنسان وأشجار ونبات، وحيوان وغيرها، نجده يلتقي ويتداخل مع عالم السماء بكواكبه ونجومه.

الفصل الثاني

السماء والأرض في القرآن الكريم.

مدخل ...

المبحث الأول: صورة خلق السماء والأرض .

المبحث الثاني: صورة الزمن .

المبحث الثالث: صورة الماء والإحياء .

المبحث الرابع: صورة تسبيح المخلوقات .

المبحث الخامس: مشاهد السماء والأرض يوم القيامة.

السماء والأرض في القرآن الكريم

مدخل ...

كان الإنسان في زمن نزول القرآن الكريم، ينظر حوله، فيرى الأرض ممتدة بصحرائها الواسعة، ويرى فيها الإبل وأشجار النخيل وغيرهما، فإذا رفع ناظريه إلى السماء نهاراً فإنّه يرى شمساً كبيرة شديدة الضوء واللمعان، وإذا رفعهما إليها ليلاً فلا يرى فيها سوى القمر وبعض النقاط الصغيرة المضيئة، وهي النجوم، وقد أمره الله سبحانه وتعالى بأن يقلّب نظره فيها؛ ليتعرف إلى عظمة الخالق وقدرته، وإلى روعة الإتقان في الخلق، من خلال استخدامه لعينيه المجردتين وإعمال فكره، وقد وعده الله – عزّ وجلّ– أن يُريه في المستقبل آياته في الآفاق، وفي نفسه وهذه الآيات لم تكن معروفة زمن التنزيل، ففيها تكمن أسرار الخلق، وقدرة الخالق العظيمة، وقد قال تعالى فيها: "**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**"[1]. وقال تعالى: " **سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**"[2].

والقرآن الكريم معجز في إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وجميع مظاهره . فهو يشير في كثير من آياته إلى الكون ومكوناته (السموات، والأرض، وما بكلّ منهما من صور وظواهر)، وهذه الآيات القرآنية فيها من الإشارات الكونية التي لم يصل إليها علم الإنسان .

"والإشارات الكونية في القرآن الكريم جاءت في أكثر من ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتشكلّ هذه الآيات الكونية حوالي سدس مجموع آيات القرآن الكريم"[3].

لقد دعانا الله عز وجل– إلى النظر والتفكّر في ملكوت السماوات والأرض؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى الإيمان بالله تعالى والإذعان له وحده بالعبودية، ولقد وصف المؤمنين المتفكرين في خلق الكون بقوله: " **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**"[4].

---

[1] سورة فصلت: آية 53.

[2] سورة الأنبياء: آية37.

[3] النّجار،زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم**، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت: لبنان، 1425هـ، 2004م.ص16

[4] سورة آل عمران: آية191.

المبحث الاول: صورة خلق السماء والأرض .

جاءت مادة "خلق" بمشتقاتها في القرآن الكريم مائتين وإحدى وستين مرة، للتأكيد على أنّ عملية الخلق هي عملية خاصة بالله تعالى وحده دون غيره، فهي عملية لم يشاركه فيها أحـــد ولا يقدر عليها غيره[1].

كذلك وردت لفظة "السماء" في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة موضع، منها مائة وعشرون مرة بصيغة الإفراد (السماء)، ومائة وتسعون مرة بصيغة الجمع (السماوات أو سماوات)[2].

كما جاء ذكر لفظة "الأرض" في أربعمائة وواحد وستين موضعاً من كتاب الله، منها مـــا يشير إلى الأرض ككلّ في مقابلة السماء، ومنها ما يشير إلى اليابسة التي نحيا عليهـــا، أو إلـــى جزء منها. ومنها ما يشير إلى التربة التي تغطي صخور الغلاف الصخري للأرض[3].

ولقد أمرنا الله – عزّ وجل– بالنظر والتفكر في قضية بدء الخلق، فهو القائـــل ســـبحانه وتعالى: " **أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَـــانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"[4].

إنّها صورة عجيبة لبدء الخلق على كثرتهم واختلاف أحوالهم ؛ ليعرف المخاطبون بها عجائب قدرة الله سبحانه ، فكما بدأ الله تعالى الأشياء وأنشأها وأوجدها ابتداءً ، فلم يتعذر عليه إنشاؤها وإحداثها معيداً لها مرة أخرى ، فذلك سهل ويسير كما كان كذلك في البداية .وفي ذلك إشارة للبعث بعد الموت.

---

(1) انظر: النّجار، زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم**، ص78.

(2) انظر: المرجع السابق: 78.

(3) انظر: النّجار،زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القـــرآن الكـــريم**، دار المعرفـــة للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت، لبنان، 1426هـــ، 2005م، ص81.

(4) العنكبوت: الآيتان: 19و 20.

وجاء الخطاب في الآية الثانية بالتخصيص بذكر" الأرض" ؛ للسير فيها والنظر في قضية بدء الخلق ، فالأرض ماثلة بشكل واضح للسائر فيها والناظر إليها . وفي قوله :" **ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ**" تأكيد على تلك النشأتين ، فالنشأة الأولى هي بدء الخلق التي جاءت في بداية كلّ من الآيتين ، أمّا النشأة الثانية " **الْآخِرَةَ** " فهي إعادة الخلق بعد الفناء.

وللتنبيه على هذا المعنى جاء تكرار لفظ الجلالة " الله " خاصة في الآية الثانية في قوله تعالى: " **ثُمَّ اللَّهُ** " ،وقوله تعالى :" **إِنَّ اللَّهَ** ".

وفي قوله تعالى: " **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**"[1].

فهذه دعوة إلى التفكر في إبداع خلق الله تعالى للسموات والأرض ؛ لإدراك عجائبه فيهما، فهي صورة توضح عظيم شأن صنع الله فيها، وأنّ في خلقهما حكمة بالغة لكل موجوداتهما.

وفي تقديم "الذكر" على "التفكر" " قدّم الأول؛ لأنّه إشارة إلى النظر في الأنفس وأخر الثاني؛ لأنّه إشارة إلى النظر في الآفاق، وهذا بيان للتفكر في أفعاله تعالى وما تقدّم بيان للتفكر في ذاته تعالى، وقد خصص التفكر بالخلق للنهي عن التفكر في الخالق لعدم الوصول إلى كنه ذاته وصفاته جل شأنه"[2].

وفي قوله تعالى: "**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا** " " الإشارة إلى السموات والأرض لما أنّهما باعتبار تعلق الخلق بهما في معنى المخلوق "[3].

---

[1] آل عمران: آية 191.

[2] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مجلد 4 ،دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ص: 158 – 159 .

[3] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، جزء4، ص59

واسم الإشارة " **هَذَا** " للإشارة إلى أنّها مخلوقات عجيبة يجب أن يُعتني بكمال تميزها استعظاما لها "[1]. والإفراد والتذكير في "هذا "جاء للتعظيم .

وتمضي الآيات الداعية للتأمل والتدبر في قوله تعالى:" **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**"[2].

فالسير في الأرض واستلهام العبرة منها ، بحاجة إلى الإصغاء لها ، وتدبر ما جرى فيها، فصورة الأرض ها هنا شاخصة وناطقة لمن سيراها رؤية عميقة ، ويدرك ما وراءها، ولا يكون ذلك إلاّ بالقلوب المبصرة والعامرة بالإيمان الحقيقي، وبالأسماع المتيقظة المعتبرة، ومعنى الآية يشير إلى "أنّه لا يُعتد بعمى الأبصار، وإنّما يُعتد بعمى القلوب فكأنّ عمى الأبصار ليس بعمى، بالإضافة إلى عمى القلوب، فالكلام تذييل لتهويل مما بهم من عدم فقه القلب وأنّه العمى الذي لا عمى بعده بل لا عمى إلا هو"[3]. ووصف القلوب بـ " **الَّتِي فِي الصُّدُورِ** " "للتأكيد ونفي توهم التجوّز وفضل التنبيه على أنّ العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يختص بالبصر"[4]. فالصورة تجعل المتلقي يُمعن في تخيّل القلوب التي ستصاب بالعمى وتجعله يشعر بالخوف.

هذه الآيات واضحة، فهي تدعو الإنسان إلى تحمل المسؤولية العلمية حول كلّ ما يحيط به، فهي تأمرنا بالسير في الأرض؛ ليتعلم الإنسان ليس عن الخلق والمخلوقات فحسب، بل عن كيفية بدء الخلق، ليزداد الإنسان معرفة وعلماً بأمور الخلق، وبالنشأة الأولى التي أنشأها الله تعالى، فيزداد المؤمن إيماناً ونوراً، ويبصّر من حوله بهذا الإيمان، وينير لهم الطريق.

فالآيات القرآنية أكدت أنّ خلق السموات والأرض قد كان في غيبة كاملة عن الإدراك البشري، لكن الله عزّ وجلّ – من رحمته " قد أبقى لنا في صخور الأرض وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان – بإمكانياته المحدودة– على الوصول إلى تصوّر ما لعلمية الخلق، إلاّ أنّ هذا التصوّر يبقى في مجال الفروض والنظريات ولا يمكن أن يرقى إلى

---

[1] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**،جزء4، ص160.

[2] الحج: آية 46.

[3] الألوسي: **روح المعاني**، جزء17 ،ص167.

[4] أبو السعود، محمد بن محمد العمارى: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، جزء6، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ص111.

معالم الحقيقة أبداً؛ لأنّ الحقيقة العلمية لا بدّ وأن تكون واقعة تحت حسن الإنسان وإدراكه – على الرغم من محدودية ذلك– ومن هنا فإنّ العلوم المكتسبة لا يمكن أن تتجاوز في قضية الخلق مرحلة التنظير أبداً، ولذلك تتعدد النظريات في قضايا الخلق بتعدد خلفيات واضعيها... وفي هذا الخضم يبقى للمسلم نور من الله سبحانه وتعالى في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح يعينه على الانتصار لإحدى هذه النظريات[1].

إنّ صورة خلق السموات والأرض، على ما هما عليه من بديع الصنع والإحكام، وخلق الظلمات والنور لدليل على وحدانيته – سبحانه – وأحقيّته بالحمد والثناء ، لقوله تعالى:" **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**"[2].

ويذكر "صاحب الظلال" في تعليقه على هذه الآية : "إنّها اللمسات الأولى.. تبدأ بالحمد، ثناءً عليه وتسبيحاً له، واعترافاً بأحقيته للحمد والثناء، على ألوهيته المتجلية في الخلق والإنشاء... بذلك تصل بين الألوهية المحمودة وخصيصتها الأولى.. الخلق، وتبدأ بالخلق في أضخم مجالي الوجود... السموات والأرض... ثم في أضخم الظواهر الناشئة عن خلق السموات والأرض وفق تدبيره مقصود... الظلمات والنور... فهي اللمسة العريضة التي تشمل الأجرام الضخمة في الكون المنظور، والمسافات الهائلة بين تلك الأجرام، والظواهر الشاملة الناشئة عن دورتها في الأفلاك.. لتعجب من قوم يرون صفحة الوجود الضخمة الهائلة الشاملة تنطق بقدرة الخالق العظيم كما تنطق بتدبيره الحكيم، وهم بعد ذلك كلّه لا يؤمنون ولا يوحدون ولا يحمدون؛ بل يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه"[3].

وفي اختيار كلمات الآيات فصاحة وبلاغة عالية، فكلّ كلمة تتناسب والمقام الذي قيلت فيه، فاختيار اللفظ " خَلَقَ " للسموات والأرض، ولفظ "جَعَلَ " للظلمات والنور؛ " فإنّ في الخلق

---

[1] انظر:النّجار، زغلول راغب محمد: **حقائق علمية في القرآن الكريم**، ط1، دار المعرفة: بيروت– لبنان، 1426هـ، 2005م، ص13.

[2] الأنعام: آية1.

[3] قطب، سيد: **في ظلال القران**، المجلد2، دار الشروق – بيروت، ط9، 1400هـ، 1980م، ص1030.

ملاحظة معنى التقدير ، وفي الجعل ملاحظة معنى الانتساب ، يعني كون المجعول مخلوقاً لأجل غيره أو منتسباً إلى غيره" [1].

"فالفعل " خلق " أليق بإيجاد الذوات ، والفعل "جعل " أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها "[2].

والخَلْقُ في اللغة: ابتداع الشيء على مثال لم يُسبق إليه؛ وكلّ شيء خلقه الله فهو مُبْتَدِئه على غير مثال سُبق إليه. وأصل الخلق التقدير، فهو باعتبار تقدير ما منه وجُودُها وبالاعتبار للإيجاد على وفق التقدير خالقٌ"[3]. أمّا كلمة جَعَلَ في اللغة فهي: "بمعنى "الخَلْق والايجاد"[4] وعندما كانت السموات والأرض هما الأصل ، والظلمات والنور هما الفرع، جاء ذكرهما عقب ذكر السموات والأرض. وقد خص سبحانه من الأعراض عرضين عظيمين، هما: الظلمات والنور؛ " لاستواء جميع الناس في إدراكهما والشعور بهما"[5].

ولا شك أنّ التعريض بهما يتناسب مع حال المخاطبين ، فالكفر ظلمة ، والإيمان نور.

وقدّم ذكر " **الظُّلُمَاتِ** " على "النُّورَ"، مراعاة لترتيبهما في الوجود، فالظلمة كانت عامة وسابقة للنور، حيث حصل النور في الوجود بعد خلق الذوات المضيئة.

كما أنّ جمع السموات وإفراد الأرض يتناسب وحال كلّ منهما، فالسموات عوالم كثيرة، إذ فيها من الكواكب، حيث كلّ كوكب يستقل عن غيره، أمّا الأرض فهي عالم واحد، لذا نجد لفظ الأرض في القرآن مفرداً، وهذا من أسرار جمع السماوات وإفراد الأرض. وجاء جمع الظلمات؛ لكثرة الظلمات وطرقها، ولأنّها بالجمع أخف، وإفراد "النور"؛ لأنّها بالإفراد أخف.

---

[1] ابن عاشور ، محمد الطاهر : **تفسير التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس ،جزء 7 ، 1997 م، ص: 126.

[2] المرجع السابق :جزء7، ص127.

[3] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "خَلَقَ" مجلد1، ص889.

[4] البستاني، بطرس: **محيط المحيط**، مادة "جَعَلَ"، ص112.

[5] ابن عاشور ، محمد الطاهر : **تفسير التحرير والتنوير** جزء7، ص127 .

ويطرح القرآن الكريم فكرة معينة محددة المعالم عن بداية الكون المادي ونهايته، مع أنّ هذه الفكرة كانت مجهولة تماماً عند الإنسان القديم، وقد جاء العلم الحديث، وكشف القناع عن أصل وجود الكون منذ ملايين السنين وأنّه كان كتلة واحدة،وبعد أن جرت عليه عوامل متعددة ، أصبح بالصورة التي هو عليها الآن ، من وجود الشمس ومدارها ، والكواكب السيارة التي تدور بمدارها وجاذبيتها، ومن مدار الشمس مع مجموعتها في مدار المجرة. وكان القرآن الكريم قد أنبأ عن هذه الحقيقة قبل أكثر من ألف سنة[1] فقال عزّ وجل: " **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كلّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**"[2].

والرتق في اللغة عكس الفتق؛ لأنّ الرتق: هو الضم والالتحام والالتئام، يقال: رتقت الشيء فارْتَتَق أي: فالتأم والتحم[3]. والفتق: لغة: هو الفصل والشق والانشطار[4].

ويتضح لنا المعنى من هذه الآية الكريمة أنّ السموات والأرض كانتا في الأصل شيئاً واحداً متصلاً وملتحماً ، ففتقه الله – سبحانه – بأمره إلى الأرض التي نحيا عليها ، وإلى السموات التي فوقنا "أي كان الجميع متصلاً بعضه ببعض، متلاصقاً، متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء"[5] وهذه أغرب معجزة من معجزات القرآن التي يجب أن نقف أمامها وننبهر بعظمة الله سبحانه وتعالى وجماله[6].

ولعلّ صفتي" الرتق" و" الفتق" كانتا للسموات والأرض معاً، فالسماء كانت رتقاً لا تمطر، والأرض رتقاً لا تنبت ، ففتق الله سبحانه السماء بالمطر والأرض بالنبات . والمقصود

---

(1) انظر:القميحا، نزيه: **القرآن يتجلى في عصر العلم**، راجعه وحققه السيد نزار فضل الله، ط الأولى، دار الهادي 1997م، 1417هـ، ص65.

(2) الأنبياء: آية 30.

(3) انظر: **لسان العرب**، مادة "رَتَقَ"، مجلد1، ص1119.

(4) انظر: المرجع السابق، مادة "فَتَقَ"، مجلد2، ص1046.

(5) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **تفسير القرآن العظيم**، جزء3، ص205.

(6) خضر،هالة محجوب: **الإبداع الإلهي بين الجمال والجلال**، ط1، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر – الإسكندرية، 2006م، ص57.

بالسماوات هو :" السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق أو السموات جميعا على أن لها مدخلا في الأمطار "[1].

إنّ الكون عندما انفجر لا بدّ وأن يتحول إلى سحابة من الدخان الذي تخلّقت منه الأرض والسماء، وقد سبق القرآن الكريم كلّ المعارف الإنسانية بإشاراته إلى مرحلة الدخان في قوله تعالى: " **ثُمَّ استوى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**"[2] ."أيّ: عمد إلى خلقها وقصد إلى تسويتها وهي بهيئة الدخان"[3]. "والمراد بالدخان بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض"[4].

وكان الجمع بين السموات والأرض في قوله: " **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ** "، إشارة لتوجه الخالق سبحانه لخلقهما توجهاً واحداً .

وجاء الخطاب في قوله:" **ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** " كناية عن لزوم قبول الأمر الدّال على عظمة قدرة الآمر ونفاذ أوامره بمخلوقاته سواء أكانت صغيرة أم كبيرة .

وجاء في عرائس المجالس تعقيباً على قوله تعالى: " **ثُمَّ استوى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** " أيّ : قصد وعمد إلى خلق السماء وهي بخار، وخلق من ذلك الزبد الأرض، فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء مكة، فدحا الله الأرض من تحتها، فلذلك سميتْ "أم القرى" يعني أصلها"[5].

وذكر في عرائس المجالس أيضاً على ألسنة الرواة، "أنّ الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهرة خضراء أضعاف طباق السموات والأرض ثمّ نظر إليها نظر

---

[1] أبو السعود، محمد بن محمد العمارى: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، جزء6، ص65 .

[2] فصلت ، آية 11 .

[3] الصّابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص117.

[4] الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، جزء4، ص111.

[5] الثعالبي، أبو إسحاق: **عرائس المجالس**، تحقيق: محمد سيّد، ط1، دار الفجر للتراث – القاهرة، 1422هـ، 2001م، ص10.

هيبة فصارت ماء، ثم نظر إلى الماء فغلا وارتفع منه زبد ودخان وبخار، وأرعد من خشية الله، فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة، وخلق الله من ذلك الدخان السماء"[1].

ويذكر نزيه القميحا بأنّ العلم لم يذكر إلاّ ما قاله القرآن الكريم منذ مئآت السنين، عندما اكتشف العلم أنّ الكون بدأ من غاز قد علق به بعض المواد الصلبة، وأنّ اللفظ العلمي لهذه الحالة هو لفظ الدخان، لذلك فلا وجود للانفجار، أو المصادفة، ولم يمكن للمادة أن تتحرك وحدها، بل لا بدّ لها من محرك ومدبر مسؤول عنها وهو الله عز وجل[2].

وذكر ابن كثير عن مجاهد في تفسيره لقوله تعالى: " **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**"[3].

أي أنّ الله – عزّ وجلّ– خلق الأرض قبل السماء، فلما خلقها ثار منها دخان، ثمّ قصد إلى السماء فخلق السماء سبعاً بعضهن فوق بعض وسبع أرضين يعني بعضهن تحت بعض وهذه الآية دالة على أنّ الأرض خلقت قبل السماء[4].

ففي الآية تقديم الأرض على السماء ؛ لأنّ الأرض أقرب وأظهر للمخاطبين من السماء ، ففي السياق تشويق للمخاطبين للانتفاع بموجودات الأرض التي خلقها سبحانه لأجلهم .

وفي لفظ " **جَمِيعًا** "، تأكيد على عموم ما في الأرض من مخلوقات خلقها سبحانه ضمن نظام متناسق يخدم مصالح الناس .

---

[1] الثعالبي، أبو إسحاق: **عرائس المجالس**، تحقيق: محمد سيّد، ط1، دار الفجر للتراث – القاهرة، 1422هـ، 2001م، ص9–10.

[2] انظر:القميحا، الشيخ نزيه: **القرآن يتجلى في عصر العلم**، ص67.

[3] البقرة، آية 29.

[4] الدمشقي: أبو الفداء إسماعيل بن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، الجزء الاول، ص84–85.

أمّا عندما ذكر " **السَّمَاءِ** " فقد أردف التعبير بـــ " **سَبْعَ سَمَوَاتٍ** " على اعتبار أنّ التعبيـــرين متشابهين ، "فالسماء لفظها واحد ومعناها الجمع؛ لأنّها في معنى الجنس"[1]

وبذلك نرى أنّ القرآن قد سبق كلّ المعارف الإنسانية بإشارته إلى كيفية خلـــق الســـموات والأرض من خلال عملية فتق الرتق وظهور الدخان، ثمّ خلق كلّ شيء من الســـموات والأرض منه، وكذلك اتساع الكون وثباته، يقول الله تعالى: "**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْـــدٍ وَإِنَّـــا لَمُوسِـــعُونَ**".[2] أيّ: وشيدنا السماء وأحكمنا خلقها بقوة وقدرة ، وإنا لموسعون في خلقها[3].

وقد جاء البناء ها هنا مع السماء، ليتناسب ذلك مع العلو، فعندما كانت السماء أعلى مـــن الأرض، وتحتاج إلى قوة وقدرة عظيمة جاء اللفظ " **بَنَيْنَاهَا** ؛ اهتماماً بها وبجمال شكلها.

وتشير هذه الآية الكريمة إلى ضخامة الكون واتساعه، وإحكام صنعه، وانضباطه في كـــلّ أموره، لا سيّما وأنّ الله – عزّ وجلّ– خلقه بعلمه وقدرته وحكمته الواسعة، لذا فهو قادر على أن يحفظه من الزوال، كما تشير الآية إلى حقيقة توسع هذا الكون باستمرار إلـــى مـــا شـــاء الله أن يكون عليه.

إن مراحل الرتق، والفتق، والدخان، والإتيان بالسموات والأرض، وتوسع الســـماء، لهـــي دليل واضح على قدرة الله تعالى في بدء خلق السموات والأرض، وستكون هذه المراحل

كذلك في نهاية الكون عند بعث المخلوقات يوم القيامة – وهذا ما سنراه لاحقاً–.

لقد عرض القرآن الكريم صوراً وإشارات كونية حول خلق السموات الســـبع والأرضـــين السبع وذلك في سبع آيات، يقول تبارك وتعالى:

1– " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَـــيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكلّ شَيْءٍ عِلْمًا**"[4]. تأكيد أن الأرض سبع متطابقة كمـــا أنّ الســـموات ســـبع

---

[1] النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود : **تفسير النسفي** ، جزء1 ، دار الكتاب العربي ، بيـــروت – لبنان ، ص35 .

[1] الذاريات: آية 47.

[2] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، المجلد الثالث، ص257.

[4] الطلاق: آية 12.

متطابقة، و" في كلّ سماء من سماواته وأرض من أرضه خلق من خلقه وأمر من أمره وقضاء من قضائه "[1].

فخلق الأرض يماثل خلق السموات ، ففي كليهما خصائص دالة على عظيم قدرة الله تعالى. وفي إفراد لفظ الأرض دون جمعها كما جاء في لفظ السموات " إيذان بالاختلاف بين حاليهما " [2].

2- " **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**"[3]. " فالأولى من موج ملفوف، والثانية من درّة بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من زمرّدة بيضاء" [4]. أيّ: خلق سبع سموات متطابقة، بعضها فوق بعض، كلّ سماء كالقبة للأخرى، وليس في خلق الله تعالى من اختلاف أو تنافر أو خلل، بل خلقها بإحكام وإتقان"[5] .

إنّ وصف السموات بأنّها شديدة المطابقة، حيث إنّها مناسبة بعضها لبعض في النظام ، فلا اختلال في نظامها فيتعرض أهلها للأهوال، دليل على اللفظ " **الرَّحْمَنِ** "، فالتعبير بهذا الوصف دون غيره إشارة إلى أنّ هذا النظام مما اقتضته رحمته تعالى بالناس؛ لتجري أمورهم على حالة توافق نظام عيشهم.

---

[1] الرازي ، فخر : **التفسير الكبير** ، ط2 ، جزء 30 ، دار الكتب العلمية – طهران ، ص: 40 .

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء 29، ص340.

[3] الملك: آية 3.

[4] أبو حيّان ، محمد بن يوسف: **تفسير البحر المحيط** ، ط2 ، جزء 8 ، دار الفكر ، 1398 هـ – 1978 م ، ص: 298 .

[5] انظر: الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، المجلد الثالث، ص416.

3- " **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**"[1].

ونلاحظ ها هنا أنّه جمع القمر والشمس مع السموات في الخلق ؛ لاعتبار أنّ القمر والشمس من مكوّنات السماء الدنيا المقابلة للأرض. والإخبار عن القمر بأنّه نور، فهذا الوصف حقيق بالقمر، لأنّه بضوئه ينير الأرض بخلاف غيره من نجوم السماء الأخرى التي تظهر في الليل ولا جدوى من إنارتها. كما أنّ الإخبار عن الشمس بأنّها سراج، فهذا ممّا يتناسب مع نور أشعتها الملتهبة واللامعة مثل نور الصباح المتوقد.

4- " **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**"[2]

وجرى الجمع في هذا السياق بين السموات السبع والعرش العظيم، فكلاهما مملوك لله تعالى، ولعلّ تكرار لفظ "ربٌّ " متضمن تلك الدلالة؛ فالربوبية تقتضي ذلك.

5- " **وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا**"[3]. أيّ: السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها[4].

وفي التعبير تنبيه للمخاطبين للاعتبار والنظر في تلك السموات، وقد وصفها بالشدّة أيّ أنّها متينة وقوية الخلق. وفي قوله: "وَبَنَيْنَا" فهذا يتناسب مع السموات كونها مرتفعة عن الأرض.

6- " **فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كلّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا** "[5].ففي لفظ " **فَقَضَاهُنَّ** " معنى الإيجاد، "والقضاء: الإيجاد الإبداعي؛ لأنّ فيه معنى الإتمام والحكم، فهو يقتضي الابتكار والإسراع" [6].

---

[1] نوح: الأيات15, 16.

[2] المؤمنون: آية 86.

[3] النبأ: آية12.

[4] انظر:ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل ، الجزء الرابع، ص549.

[5] فصلت: آية 12.

[6] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء25 ، ص248 .

7- " **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**"[1].

وفي ذلك إشارة لوظيفة السماوات والأرض والمخلوقات الموجودة فيهما ، فقد أسند التسبيح إلى كثير من الأشياء التي لا تنطق، وفي ذلك دلالة على تنزيه الله سبحانه. وفي استخدام صيغة المضارع " **تُسَبِّحُ** " دلالة على الاستمرارية والتجدد في التسبيح.

وكذلك جاءت الإشارة القرآنية إلى سبع طرائق في آية واحدة، وهي إشارة إلى السموات السبع، يقول سبحانه وتعالى: " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ**"[2].

والطرائق هي:" طرائق سير الكواكب السبعة وهي أفلاكها"[3]. وفي قوله " **فَوْقَكُمْ** ": تنبيه على وجوب النظر والتفكير في قدرة الخالق. وفي خلق الطرائق السماوية حكمة إلهية عظيمة وهي التلطف والعناية بالعباد؛ لأنّهم ينتفعون بها في أسفارهم من خلال الإنارة الحاصلة من الشمس والقمر.

وقد ذكر صاحب الظلال "والسموات السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها، وأبعادها ومساحاتها، وكذلك الأراضي السبع، فقد تكون أرضنا هذه التي نعرفها واحدة منهن، والباقيات في علم الله، وقد يكون معنى "مثلهن"، أنّ هذه الأرض من جنس السماوات فهي مثلهن في تركيبها أو خصائصها، وعلى أيّة حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا، لأنّ علمنا لا يحيط بالكون، حتى نقول على وجه التحقيق: هذا ما يريده القرآن، ولن يصح أن نقول هكذا إلى يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كلّه علماً يقينياً... وهيهات...!"[4].

---

[1] الإسراء: آية 44.

[2] المؤمنون: آية 17.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء19 ، ص27.

[4] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، مجلد6، ط9، ص3606.

•صورة تزيين السماء :

ولقد زيّن الله تعالى الدنيا التي أمامنا بالنجوم والكواكب، وقد جاء ذكر ذلك في بعض الآيات الكريمة، من مثل قوله تعالى: "**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ**"[1].

فزينة السماء حاصلة نظراً لزينة الكواكب ، فالكواكب تكون زينة للسماء في الليل من خلال لمعان ضوئها ، ففيها منفعة دنيوية للناس تكمن في الزينة والاهتداء ، وهذا مما يروق لهم ويسرّهم. ففي اللفظ " زَيَّنَّا " إشارة إلى تجميل السماء.

وقوله تعالى: " **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**"[2]. وقوله تعالى: " **وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا**"[3].

وففي التعبير دلالة على إتقان صنع السماء ، وقد سمّيت النجوم هنا مصابيح على التشبيه في حسن المنظر .وجاء اللفظ " مَصَابِيحَ " نكرة ؛ للتعظيم . وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل من تلك النجوم الشهب التي ترجم بها الشياطين .

وقوله تعالى: " **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ**"[4].

وقد جمع التعبير بين البناء والتزيين بشكل عام دون تفصيل ذلك التزيين من خلال ذكر الكواكب المزيّنة والمصابيح ــ كما مر سابقاً ــ، وفي هذا دعوة لجميع الناس لإدراك ما يشاهدونه بما يتناسب ودرجة فهمهم ورؤيتهم لها .

وفي قوله تعالى: " **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**" [5].

---

[1] الصافات: آية6.

[2] الملك: آية5.

[3] فصلت: آية12.

[4] ق: آية6.

[5] الحجر: آية 16.

والبروج هي النجوم المجتمعة بعضها بقرب بعض، وهذه البروج العظيمة الصنع قد جعلت بأشكال تقع موقع الحسن في الأنظار ؛ فكانت زينة للناظرين يتمتعون بمشاهدتها في الليل فكانت الفوائد منها عديدة .

ففي قوله: " **زِينَةِ الْكَوَاكِبِ** " و " **مَصَابِيحَ** " و " **بُرُوجًا بروجاً**" كلّها تعبّر عن البناء الدقيق المحكم للكون، وهي تشير كذلك إلى النجوم والكواكب التي تنير السماء وتجمّلها.

إنّ السماء مزينة بالنجوم دون غيرها، حيث يصل عددها إلى (400) مليار في مجرّتنا "درب التّبانه"، ولا نرى منها بأعيننا المجردة سوى القليل، وليس المقصود أساساً أن تكون زينة للأرض، ولكن الله سبحانه وتعالى قد جعلها للناظرين إليها من الأرض، زينة وهي في حقيقة الأمر أكبر من ذلك لقوله تعالى: " **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ**"، فالنجوم ليست للزينة فقط، ولا هي رجوم للشياطين وحسب، ولا هي دليل يهتدي به الساري على الأرض ، بل هي أعظم شأناً وأكبرمن ذلك بكثير[1]يقول تعالى:" **فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ** "[2]. والسماء الدنيا: هي السماء القريبة منا، وهي السماء الأولى أقرب السموات إلى الأرض[3].

ويضيف الدكتور زغلول النجار قائلاً: إنّ السماء الدنيا هي السماء الوحيدة التي يمكن للإنسان أن ينظر إليها، أمّا بالنسبة للسموات الست الباقية فلولا أنّ الله تعالى قد أخبرنا عنها في القرآن، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ارتادها في ليلة الإسراء والمعراج، وأخبرنا عنها في أحاديثه، ما كان في وسع الإنسان أن يتعرّف إلى خبرها، وأنّ كلّ ما تعلمه عنها من خلال وصف القرآن الكريم لها بأنّها متطابقة مع السماء الدنيا، ومحيطة بها بشكلّ كامل[4] وذلك تأكيداً لقوله تعالى: "**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا**"[5].

---

[1] انظر : السعدي، داود سلمان: **أسرار الكون في القرآن**، ط2، دار الحرف العربي: بيروت- لبنان، 1420هـ- 1999م، ص105-106.

[2] الواقعة: الآيتان 75و 76.

[3] انظر: الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، المجلد الثالث، ص118، و ص416.

[4] انظر :النّجار، زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم**، ص146.

[5] نوح: الآيتان 15و 16.

- **صورة خلق ما بين السماء والأرض:**

وكذلك أشار القرآن الكريم في معرض بيانه لآيات خلق السموات والأرض إلى خلق ما بينهما، يقول تبارك وتعالى: " **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**"[1].

وقد جاء التعبير القرآني بذكر " **بَيْنَهُمَا** " مرتين، وقال البقاعي في تفسير الأولى: "أيّ: ما بين النوعين وبين أفرادهما، بما به تمام أمرهما"، وفي تفسير الثانية قال: "أيّ : وأنتم مما بينهما "[2].

وذكر صاحب صفوة التفاسير في الأولى، "أيّ: من الخلق والعجائب، وفي الثانية: "أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه"[3].

وفي قوله تعالى: " **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**"[4] . ذكر أصحاب المنتخب في التفسير أنّ هذا النص "يشير إلى سائر أجرام السماء من نجوم وكواكب وأقمار وأتربة كونية وغازات وطاقات يتألف الكون منها"[5] وهناك آيات أخرى تعطي الدلالة نفسها[6].

---

[1] المائدة: الآيتان 17 و 18.

[2] البقاعي ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر : **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، ط1 ،ج2 ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1415هـ – 1995م ، ص: 420– 422 .

[3] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، المجلد1، ص334–335.

[4] الفرقان: آية59.

[5] محمود، جمال الدين محمد: **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، ط8، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1402هـ– 1981م، ص539.

[6] انظر: الأنبياء: 16، و طه: 6، و الحجر: 85، و مريم:65.

إلاّ أنّ هناك آيتين من آيات القرآن الكريم تلقيان بعض الضوء على دلالة مختلفة لما بين السموات والأرض، أولاهما قوله تعالى: " **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كلّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**"[1]. ويفهم من هذه الآية الكريمة أنّ السحاب هو مما بين السماء والأرض.

وثانيهما قوله تعالى: " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكلّ شَيْءٍ عِلْمًا**"[2] . وفي هذه الآية يفهم أنّ الأمر الإلهي هو مما يتنزل بين السموات السبع والأرضين السبع، أيّ:"الوحي بينهن إلى خلقه في كلّ أرض وفي كلّ سماء "[3].

•صورة خلق الجبال :

إنّ الله –عزّ وجل – عندما خلق الأرض ثبتها ودعّمها بالجبال، لذا وصف الله تعالى الجبال بأنّها رواسي، وقد تكرر هنا المعنى في أكثر من موقع، منها قوله تعالى: " **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**"[4].

إنّ خلق الأرض ممدودة متسعة، فيها من التيسير على الناس للانتفاع بها والسير فيها من مكان إلى آخر، كما أنّ "الاستدلال بخلق الجبال على عظيم القدرة لما في خلقها من العظمة المشاهدة بخلاف خلقه المعادن والتراب فهي خفية"[5].

وقوله تعالى : "**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كلّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ**"[6] فاللفظ "**مَدَدْنَاهَا**" يوحي بالسعة والانبساط، لذا جعل التعبير عن خلق الرواسي بقوله "**و أَلْقَيْنَا** "، وهذا

---

[1] البقرة: آية164.

[2] الطلاق: آية12.

[3] الرازي ،الفخر : **التفسير الكبير** ، جزء 30 ، ص : 40.

[4] الرعد: آية3.

[5] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء14، ص: 82.

[6] الحجر: آية19.

يتناسب مع اللفظ السابق، ثمّ جاء باللفظ " أَنْبَتْنَا" إشارة إلى عظيم قدرة الله تعالى. وقوله تعالى: "وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ"[1]. وقوله تعالى: " وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا"[2]. إلى غير ذلك من الآيات التي توضح صفة الجبال الرواسي[3].

إنّ معنى كلّمة " رَوَاسِيَ " واحد في جميع هذه الآيات، فجميعها جاءت بمعنى الجبال الثوابت الرواسخ التي ثبتها الله تعالى وقرّها في أماكنها وجعلها كالأوتاد لئلا تميد وتضطرب بأهلها[4].

ومن اللمسات الفنية في الآيات اختيار لفظ "الرواسي" دون لفظ "الجبال" مثلاً، "لأنّ المقصود بالرواسي الثوابت وليس في لفظ "الجبال"ما يدل على ذلك.ولذا لا يستعمل لفظ الرواسي حين يذكر زوالها وذهابها يوم القيامة ؛ لأنّها من الرسو وهو الثبات، بل يستعمل لفظ الجبال"[5].

ومع أنّ هذه الآيات جميعها تتحدث عن الجبال الرواسي، إلاّ أنّ التعبير فيها قد اختلف ، حيث جاء التعبير " جَعَلَ" في سورة الرعد مع التكرار، وكذلك التعبير نفسه في سورة فصلت ، كما جاء التعبير "أَلْقَيْنَا" في سورة الحجر، ومع ذلك فكلّ تعبير مناسب لمكانه .

ونلحظ كذلك أنّه مع الحديث عن الجبال الرواسي هناك حديث عن الأنهار والثمرات وأصنافها وكذلك عن الأقوات؛ وفي هذا الجمع حكمة إلهية يتضح فيها التنوّع المكاني الذي يضمن للأحياء العيش والاستمرار على الأرض .

وحين يتحدث القرآن الكريم عن حركة الأرض نجده يقول: " وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كلّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ"[6]. فممّا يثير انتباه المتلقي في

---

(1) فصلت: آية 10.

(2) النازعات: آية32.

(3) انظر: المرسلات:27، و ق:7، و لقمان:10، و النمل:61، و الأنبياء:31.

(4) انظر: البقاعي ، برهان الدين : **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، جزء 6 ، ص: 555 .وانظر : نفس المرجع ، جزء 8 ، ص:319 .

(5) السامرائي، فاضل : **على طريق التفسير البياني**، جزء2، مركز البحوث والدراسات،2005م، ص299.

(6) النمل: آية 88.

هذه الآية صورة الجبال، فهي ثابتة ساكنة وفي الوقت نفسه متحركة، فالمشـــهد يفـــرض عليـــه صورة تخيّليّة تنبض بالحركة.

- **صفات السماء في القران الكريم :**

إنّ الإنسان المسلم المؤمن بالله يرى إبداعاته العظيمة الجمالية في كلّ ما حوله في الكون، فيرى بذلك جمال الله تعالى من خلال جمال مخلوقاته، ونحن إذا نظرنا إلى جمال خلق السموات والأرض، وتأملنا خلقهما نجد الكثير من الصور التي تفصح لنا عن صفاتهما وأسمائهما- كمـــا خبرنا القرآن الكريم- تلك الصور التي تنطق بإبداع محكم، وقدرة فائقة في تشكيلها وتكوينهـــا. فمن تلك الصور التي تحدثت عن السماء * قوله تعالى: "**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**"[1].

وذكر ابن كثير أنّ رجع السماء هو المطر، ذكره ابن عباس ــ رضي الله عنهماــ ، وعنه أيضا أنّ " الرجع" هو السحاب فيه المطر، وأشار ابن كثير أيضاً إلى رأي قتادة فـــي الآيـــة أنّ السماء ترجع رزق العباد كلّ عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم[2]. ويؤكد صاحب الظلال هذا المعنى بقوله: الرجع: "المطر ترجع به السماء المرة بعد المرة"[3].

* "**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ**"[4] ومعنى الحَبْك في اللغة:"الشدّ، وحُبُك السماء: طرائقهـــا، يعنـــي طرئق النجوم، واحدتها "حَبيكة" والجمع "حَبَائك"، وهي بمعنى الخَلْق الحســـن"[5]، فهـــو يقســـم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب، كتنسيق الزرد أيّ: " الدرع" المتشابك المتداخل الحلقات...، وقد تكون هذه إحدى هيئات السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد، مجعدة الماء والرمـــل إذا ضربته الريح، وقد يكون هذا وضعاً دائماً لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناســـقة[6].

---

[1] الطارق: آية11.

[2] انظر:الدمشقي: أبو الفداء إسماعيل بن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، الجزء الرابع، ص593.

[3] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد6، ص3880.

[4] الذاريات: آية 7.

[5] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "حَبَكَ" مجلد1، ص555.

[6] انظر : قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد 6، ص3375.

وجاء في تفسير ابن كثير بمعنى: "ذات الجمال والبهاء، والحسن والاستواء، وبمعنى: ذات الشدة، وبمعنى الشفافية والرقة، وبمعنى السماء السابعة، إلى غير ذلك"[1].

ويدل لفظ " **الْحُبُكِ** " على إتقان الخلق ، وفي وصف السماء بها :" إدماج ادمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى"[2].

* "**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ**"[3] "أيّ: وأقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة، التي تنزلها الكواكب أثناء سيرها،وأنّ هذه المنازل سميت بروجاً لظهورها، وشبهت بالقصور لعلوها وارتفاعها؛ لأنّها منازل الكواكب السيارة"[4]. ومعنى البرج في اللغة: "الركن والحصن والقصر"[5]. وفي وصف السماء بـ (البروج) التي تلوح للناظرين إليها ، فيه من الإشارة للفت أنظارهم وفكرهم لتدبر خلقها الدّال على عظيم القدرة الإلهية .

ولعلّ في افتتاح الآيتين السابقتين بالقسم تشويق لما بعده ، وإشعار بأهمية المقسم عليه .

* " **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا**"[6]. أيّ: جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط[7]. والسّقف : "غِماءُ البيت، والجمع "سُقُفٌ"، والسماء سَقْفٌ على الأرض"[8].

وأطلق السقف على السماء على طريقة التشبيه البليغ ، أي جعلناها كالسقف؛ لأن السماء ليست موضوعة على عمد من الأرض . وفي ذلك حكمة بالغة لتدبر آيات خلق السماء وشكره سبحانه على هذه النعمة .

---

(1) الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، الجزء الرابع، ص272.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء : 27 ، ص: 341 .

(3) البروج: آية1.

(4) الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص541.

(5) البستاني، بطرس: **محيط المحيط**، مادة "بَرِجَ" ، ص33.

(6) الأنبياء: آية 32.

(7) انظر :الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد2، ص261.

(8) ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "سَقَفَ" مجلد2 ص166.

•صفات الأرض في القران الكريم :

أمّا الصور التي تحدثت عن الأرض، منها *قوله تعالى: " **وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**"[1] الصدع في اللغة: "مصدر "بمعنى الشقّ في شيء صلب، والصّدع أيّ: ما تتصدّع عنه من النبات أو ذات الشقّ بالنبات والعيون"[2]، وأشار صاحب الظلال إلى أنّ الصدع: النبت يشق الأرض وينبثق[3]. ولا شك أنّ في اللفظة دلالة صوتية توحي بالانتشار .

ومن ذلك العرض لمعاني الصدع يتضح إجماع المفسرين على أنّ القسم بالأرض ذات الصدع يشمل انصداعها عن النبات، أو يعني نبات الأرض ذاته الذي يشق الأرض وينبثق عنها.

• " **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا**"[4]. والدَّحو: "البَسْط، دحا الأرض يَدْحُوها دحواً: بَسَطها"[5] ، ففي اللفظ " **دَحَاهَا** " دلالة على عظيم قدرة الله تعالى، وفيها إثارة للمتلقي لشكر هذه النعمة .وذكر ابن كثير أنّ الأرض خلقت قبل خلق السماء، ولكن دحيت بعد خلق السماء، بمعنى: أنّه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، وعن ابن عباس: "دحاها" ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال، والسبل والآكام [6].

وذكر سيد قطب في ظلاله ما نصه: "ودحو الأرض: تمهيدها وبسط قشرتها، بحيث تصبح صالحة للسير عليها، وتكوين تربة تصلح للإنبات..."[7].

أمّا ما جاء في تفسير الجلالين: أيّ: بسطها ومهدها لتكون صالحة للحياة، وكانت مخلوقة قبل السماء من غير دحو[8].

---

[1] الطارق: آية12.

[2] البستاني، بطرس: **محيط المحيط**، مادة "صَدَعَ" ص502.

[3] انظر: قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد6، ص3880.

[4] النازعات: آية30.

[5] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "دحو" مجلد1 ص954.

[6] أنظر: الدمشقي ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، جزء4، ص557.

[7] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد6، ص3816.

[8] أظر: السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر و المحلّي، جلال الدين محمد بن أحمد :**تفسير الجلالين**، وتقديم ومراجعة: مروان سوار، دار المعرفة: بيروت – لبنان، ص790.

* " **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا**"[1] "أي: ألم نجعل هذه الأرض التي تسكنونها ممهدة للاستقرار عليها، والتقلب في أنحائها؟ جعلناها لكم كالفراش والبساط لتستقروا على ظهورها، وتستفيدوا من سهولها الواسعة بأنواع المزروعات[2]، وأيضاً جعل الله تعالى الأرض ممهدة للخلائق، ذلولاً لهم، قارة، ساكنة، ثابتة، وهي كالمهد صالحة للحياة عليها[3]. والمهاد بمعنى: "الفراش، وقد مهدت الفراش مهداً: بسطته ووطّأته، والجمع "أمْهدة ومُهُدٌ"، والمهاد أجمع من المهد كالأرض جعلها الله مِهاداً للعباد، وأصل المهد التّوْثير؛ يقال: مَهَدْت لنفسي ومَهدّت أيّ: جعلت لها مكاناً وطيئاً سهلاً"[4].

وجاء التعبير بلفظ " **نَجْعَلِ** " دون "خلق"؛ "لأنّ كونها مهاداً حالة من أحوالها عند خلقها أو بعده بخلاف فعل خلق ،فإنّه يتعد ى إلى الذات غالبا "[5].

* " **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا**"[6]. فالله – عزّ وجل– جعل الأرض مهداً كالفراش. وهيأ لهم السبل الكفيلة لتكون صالحة للسكن عليها، ووفّر لهم أسباب العيش والطمأنينة فوقها. وإلاّ لاختل توازن الأرض، وصعب على الناس العيش عليها. ومعنى كلمة فراشاً فهي من: "فَرَش الشيء يفْرِشُه ويَفْرُشُه فَرْشاً، أي: بسطه، وفي الآية بمعنى وِطاءً لم يجعلها حَزْنَةً غليظة لا يمكن الاستقرار عليها[7]. ويشير سيد قطب إلى هذه الآية بقوله: "وهو تعبير يشي باليسر في حياة البشر على هذه الأرض، وفي إعدادها لهم لتكون لهم سكناً مريحاً وملجأ واقياً كالفراش..

---

[1] النبأ: آية 6.

[2] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص507.

[3] انظر: ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، جزء4، ص549، وانظر: تفسير الجلالين، ص786.

[4] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "مهد"، مجلد3، ص541.

[5] ابن عاشور ، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء 31 ، ص: 14 .

[6] البقرة: آية22.

[7] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "فرش"، مجلد2، ص1074.

والناس ينسون هذا الفراش الذي مهده الله لهم لطول ما ألفوه. ينسون هذا التوافق الذي جعل الله في الأرض ليمهد لهم وسائل العيش، وما سخره لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع، ولولا ذلك ما قامت حياتهم على هذا الكوكب"[1].

* " **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا**"[2]. إنّ الله تعالى جعل الأرض مستقراً، ومكاناً لاستقرار البشر وحياتهم، يعيشون عليها ويتصرفون فيها، ويمشون في مناكبها، وهي صالحة لحياة الإنسان بتلك الموافقات الكثيرة[3].

ولو شاء سبحانه لجعل الأرض سائلة فلا يكاد الإنسان وغيره من المخلوقات تبقى على حالة معينة ؛ وهذا من رحمته الواسعة وقدرته الدالة على جمال خلق الأرض .

وجميع هذه الأوصاف للاستدلال على النعم الكثيرة التي أنعم بها سبحانه بها على الناس فاستقامت حياتهم .

نلاحظ أنّ التعبير القرآني قد كشف لنا عن دلالات بلاغية عديدة ، فالتقديم والتأخير في الكلمات أدى إلى تشويق المخاطبين ولفت أنظارهم إلى مضامينها . والجمع بين السماوات والأرض فيه من المعاني التي تبيّن الاهتمام بهما ، فكلاهما مخلوق لله تعالى .وفي الإفراد والجمع ثم الإفراد والتذكير إشارة إلى تعظيم الصورة . كما أنّ التنويع الواضح في اختيار الألفاظ أشبع الصورة بمعانٍ شتّى تجعل المتلقي يتفاعل معها .

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد1، ص47.

[2] غافر: آية64

[3] انظر: **الظلال**، مجلد5، ص3094، وانظر: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص108، وانظر: تفسير القرآن العظيم، جزء4، ص102.

المبحث الثاني: صورة الزمن .

القرآن الكريم لا يفرد لموضوع الزمن سوراً بعينها أو آيات خاصة بها، لأنّ القرآن متفرّد عن غيره من الكتب . فالزمن يغوص في جزئيات الكون، ويحسه كلّ مخلوق، فيتأثر به ويؤثر فيه، وهو لا ينفصل عن الطبيعة، ولا الكواكب، ولا الأحجار، ولا الأشجار، ولا عن الذرة، ولا الخلية، وهو حاضر في كلّ هؤلاء حضوراً أكيداً.

فقد أكد القرآن الكريم أهمية الوقت، وذلك من خلال ما أبرزه في العديد من الآيات الكريمة، حيث جعل الوقت يأخذ دلالات متعددة كالقداسة والموعظة والنعمة وغيرها، وهي تشكلّ في محصلتها مفاهيم حركية رائعة للزمن، فالقرآن الكريم لم يتعامل مع الزمن من الزاوية الحسابية بل جعله قيمة حركية حيّة تتفاعل مع الإنسان في حياته الشخصية والعامة، وحفزّه لأن يتفاعل بدوره مع هذه القيمة بشكل دائم لا انقطاع فيه.

لقد وردت في القرآن الكريم عدة آيات يقسم الله تعالى فيها بالزمن ومكوناته، الأمر الذي يشير إلى الأهمية الكبيرة التي أولاها سبحانه وتعالى للزمن ولأجزائه، وأنّه من القضايا المقدسة والمهمة في الحياة التي ينبغي النظر إليها نظرة واعية متفهمة، باعتبار أنّ الله تعالى اتخذها عنواناً يقسم به في بداية الكلّام الذي يقرر فيه الحقائق التي يريدها. وفي معظم هذه الآيات الكريمة، لا يأتي القسم مفرداً، وإنّما يأتي متعدداً بذكر عدة أجزاء من الوقت في سياق الآية الواحدة أو الآيات المتتالية يقول الله تبارك وتعالى: *" **وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ** "[1].

* " **وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى** "[2].

* " **وَالْفَجْرِ .وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ** "[3]

---

[1] العصر: الآيتان 1و 2.

[2] الضحى: الآيات 1 –3.

[3] الفجر: الآيات 1–5.

* " **فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**"[1]

* " **فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ . وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ**"[2].

* "**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا**"[3].

ولعل سورة الشمس هي أكثر سورة تحتوي على أقسام متتالية لله تعالى في ظواهر الكون والزمان. إنّ هذا القسم الإلهي بعناصر الزمن وتكراره في مواضع عديدة يشير إلى الأهمية التي أولاها الله تعالى له، من أجل أن يقف الإنسان المسلم على هذه الحقيقة المهمة، فيتأمل حركة الزمن بدقة وروية، ويستمر الوقت بجدية واهتمام كبيرين. على اعتبار أنّ القسم به يثير في الذهن ويحفّز النفس للدراسة والتقصي والتفكر بمدلولاته ومضامينه الواسعة.

وعلينا أن نركز على قضيتين بارزتين متعلقتين بهذا الموضوع وهما: اليوم في خلق السموات والأرض، وحركة الليل والنهار وتأثيرها على الأرض.

*** اليوم في خلق السموات والأرض :**

وردت لفظة (يوم) بمشتقاتها في القرآن الكريم 475 مرة، منها 349 مرة بلفظ "اليوم "، و16مرة بلفظ "يوماً"، ومجموعهما 365 مرة (وهو نفس عدد أيام السنة في زماننا)، كذلك جاءت التعبيرات القرآنية: يومكم، يومهم، يومين، أيام، وأياماً 109 مرات لتحديد وقائع محددة، أو عدداً محدداً من الأيام، كما جاء التعبيران: يومَئذ، ويومِئذ لتحديد وقت معين[4].

---

[1] التكوير: الآيات 15–18.

[2] الانشقاق: الآيات 16–18.

[3] الشمس: الآيات 1–6.

[4] انظر:النجار، زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم**، ص158.

وفي اللغة العربية، يقال (يوم) وجمعه (أيام) ليعبر به عن الفترة من طلوع الشمس إلى غروبها[1]، أيّ: فترة النور بين ليلين متتاليين، وقد يعبر به عن النهار والليل معاً (أو ما يعرف باليوم الكامل أو بيوم الأرض الشمسي) وهو الفترة التي تتم فيها الأرض دورة كاملة حول محورها أمام الشمس، أو الفترة الزمنية بين شروقين متتالين أو بين غروبين متتاليين للشمس ويساوي في زماننا أربعاً وعشرين ساعة كاملة[2].

لنتأمل بدقة هذا النص القرآني؛ لنتعرف إلى الأيام التي خلق الله تعالى فيها السموات والأرض، يقول – تبارك وتعالى: " **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كلّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**"[3].

وفي حديث أبي هريرة فيما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: "خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة، آخر خلْق خلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل"[4].

إنّ الأيام التي ذكرت في الآيات لا يعلم مداها إلا الله سبحانه ، وهي ليست من أيام هذه الأرض ، فالأيام التي خُلقت فيها الأرض ، ثم تكوّنت فيها الجبال ، وقدّرت فيها الأقوات مقيسة بمقياس يختلف عما نعرفه. ففي قوله تعالى :" **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** " فهذا يشير إلى البركة في تلك الأيام ، فالأقوات التي ينتفع بها الناس كثيرة سواء أكانت في الطعام والشراب أو في العناصر والمركبات التي تحتاج إليها والتي تتنوع في أنحاء الأرض .

---

[1] انظر: **لسان العرب**، مجلد3، ص1021، وانظر: محيط المحيط، ص994.

[2] انظر: النجار، زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم**، ص158.

[3] فصلت: الآيات 9–12.

[4] مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري: **صحيح مسلم**، شرح: الإمام النووي، مجلد4، دار إحياء التراث العربي: بيروت – لبنان، ط2، 1972م، باب: "ابتداء الخلق وخلق آدم "، حديث: 2789، ص2149.

وفي قوله:" **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** "، أيّ: أنّ "الاستواء كان بعد خلق السماء وبعد خلق الأرض، فلم يقل رب العالمين (ثم خلق السماء) بل قال: (ثم استوى إلى السماء)، فالسماء إذن مخلوقة وموجودة مع الأرض. ثمّ بعد ذلك جعل هذه السماء الواحدة سبع طبقات بعضها فوق بعض،وفي هذا التعبير جعل السماء مثل الدخان على طريقة التشبيه البليغ .

وفي قوله تعالى :" **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** " ففي هذه الصورة " إيماءة عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته"[1].

أمّا الآيات القرآنية التي أكدت وأشارت إلى خلق السموات والأرض في ستة أيام، فهي ثماني آيات قرآنية كريمة، منها قوله تعالى: " **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**"[2].نلاحظ أنّه بعد أن خلق سبحانه السموات والأرض، أعقب ذلك بصفة تليق بجلاله وهي صفة الاستواء على العرش ، ثم عرضت الآية الأمور والتدابير الصادرة عنه سبحانه من تحكمه بالليل والنهار ، وتسخيره للشمس والقمر والنجوم ، وهذا التعبير يتناسب مع جوانب الصورة .

وفي قوله تعالى:" **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**"[3].والتعبير هاهنا قد اختلف ، فبعد أن ذكر خلق السموات والأرض جاء قوله:" **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** " ، أيّ: " وكان عرشه قبل خلقهما على الماء ، ليس تحته شيء غير سواء كان بينهما فرجة وكان موضوعاً على متنه "[4]. وفي قوله:" **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** " متعلق بمسألة الخلق وما تتضمن من حاجات وجود الناس وأسباب معاشهم . ففي التعبير تحفيز للتسابق والاجتهاد في عمل ما يرضي الله تعالى .

---

[1] قطب ، سيد : **في ظلال القران** ، مجلد 5 ، ص: 3114 .

[2] الأعراف: آية 54.

[3] هود: آية7.

[4] أبو السعود، محمد بن محمد العمارى: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، جزء4 ، ص187.

وفي قوله تعالى :" **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ**"[1]. وجاء التعبير في هذه الآية متضمناً فعل خلق السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات ، مع تأكيد عدم الإعياء والتعب من عملية الخلق . إلى غير ذلك من الآيات التي أثبتت أن السموات خلقت في ستة أيام [2]. ويشير العدد " **ستة** " إلى أمر غيبي ،للدلالة على القدرة الإلهية الباهرة .

إنّ الأيام التي خلق الله – عز وجلّ– فيها السموات والأرض ليست كالأيام عندنا في الدنيا وإنّما هي أحقاب ستة، في أطوار متعاقبة، ومراحل متتالية، وأحداث كونية متتابعة، لا يعرف مداها إلا الله تعالى، ولا يمكن أن تكون مثل أيّام الأرض، لأنّ الأرض لم تكن قد خُلقت بعد. فالأيّام عند الله تحسب على أساس أن اليوم الواحد بحساب القرآن الكريم بألف سنة . وهذا ما أثبته القرآن الكريم: لقوله تعالى: " **وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**"[3]. وقال تعالى: " **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ**"[4].فاللفظ " ألف " استعملت كناية عن الكثرة الشديدة . وفي قوله:" **مِمَّا تَعُدُّونَ** " توحي بالخوف والرهبة التي يشعر بها الإنسان حين يسمعها وحين يتذكر يوم الحساب .

*** حركة الليل والنهار وتأثيرها على الأرض:**

"الليل" لغة: هو الفترة الزمنية من اليوم الممتدة من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر[5] كما حدده القرآن الكريم بقوله تعالى: " **وَكلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ...**"[6] والليل واحد بمعنى جمع، وواحدته "ليلة"، وقد جمع على ليالٍ، فزادوا فيها الياء لتصبح " ليالي" على غير قياس [7]. وقد ورد ذكر الليل في القرآن الكريم في

---

[1] ق: آية 38.

[2] انظر: يونس:3، و الفرقان: 59، و السجدة:4، و فصلت: 9–12، و الحديد:4.

[3] الحج: آية 47.

[4] السجدة: الآيتان 4 و5.

[5] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "ليل"، مجلد3، ص423.

[6] البقرة: آية187.

[7] انظر: ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "ليل"، مجلد3، ص423.

اثنين وتسعين موضعاً، منها ثلاثة وسبعون بلفظ "الليل "، وثمانية بلفظ "ليلة"، وخمسة بلفظ " ليلاً"، وثلاثة بلفظ" ليال "، ومرة واحدة بكلّ من الألفاظ الثلاثة ليل، وليلها، وليالي[1].

أمّا "النهار" لغة: هو ضد الليل، وهو نصف اليوم الذي تشرق فيه الشمس، وينشر النور، ويعرف بالفترة الزمنية بين طلوع الشمس وغروبها، ولفظه "النهار" لا تُجمع، وإن كان البعض يحاول جمعه على "أنْهُر" للتقليل وعلى " نُهُر " للكثير[2].

وقد ورد ذكر "النهار" في مقابلة "الليل" في القرآن الكريم سبعاً وخمسين مرة، منها أربع وخمسون مرة بلفظ "النهار"، وثلاث مرات بلفظ " نهاراً "، كذلك وردت ألفاظ : الصبح، والإصباح، وبكرة، والفلق، والضحى ومشتقاتها بمدلول النهار أو بمدلول أجزاء منه في آيات أخرى كثيرة، كما وردت كلّمة "اليوم" أحياناً بمعنى النهار[3].

إنّ الزمن من خلال تبادل الليل والنهار بعيدٌ عن سيطرة المخلوقات، حيث لا يكون بمقدور البشر التأثير على حركته والتحكم في وحداته، إنّما هو يمضي حسب القانون الكوني الذي وضعه الله تعالى له، وبذلك سيطرت الوحدات الزمنية على الأشياء حتى أصبح الزمان هو الإطار الذي لا يمكن للإنسان أن يتحداه أو يخترق قوانينه الإلهية المحكمة. وعليه فقد استعاض القرآن الكريم في الإشارة إلى حركات الأرض بغشيان كلّ من الليل والنهار للآخر، واختلافهما، وتقلبهما، وولوج كلّ منهما في الآخر، وبسلخ النهار من الليل، وسبح كلّ من الليل والنهار يقول تبارك وتعالى: "**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**"[4]. ومعنى : " **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ** "أيّ:" يُلبسه إيّاه فيصير الجو مظلماً بعد ما كان مضيئاً"[5].

---

[1] انظر: النجار، زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم**، ص486.

[2] انظر: **لسان العرب**، مادة "نهر"، مجلد3، ص728.

[3] انظر: النجار، زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم**، ص471.

[4] الرعد: آية3.

[5] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، المجلد الثاني، ص74.

فالفعل المضارع " يُغْشِي" يدل على التجدد ، فإغشاء الليل والنهار أمر متجدد كلّ يوم وليلة، وكما جاء الحديث عنهما في معرض الحديث عن الأرض؛ لأنّ الليل والنهار من أعراض الأرض. وعندما كانت صفة التجدد ملازمة لليل والنهار، فقد جاء التعبير في نهاية الآية بذكر صفة التفكر؛ إشارة إلى أنّ هذه الصفة متكررة ومتجددة .

لنتأمل صورة اختلاف الليل والنهار في قوله تعالى :" **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ** [1]" **وفي قوله تعالى :**"إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ"[2]. ومعنى: " اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ " أيّ: " تعاقب الليل والنهار على الدوام، يأتي الليل فيذهب النهار، ويأتي النهار فيذهب الليل"[3] ، بالإضافة إلى تفاوتهما في الطول والقصر ، فمرة يعتدلان ومرة يزيد أحدهما على الآخر .

ففي اختيار التعبير بالاختلاف سرّ بديع يتناسب مع تعاقب الأعراض على الجوهر . لذلك كان الجمع في الآيتين بين خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وإن كان هناك تقديم وتأخير فيهما، ففي الوقت الذي قدم فيه الجوهر على العرَض، جاء التعبير معقباً بقوله:" لِّأُوْلِي الألْبَابِ " ، وفي الوقت الذي قدم فيه العرض على الجوهر جاء التعبير بقوله: "لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ". وكلّ تعبير يتناسب مع المقام الذي قيل فيه .

وفي قوله تعالى: " **يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**"[4]. أي "يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً[5].

وقد جاء التعبير بالفعل " يُقَلِّبُ " دلالة على الاستمرارية والتجدد في هذه الصفة، ومع هذا الفعل جاء الحديث عن الليل والنهار دون السموات والأرض؛ لأنّ فعل "التقليب" ها هنا خاص بالليل والنهار دون غيرهما، وهنا يكمن السرّ البلاغي في هذا الفعل .

---

[1] آل عمران: آية 190

[2] يونس : آية :6.

[3] انظر: الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، المجلد الأول، ص: 252 و ص:574.

[4] النور" آية44.

[5] ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، الجزء3، ص342.

وصورة ولوج أحدهما في الآخر ماثلة في قوله تعالى: " **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**"[1]. وفي قوله تعالى: "**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**"[2]. أي: "تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، تم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان، ثم يعتدلان وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاءً"[3].

فالفعل " **تُولِجُ** " يدل على دخول أحدهما في الآخر ، لذلك جاء التكرار في الفعل إشارة لتعاقب ضوء النهار وظلمة الليل ، ولا شك في أنّ الفعل " تولج " دلالة حركية خفيّة ، متداخلة بعضها في بعض تارة ، وظاهرة تارة أخرى من خلال معايشة الناس لها معايشةً شكلية صباح مساء .

كما أنّ مجيء الفعل " **تُولِجُ** " في مقام الحديث عن الليل والنهار، ومجيء الفعل "**تُخْرِجُ** في مقام ذكر الحي والميت ، فيهما من التعبير التصويري الذي يملأ القلب والمشاعر تجاه يد الله سبحانه وهي تحرك تلك المخلوقات بحركات خفيّة متداخلة تمضي بتدبيره المحكم .

أمّا صورة سلخ النهار من الليل فلنتأمل قوله تعالى: "**وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**"[4]. أيّ : "نصرفه منه، فيذهب فيقبل الليل"[5].

وفي التعبير "**نَسْلَخُ** " دلالة صوتية مؤثرة لدى السامعين مع أنّنا حقيقة لا نسمع هذا حين يختفي النهار في الليل ، فعندما كان النهار بنوره يغطي ظلمة الليل ، لذا " شبه كشف النهار وإزالته بسلخ الجلد عن الشاة ، فصار الليل بمنزلة جسم الحيوان المسلوخ منه جلده"[6]، والتعبير القرآني بهذه الصورة تعبير فريد يجعلنا نتصور هذا الأمر على حقيقته .

---

[1] آل عمران: آية27.

[2] الحج: آية61.

[3] ابن كثير: **تفسير القران العظيم**، جزء1، ص409.

[4] يس: آية 37.

[5] ابن كثير: **تفسير القران العظيم** ، جزء:3، ص83.

[6] ابن عاشور ، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء24، ص18.

وفي قوله :" **فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ** " تناسب واضح مع ظلمة الليل في بداية الآية ، وكأنّ الظلمة هي التي عمّت الكون .

وفي قوله تعالى: "**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**"[1]. ففي قوله : "يسبحون"، أيّ: "كلّ من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ويجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء"[2].

وجاء التعبير ها هنا بفعل" الخلق" دون فعل "الجعل " ؛ " لكون المنّة والعبرة في إيجاد نفس الليل والنهار ونفس الشمس والقمر ، لا في إيجادها على حالة خاصة "[3]

إنّ ترتيب المفردات بنسق معين له دلالة ، ففي خلق الليل دلالة على خلق الظلمة ، وفي خلق النهار دلالة على خلق النور . وعندما ذكر خلق النهار اتبعه بخلق الشمس والقمر ، فخلق الشمس مناسبة لخلق النهار ؛ ففي كليهما نور. أمّا خلق القمر فيتناسب مع خلق الشمس فكلاهما كوكبٌ ، كما أنّ في القمر بعض النور الذي يبدد ظلمة الليل .

ولنتدبر الصورة الرابطة بين حركة الزمن وعمل الإنسان في قوله تعالى :"**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**" [4].

وفي قوله : "آيَتَيْنِ"؛ لأنّ الليل بسكونه آية ، والنهار في السير فيه وابتغاء المعاش آية ، فلو كان الزمن كلّه ظلمة أو كلّه نوراً، لما كان هناك تمييز بين أجزائه .

وفي التعبير " مَحَوْنَا " صورة ، فقد شبه اختفاء الأشياء بالمحو دلالة على انعدام النور في الليل.

وفي وصف النهار بـــ " مُبْصِرَةً " دلالة على ضوء الشمس ، فهي سبب لإبصار الناس الأشياء من حولهم . وفي إسناد الفعلين "جَعَلْنَا" و"مَحَوْنَا " إلى ضمير المتكلم الجمع الدّال على لفظ الجلالة إشارة إلى تعظيم قدرته وإحكام سيطرته على نواميس الكون .

---

[1] الأنبياء: آية33.

[2] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، المجلد الثاني، ص261.

[3] ابن عاشور ، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء4 ،ص:59.

[4] سورة الإسراء: آية12 .

ونلاحظ من خلال الصور البلاغية التي تعكس صورة الزمن في السماوات والأرض ، أنّها تنبض بذكر أجزاء الزمن بشكل مباشر من خلال عرض أوقاته ، وفي ذلك إشارة إلى انقياد هذه المخلوقات لخالقها . وكما نلاحظ التنوّع في اختيار الألفاظ التي تحمل دلالات حركية ، وصوتية ، توحي بالاستمرارية والتجدد وتشوّق المخاطبين لمغزاها . كما أنّ تكرار بعض الألفاظ يوسّع من جماليات الصورة من خلال عرضها في نسق فنيّ جميل .

المبحث الثالث: صورة الماء والإحياء .

سبحان مَنْ قال في كتابه العزيز: "**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كلّ شَيْءٍ حَـيٍّ**"[1]. فالماء سرّ من أسـرار الحياة في هذا الكون، وهو أصل كلّ الأحياء على وجه الأرض، جعله الله تعالى سـبباً للحيـاة فوقها، فبدونه لا يعيش إنسان ولا حيوان ولا نبات... فسبحان الخالق العظيم.

وقد اقتضت قدرة الله ومشيئته أن يُسكن في الأرض كمية محددة ومعلومة من الماء، دون زيادة او نقصان، وبشكلّ يكفي لمتطلبات الحياة فوقها؛ لتؤدي الأرض رسالتها وتحفظ ما عليهـا من كائنات حيّة، يقول سبحانه وتعالى: " **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ**"[2]. ومعنى ذلك أنّ الماء الذي أسكنه الله تعالى في الأرض لم يكن مقـداره عبثـاً أو جزافاً، "ويظن البعض أنّ في تغطية أكثر سطح الأرض بالمحيطات والبحار (نحـو 5/4) فيـه الكثير من الإسراف، إلاّ أنّ الحقيقة على عكس ذلك"[3].

وردت كلّمة "ماء" في القرآن الكريم ثلاثاً وستين مرة، وهي لفظة تدل على المفرد والجمع معاً، هذا عدا خمس مرات وردت فيها اللفظة بمعنى النطفة أو ماء التناسل[4]. وقد جـاء ذكـر الماء في أكثر من ثلاثين سورة قرآنية وذلك بياناً لأهمية الماء بالنسبة للأرض عامة، والإنسان والكائنات الحية بخاصة.

وقد ذكر القرآن الكريم ثلاثةً وعشرين نوعاً من المياه، لكلّ منها طبيعته الخاصة، ونـذكر منها ما يتعلق بالسماء والأرض ومنها:

* **الماء المغيض،** لقوله تعالى: "**وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ**"[5]. وغيض الماء: أيّ "نقص، وهو الماء الذي ذهب في أغوار الأرض"[6]. وقد جاء الفعلان :" **وَغِيضَ** " و "**قُضِيَ** " مبنيان للمجهـول

---

[1] الأنبياء: آية 30.

[2] المؤمنون: آية18.

[3] الفندي، محمد جمال الدين: **القرآن والعلم**، ط1، دار المعرفة– القاهرة، 1968 م، ص139.

[4] http:// forums,graaam. Com/7355.html

[5] هود: آية 44.

[6] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد2، ص16.

، لبيان قدرة الله عزّ وجلّ. وفي اللفظ "غيض" دلالة الخفَاء والذهاب البعيدين، أمّا اللفظ "قُضـــي" دلالة على الإنجاز والانتهاء، فالصورة واضحة للمتلقي كوضوح ألفاظها ومعانيها.

* **ماء الأرض**، يقول تعالى: "**وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ**"[1].

وفي قوله: "**أَنْزَلْنَا**" دلالة على سعة العلم ودقيق القدرة الإلهية، وفي ذلك إشارة لشـــكر النعمـــة. والقدرة هنا كناية عن الضبط والإتقان. وفي قوله تعالى: "أسكناه"، فقد جعل الماء فـــي مســـكن، حيث أطلق الإسكان على إقرار الماء في الأرض على طريق الاستعارة .

- **الماء الطهور**، يقول تعالى: " **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا**"[2].

فالضمير في الفعل " أَنْزَلْنَا " التفات من الغيبة إلى التكلم ؛ لأنّ التكلم أليق بمقام الامتنان" [3].وقد وصف الماء بالطهور ولم يصفه بالصفاء ؛ دلالة على المبالغة في الطهارة ، فهو يصـــل إلـــى أقصى درجات الصفاء. والطهارة في اللغة: "التنزُه عن الأدناس ولو معنويّاً [4]. والماء الطهـــور هو "الطاهر المطهِّر، لأنّه لا يكون طهوراً إلا وهو يُتَطهّر به، كالوضوء[5].

* **الماء المبارك**، لقوله تعالى: "**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَـــبَّ الْحَصِـــيدِ**"[6] أي:" نافعاً جداً ثابتاً لا خيالاً محيطاً بجميع منافعكم " [7] وفي وصف الماء بـــ "المبارك"؛ إشـــارة إلى أنّ فيه خيراً كثيراً ؛ لما يتسبب عليه من أوصاف متنوعة من النباتات والحبوب.

* **الماء المنهمر**، لقوله تعالى: " **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**"[8] وهو الماء الذي ينســـكب و ينصب صبّاً شديداً [9].وفي التعبير "مركب تمثيلي لهيئة اندفاق الأمطار من الجو بهيئة خروج

---

[1] المؤمنون: آية18.

[2] الفرقان: آية48.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء20، ص47 .

[4] البستاني، بطرس: **محيط المحيط**، مادة "طَهَرَ"، ص558.

[5] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "طَهَرَ"، مجلد2، ص620.

[6] ق: آية9.

[7] البقاعي ، برهان الدين : **نظم الدرر** ، جزء 7 ، ص: 251 .

[8] القمر: آية11.

[9] انظر :الرازي ، الفخر : **التفسير الكبير** ، جزء 29 ، ص: 37 .

الجماعات من أبواب الدار" [1] وفي قوله " مُنْهَمِر": حيث يتناسب هذا التعبير مع التعبير السابق؛ إذ إنّ انصباب الماء بكثرة يحتاج إلى مساحات واسعة ومفتوحة ؛ لتحقيق ذلك الانصباب.

* **الماء المسكوب،** يقول تعالى: "وَظِلٍّ مَمْدُودٍ. وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ"[2] والمسكوب، أيّ: جار في منازلهم من غير أخدود[3]. "وأطلق هنا على جريه بقوة يشبه السكب وهو ماء أنهار الجنة"[4]. وفي اللفظ "مَسْكُوبٍ" دلالة صوتية ، إذ إنّ جرس أصوات الكلمة واقتران حروفها ببعضها بعضاً يعكس دلالة على المعنى المطلوب، ويتيح المجال لإبراز الصورة أكثر.

* **الماء الغور،** يقول تعالى: " قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا "[5] وهو الغائر في الأرض، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها[6]. وفي اللفظ " أَصْبَحَ " دلالة على الانتقال والصيرورة . وجاء وصف الماء بالمصدر " غَوْر للمبالغة . وفي اللفظ نفسه دلالة إيقاعية مؤثرة، فحرف "الراء" أكسب الكلمة تنغيماً خاصاً ترك صداه في النفس وفي المعنى.

***الماء المعين،** يقول تعالى: " فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ"[7] أيّ:الظاهر الذي تراه العيون ، وقيل المعين الجاري من العيون من الإمعان في الجري [8].وفي وصف الماء بـ " مَعِينٍ " إيحاء بالظهور والهدوء في آن واحد .

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء28، ص182 .

[2] الواقعة: الآيتان30-31.

[3] البقاعي ، برهان الدين : **نظم الدرر** ، جزء 7 ، ص: 409.

[4] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء28، ص300 .

[5] الملك: آية30.

[6] انظر : الرازي ، الفخر : **التفسير الكبير** ، جزء 21 ، ص: 128. وانظر :ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، جزء3، ص99.

[7] الملك: آية30.

[8] الرازي ، الفخر : **التفسير الكبير** ، جزء 30 ، ص: 76.

* **الماء الثجاج**، يقول تعالى: " **وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**"[1] أيّ:" أنزلنا من السحب التي حان وقت إمطارها ماءً دافقاً منهمراً بشدة " [2]. ففي قوله: " **الْمُعْصِرَاتِ** " إشارة إلى أنّ السحب التي تحمل ماء المطر تنزل بشكل تشبه العصر .وفي وصف الماء بـ " الثجاج " دلالة على قوة تأثيره في إخراج النبات وتعدد المنافع للناس .ولا شك أنّ في جرس أصوات الكلمة إثارة للسامع ؛ لتخيّل صوت الماء من ناحية ، وللنظر في دلائل صنع الله من ناحية أخرى.

- **الماء الفرات**، يقول تعالى: " **وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا**"[3] أيّ": أسقيناكم ماء عذباً حلواً .

- **الماء الأجاج**،لقوله تعالى: "**هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سائغ شرابه وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**"[4] وهو ماء شديد الملوحة. فمع أنّ الله تعالى خلق مياه البحار على صورة واحدة من خلال المشاهدة ، إلا أنّه خالف بين طبيعتها في المذاق ، فبعضها حلو ، وبعضها مالح ، وفي ذلك دلالة على دقيق صنع الله .

وجاء التعبير حول **الماء العذب** بقوله: "**سائغ شرابه**"؛ إشارة إلى استجابة شربه وقبوله دون أن يترك في الحلق غصّة. ففي قوله: "**سائغ**" سلاسة في الصوت تشابه سلاسة الطعم .

كما جاء التعبير حول **الماء المالح** بقوله: " **أُجَاجٌ** " ففي أصوات الكلمة شيء من النفور يتناسب والمعنى المقصود .

وبهذا رأينا كيف ميّز القران الكريم بين أنواع المياه بدقة كبيرة ، وكيّف صنّفها بما يتناسب مع درجة نقاوتها وحركتها على وجه الأرض. لذلك جاءت صورة المياه صورة متكاملة تنبض بالإعجاز سواء أكان ذلك في تصنيف المياه أم في بلاغة الكلمة القرآنية .

وقد أسمى الله عز وجل المطر النازل من السماء إلى الأرض والذي يُنتفع به بأسماء مختلفة منها:

---

[1] النبأ: آية14.

[2] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص508.

[3] المرسلات: آية27.

[4] فاطر: آية12.

– "**رحمة**"، حيث قال: " **فَانْظُرْ إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**"[1] . وفي الآيـــة استحضار لصورة تكوين المطر واستبشار الناس بنزوله ، فهو بمثابة الحياة للأرض القاحلـــة من خلال إنبات النبات فيها .

– "**الغيث**"، قال تعالى: "**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُـــوا وَيَنْشُـــرُ رَحْمَتَـــهُ وَهُـــوَ الْـــوَلِيُّ الْحَمِيدُ**"[2].ويفيد الفعل المضارع " يُنَزِّلُ " تكرار وتجدد التنزيل ،أمّا التعبير بالماضي في قوله :" قَنَطُوا " إشارة إلى حصول القنوط منذ زمن بعيد .وفي قوله :" يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ " فيها معنى التوســـع والامتداد في نعمة الماء .ونلاحظ المناسبة الواضحة بين تعبيري " الْغَيْثَ " و " رَحْمَتَـــهُ " إذ إنّ الغيث رحمة .

– **الودق**، لقوله تعالى: "**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ**"[3].أيّ: أنّ المطر يخرج من خلال السحاب ، فاختيار الأفعال المضارعة " يُزْجِي "و" يُؤَلِّفُ " و"يَجْعَلُهُ "لإفادة استمرار هذه الأحداث .وتكرار حرف العطف "ثُمَّ " لترتيب الأحداث مع المهلة.

– **الرجع**، لقوله تعالى: "**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**"[4].أيّ: ذات المطر، الذي يرجع على الناس .وفي لفظ " الرَّجْعِ " دلالة على استمرار حياة المخلوقات .

– **الخبء**، يقول تعالى: " **أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**"[5]. ففي قوله :" يُخْرِجُ الْخَبْءَ " إشارة إلى استمرار إظهاره ورزق الناس به، ونلمح في قوله " الْخَـــبْءَ " معنـــى المبالغة في الخفاء، إذ ما دام المطر محجوباً عن أعين الناس فعلمه عند الله تعالى.

– **الرزق**، لقوله تعالى: " **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آَيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا**"[6].

---

(1) الروم: آية50.

(2) الشورى: آية 28.

(3) النور: آية43.

(4) الطارق: آية11.

(5) النمل: آية25.

(6) غافر: آية 13.

ففي قوله: "رِزْقًــا" لأنّ المطر مصدر من مصادر الرزق، وهو سبب في استمرارية الحياة على الأرض.وتكرار صيغة المضارع في " يُرِيكُمْ " و "وَيُنَزِّلُ" تدل على أنّ الرؤيــة والتنزيــل للمطر متجدد في الحياة الدنيا.

ولآيات الماء المتعلقة بالسماء والأرض في القرآن الكريم دلالات إنمائية وإحيائية جليّــة واضحة، فلو دققنا النظر وأمعنا التأمل في هذه الآيات، لوجدنا فيها صورة المــاء فــي إحيــاء الأرض وتحويلها إلى حقول يانعة مخضرة مهيئة لعيش المخلوقات عليها، ورأينا أنّ للماء دوراً في إحياء الإنسان واستمرارية بقائه وخلافته في الأرض، وكــذلك دوره فــي إحيــاء النبــات والحيوان.

فمن هذه الدلالات ما يتعلق بصورة إحياء الأرض بعد موتها وجدبها، وذلك عقب إنــزال الماء من السماء، يقول تبارك وتعالى: " **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِــنْ كُلِّ دَابَّةٍ** "[1].فاختيار صيغة الفعل الماضي في " أَنْزَلَ " و " أَحْيَا " للدلالة على وقوع الحــدث فــي الزمن الماضي بعد خلق السموات والأرض ومتعلقاتهما ، وفي ذلك إشارة لشكر الله على هــذه النعمة القديمة والمتجددة .

وقوله: " **وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِــي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**"[2]. فاختيار صيغة الضارع " يُنَزِّلُ " و " يُحْيِي " للدلالة على الاســتمرارية والتجدد . كما أنّ تضعيف الفعل" يُنَزِّلُ " للدلالة على المبالغة والتكثير .وتنكيــر اللفــظ "مَــاءً" للتكثير .وتشيع هذه الصورة بمكوناتها في النفس معاني الرحمة والعمران على وجه الأرض.

ويشير سبحانه وتعالى إلى التشابه بين إحياء الأرض الهامدة الجرداء الميتة وبــين نشــر الناس يوم القيامة إذ يقول: "**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ**

---

[1] البقرة: آية164.

[2] الروم: آية24.

مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ"[1]. وقد أسند الفعل " أَحْيَيْنَا" إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع دلالة على التعظيم، وفي الآية صورة تثير النفس وتجعلها تتأمل أبعادها ، فكما يبعث الله تعالى الحياة في الأرض القاحلة من خلال إنبات النبات فيها ، فهذه الصورة يماثلها صورة إخراج الخلائق من القبور للحساب يوم القيامة .

وفي سورة الحج صورة تجسيدية رائعة تظهر لنا أنّ الأرض يابسة ميتة لا نبات ولا حراك ولا حياة فيها، ولكن ما إن هطلت عليها الأمطار حتى ارتدت إليها الروح فاهتزت ، بل إنّها ترعرعت وتحركت بالنبات والثمار، والغرض من هذه اللوحة إظهار أنّ الله الذي أعاد الحياة للأرض الهامدة لقادر وبكلّ بساطة وسهولة أن يعيد الحياة للأموات يوم القيامة، ولنرى الآية الكريمة: " **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"[2].

ويعلق سيّد قطب في ظلاله على هذه الآية فيقول: "والهمود درجة بين الحياة والموت، وهكذا تكون الأرض قبل الماء، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء. فإذا نزل عليها الماء "اهتزت وربت" وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ فتربو ثم تنتفخ بالحياة عن النبات "من كلّ زوج بهيج". هل أبهج من الحياة وهي تتفتح بعد الكمون، وتنتفض بعد الهمود؟ وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلكهم في آية واحدة من آياته. وإنّها للفته عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة وإنّها لدليل على وحدة عنصر الحياة، وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك، في الأرض والنبات والحيوان والإنسان"[3].

وتتكرر الصورة نفسها في مقام آخر من القرآن الكريم. حيث يقول سبحانه وتعالى: " **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كلّ**

---

[1] فاطر: آية9.

[2] الحج: الآيتان 5-6.

[3] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد4، ص2411.

شَيْءٍ قَدِيرٌ "[1].والملاحظ في الصورتين وصف الأرض مرة بأنّها هامدة ، وأخرى بأنّها خاشعة ، إلا أنّ هذين الوصفين لدلالة واحدة وهي السكون ، وهذا من بديع التعبير في الكلمة القرآنية .

فالدلالات الإنمائية الإحيائية واضحة – كما رأيناها– في الآيات السابقة، فهي صور ناطقة تعبر عن قدرة الله تعالى ووجوده، كما أنّ تلك الدلالات هي دلالات إيمانية لكلّ ذي عقل متأمل ومتفكر بآلاء الله ورحماته في هذا الوجود.

ومن الدلالات الإحيائية للماء –كذلك– ما يتعلّق بالناس والأنعام على وجه الأرض، فالله سبحانه أنزل من السماء ماءً عذباً، جعله سقيا للناس وأراضيهم ومواشيهم، يقول سبحانه: " وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ"[2]. فمن بلاغة الآية إيراد الوصف "لَوَاقِحَ" للرياح ، فهي تلقّح السحاب فيدر بالماء، وتلقّح الشجر فيتفتح عن أوراقه وثماره . لذا جرى تقديم هذا التعبير على قوله: " فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ".

والضمير في الفعل " أَنْزَلْنَا " للتعظيم وبيان قدرة الله تعالى .والهمزة في الفعل "أَسْقَيْنَاكُمُوهُ " بمعنى " جعل " أي ّ جعلناه سقياً.

وكذلك قوله تعالى: "كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكلّ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ"[3]. ففي قوله " فَاخْتَلَطَ " تعبير عن خروج الزرع بعد نزول المطر ، واختلاط النبات بالماء . وفي قوله :" مِمَّا يَأْكلّ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ " وصف لنبات الأرض الذي يحتوي على أصناف مختلفة ، منها للناس ، ومنها للأنعام .

وتتكرر الفكرة الإنمائية كذلك في سورة السجدة بقوله تعالى: " أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكلّ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ"[4] .فاختيار الفعل المضارع "

---

[1] فصلت: آية39.

[2] الحجر: آية 22.

[3] يونس: آية24.

[4] السجدة: آية27.

نَسُوقُ " لاستحضار الصورة العجيبة الدّالة على قدرة الله العظيمة ، حيث شبه الرياح التي تسوق السحاب المحمّل بالماء بهيئة مَنْ يسوق الدابة .

وجاء لفظ " الْجُرُزِ " للدّلالة على انقطاع النبات من الأرض . ونلاحظ أنّ في تتابع أصوات الكلمة معنى القطع فهي لفظة تترك أثراً سلبياً في النفس .

وفي سورة إبراهيم نقرأ قوله تعالى: " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ**"[1]. وقد جرى تقديم " **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** " تمهيداً لذكر النعم المودعة فيهما . وقد جاء الفعل الماضي في السياق مسنداً إلى ضمير الغائب ، فالجُمل معطوفة على ما سبقها .

وخصص ذكر " **الثَّمَرَاتِ** " لأنها خاصة بالناس ، لذلك ذكر بعدها " **رِزْقًا لَكُمْ** " . وهذا التعبير يختلف عمّا سبقه حين ذكر النبات والزرع ، فكان حينئذ للناس والأنعام معاً .

وتمضي الصورة الإنمائية الإحيائية للماء ماثلة في خضرة الأرض وتحويلها إلى حقول وبساتين نضرة يانعة وجنان وفيرة جميلة المنظر، يقول تعالى: " **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**"[2].وهي صورة تبرز حركة نمو الزرع ونضجه الكامل حيث يتوهّج باللون الأخضر الداكن ، فقد عبّرت الصورة عن مصير الأرض خضراء بصيغة " **فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً** " .وقد أختير الفعل " أَنْزَلَ " بصيغة الماضي للتعبير عن نزول الماء من السماء ، فهو أمر ماضٍ لا يمكن لأحد تجاهله . أمّا اختيار الفعل المضارع " **تُصْبِحُ** " للتعبير عن تحوّل اللون في النبات ، وفي ذلك إمتاع للبصر وموجب لشكر النعمة .

ويقول – أيضاً– : " **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ** "[3].فالتعبير القرآني يصوّر الأرض في لوحة بديعة حيث ترتسم بالخصوبة وتنوّع الأشجار

---

(1) إبراهيم: آية32.

(2) الحج: آية63.

(3) النمل: آية60.

والثمار . لذا ناسب التعبير بين اللفظ " أَنْزَلَ " و " أَنْبَتْنَا " إشارة إلى التأثير الإيجابي للمـــاء؛ لأنّ الماء قد يكون تأثيره سلبياً فيخرّب الزرع والشجر .

ويبدو من خلال تلك الآيات أنّ القرآن الكريم وضح لنا كيف أنّ الله عزّ وجل عندما تناول الجمال على الأرض تدرج فيه من الجمال في الجزئيات البسيطة إلى الكلّيات ومنها إلى أعلـــى مستويات الجمال في الكون، فجعل الله تعالى الحدائق مختلفة الأنواع والألوان والأشـــكال مـــن الزهور مع حسنها وبهائها، وبذلك تصبح الأرض مخضرة بالنبات، ويصبح في الكـــون زينـــة طبيعية تبعث في النفوس البهجة والسرور[1].

كما أنّ لماء السماء دلالات إنمائية لمختلف أنواع المزروعات على وجه الأرض، فـــالله – سبحانه وتعالى– بقدرته العظيمة الفريدة أنشأ منه الحدائق والبساتين المليئة بالكثير من أصـــناف الأشجار والثمار والفواكه، يقول –سبحانه وتعالى–:" **فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِه كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكلونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَـــيْنَاءَ تَنْبُـــتُ بِالـــدُّهْنِ وَصِـــبْغٍ لِلْـــآكِلِينَ**"[2]. وفـــي قوله:"**أَنْشَأْنَا**" أسند الفعل إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع ؛للتعظيم ، فإنشاء جنات النخيـــل مـــن صنع الله تعالى .

وقد خصّ بالذكر من أصناف الشجر النخيل والأعناب؛ لنفعهما الكثير، ولكونهما يـــؤكلان على حالات شتى، لذلك جرى تقديمهما إشارة إلى شكر النعمة. وقد أخّر شجرة الزيتون؛ لأنّـــه من الأطعمة وليس من الفواكه. ووصف النخيل والعنب بـــ "**فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ** "؛ على اعتبار اختلاف أصنافهما وكثرة ثمارها؛ "لأنّ ثمرها جامع ين أمرين: أنّه فاكهة يتفكه بها، وطعام يؤكل رطبـــاً ويابساً، رطباً وعنباً، وتمراً وزبيباً[3].

---

[1] انظر:خضر، هالة محجوب: **الإبداع الإلهي بين الجمال والجلال**، ص122.

[2] المؤمنون: الآيات19 –20 .

[3] الأندلسي، أثير الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف الأندلسي: **البحر المحـــيط**، جـــزء6، دار إحيـــاء التـــراث العربي، ص400.

وقوله تعالى: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ"[1].

وهي صورة توحي بالتفكر في أطوار تكوّن الحبوب والثمار ومختلف الزروع التي بها طعام الإنسان .وفي التعبير " صَبَبْنَا " إشارة إلى كثرة نزول المطر وتدفقه إلى الأرض . وفي إسناد الأفعال " صَبَبْنَا " و" شَقَقْنَا "و" أَنْبَتْنَا " إلى ضمير الجلالة إشارة إلى تحكم الله سبحانه بهذه المراحل، وإلى عظيم قدرته.

كما أنّ التنكير في قوله " صَبًّا "و " شَقًّا " يدل على التعظيم ، والفاء في " فَأَنْبَتْنَا " للتعقيب وتعدد أنواع النبات .وخصّ الحدائق بالذكر ، لأنّها تضم أصنافاً كثيرة من الأشجار . كما أنّ وصف الحدائق بالغلب "على تشبيه الحديقة في تكاثف أوراق شجرها والتفافها بشخص غليظ الأوداج والأعصاب"[2].

ومن الصور العجيبة للماء أنّه من المنافع الخاصة للناس من خلال نعمة الشرب ، وللدوابّ من خلال نعمة الطعام، يقول تعالى: " هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ" [3]. وقد قدّم الماء هنا لأهميته. وتكرر حرف الجر " من " لبيان أهمية الماء، أمّا حرف الجر في قوله: " فِيهِ تُسِيمُونَ" للظرفية، فرعيّ الماشية للأشجار يكون بالأكل منه وممّا حوله من العشب .

ونتابع دقائق ما أودعه الله سبحانه في الماء الواحد ، فقد أنبت وما زال منه بساتين من كروم النخل والأعناب وغيرهما ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: " وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كلّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ..."[4].

---

[1] عبس: الآيات 24-32.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء31، ص132.

[3] النحل: آية 10.

[4] الأنعام: آية99.

إنها لوحة متكاملة فيها من الحركة التصويرية الشيء الكثير ، من خلال إنزال المطر من السماء ونمو الزرع والزهر والثمر ، وحركة نمو النباتات والمزروعات بإيقاعات مختلفة السرعة، وتنوّع هائل في الأصناف وفي الشكل والطعم والرائحة، بالإضافة إلى اختلاف اللون .

وفي تكرار الفعل " أَخْرَجْنَا " دلالة على أنّ الله تعالى هو المتفرد بالخلق .وفي قوله: "مُتَرَاكِبًا" للمبالغة في التصاق الحبوب بعضها على بعض كالقمح مثلاً. وعندما تحدّث عن النخل خصّ بالذكر قوله: "قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ " وذلك للتذكير بإتقان الصنع .

ليس هذا فحسب، بل أشار القرآن الكريم إلى زوجية النباتات التي أنشأها الله تعالى من ماء المطر، وفي ذلك إشارة واضحة إلى عظمة الله وجلاله، يقول سبحانه وتعالى: "**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى**"[1] ففي قوله :" أَزْوَاجًا " ،"جمع زوج ، وحقيقة الزوج أنّه اسم لكلّ فرد من اثنين من صنف واحد ، فكلّ واحد منهما هو زوج باعتبار الآخر"[2]وفي قوله: "**مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى**" تعبير عن النباتات المختلفة في الصفات .

ويقول –أيضاً–: "**وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ...**"[3]. وفي هذه الآية جاء التعبير عن زوجية النباتات بالتثنية لقوله :" زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ " أيّ: جعل زوجين من كلّ نوع ، لذلك كان تنكير " زَوْجَيْنِ " للتنويع ، كما أنّ وصف الزوجين بقوله :" اثْنَيْنِ " إشارة إلى تأكيد ذلك .

هذا هو الماء وسرّه الكبير! فهو سرّ عظيم لا يعرف مكنونه إلا خالقه ، فقد رأينا دوره العجيب في إحياء الأرض الجرداء، وفي تنوّع النباتات على سطحها، وفي بث الحياة في كلّ مخلوقاتها .إنّها صورة حيّة متكاملة تبهر العقول بكمالها، وتشدّ الأنظار إلى حيويتها .

ونلاحظ أنّ التعبير القرآني في عرضه لصورة الماء والإحياء قد ركّز على استخدام صور بيانية متنوعة، إذ على الرغم من أنّها بسيطة إلا أنّها تحمل دلالات بلاغية تثري النص،

---

[1] طه: آية53.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء27، ص239.

[3] الرعد: آية3.

فمن هذه الجوانب: استخدام ضمير المتكلم مع الفعل؛ للامتنان والتعظيم . وورود الكثير من الدلالات الصوتية والحركية التي تعكس المعنى المراد، وتساعد في إبراز الصورة ووضوحها. كما أنّ اختيار بعض الأفعال المبنية للمجهول واختيار الفعل المضارع – تحديداً – بثّ في الصورة شيئاً من الحياة والاستمرارية .

المبحث الرابع: صورة تسبيح المخلوقات .

عندما خلق الله – سبحانه وتعالى– الكون وما فيه من إنس وجن ومخلوقات أخرى، لم يخلقهم عبثاً كما قال في كتابه العزيز: "**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**"[1]. لقد خلقنا الله – سبحانه وتعالى– للعبادة والطاعة في كلّ شيء و في كلّ صغيرة وكبيرة، وجعل القرآن الكريم دستوراً لنا، ونوراً يضيء طريقنا، ونرجع إليه متى ضاقت علينا الدنيا، وضاقت بنا المسالك والدروب "**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**"[2]. فالمؤمن لا يطمئن قلبه إلا بذكر الله والرجوع إليه في كلّ وقت وحين؛ لأنه يدرك أنّ الله – سبحانه وتعالى– هو السميع المجيب القادر الذي لا يخفى عليه شيء في السموات ولا في الأرض.

إنّ التسبيح عبادة يتقرب بها العبد المؤمن إلى الله – سبحانه وتعالى– يرجو بها طاعته ورضوانه، فهي سبيل النجاح في هذه الدنيا، فبها يعرف المؤمن مقصده من الحياة وسبب وجوده على هذه الأرض.

والتسبيح لغة :هو "الذكر بالتمجيد والتقديس مع التنزيه عن كلّ نقص "[3]. وعلى ذلك فإنّ تسبيح الله –تعالى– يقصد به ذكره الدائم وتمجيده وتقديسه، وإخلاص العبودية له وحده دون شريك ولا منازع، وتنزيهه –سبحانه– عن كلّ وصف لا يليق بجلاله الكريم.

ولفظة "التسبيح" مشتقة من "السبح" و "السباحة" أيّ : العوم، وهو في اللغة المرّ السريع للجسم المادي في وسط أقل كثافة منه كالماء أو الهواء، يقال: "سبح" "يسبح" "سبحا" أيّ: مرّ مروراً سريعاً، وقد استعير "السبح" لمرور النجوم في صفحة السماء[4] لقوله تعالى: "**كلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**"[5].

---

(1) الذاريات: آية56.

(2) الرعد: آية28.

(3) ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "سَبَحَ"، مجلد2، ص81.

(4) انظر:المرجع السابق، مادة "سَبَحَ"، مجلد2، ص81.

(5) يس: آية40.

والتسبيح نوعان: تسبيح للعاقل بلسان المقال، وتسبيح لغيره بلسان الحال. وهذا يدل على أنّ كلّ ما في هذا الكون يتحرك أو "يَسْبَح" في جري سريع، منتظم، هادئ غير مضطرب، وفي ذلك دلالة على خالقها، وعلى صفاته القدسية، فهي تحمده وتثني عليه وتُنَزهه وتخضع له[1]. وقد ورد الفعل "سبح" بمشتقاته المختلفة في القرآن الكريم سبعاً وثمانين مرة[2].

إنّ المخلوقات جميعها في هذا الكون تسبح لله –عزّ وجلّ–، فالسماء ونجومها، والكواكب وأفلاكها، والبرق وضوؤه، والرعد وصوته. والأرض وجبالها، والبحار وما يعتليها، والشجر وأوراقه، والأزهار وحدائقه، والطيور وأعشاشها، والحيوانات كبيرها وصغيرها. كلّها ساجدة عابدة لخالقها، ذاكرة شاكرة له، مسبحة حامدة مستسلمة لوجه الكريم، قال تعالى: " **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**"[3].

صورة من التنزيه الواسع الذي يلتصق بالجواهر وهي السموات والأرض بالإضافة إلى موجوداتها دون استثناء ، وكأنّ الكون بأكمله يؤدي تلك العبادة في وقت واحد ، إذ نستشعر فيه الانقياد التام . وفي تكرار الفعل " **يُسَبِّحُ** " إشارة إلى إدامة التسبيح وتجديده . وفي قوله :" **وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** " للتأكيد على أهمية النظر والتأمل في موجودات الكون للوصول إلى كنْه طبيعتها، بالإضافة إلى أنّ الناس سيظلون قاصرين على معرفة ماهية التسبيح وعلمه. ولعلّ في ذكر الفعل " **لَا تَفْقَهُونَ** " دون غيره في هذا المقام من البلاغة البديعة الدالة على ذلك .

إنّها حقيقة كونية كبرى أثبتها الله – سبحانه– في قرآنه العظيم، ولكن غفل عنها كثيرون في زحام الحياة، فالكلّ يلهج بذكر الله وتسبيحه وتحميده بغير توقف ولا انقطاع، وهي حقيقة تهز القلوب، وتجعل المشاعر رقيقة مطواعة لله –تعالى–، وهي حقيقة تنادي بل تصرخ في

---

[1] السعدي، داود سلمان: **أسرار الكون في القرآن**، ط2، دار الحرف العربي، بيروت– لبنان، 1420هـ– 1999م، ص259–260.

[2] http:// www.lakii.com/vb/showthread.php?t

[3] الإسراء: آية44.

أصحاب القلوب القاسية، أولئك العصاة الذين غفلوا عن تسبيح الله وذكره... فلو تأملنا في هـذا الكون فإنّنا لا نجد فيه متمرداً على الله، ومرتكباً للخطيئة، ومتنكراً للطاعة سوى ممن عصاه من الإنسان والجان، وفي ذلك مخالفة للكون في أسراره وطاعته وسننه. وإذا كان هذا الإنسان قـد طغى وبغى، وضل السبيل، فإنّ هناك خلقاً قد انقاد واستسلم وخضع لعظمة الله – تعالى–، قـال سبحانه: " **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُـونَ**"[1].كنايـة عن انقياد الخلائق جميعها لله سبحانه .

فالكائنات كلّها تسبح الله خالقها تسبيحاً لا نفقهه نحن البشر، فنحن نفقه تسـبيح الإنسـان، ولكننا لا نفقه تسبيح المخلوقات الأخرى من جبال وبحار وأشجار وغيرها " **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**"[2]، وعدم معرفتنا به ليس دليلاً على نفيه، فقد خص الله –تعالى– بعض خلقه من البشر بالإطلاع على تسبيح بعض الملخوقات، وأعطاه القدرة على فهم تسبيحها، كداود عليه السلام، فقد علمه الله منطق الطير وأمر الجبال بالتسبيح معه، قال تعالى: " **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ**"[3] .

وصورة التسبيح هنا تختلف عن سابقه ، فقد جاء في معرِض ذكر فضائل الأنبياء وتعـداد نِعم الله عليهم ، فالجبال تبدأ بالتسبيح مع وجود سيدنا سليمان ، لذا تقدّم ذكر " مَعَـهُ " للتأكيـد ، وجملة " **يُسَبِّحْنَ** " دلالة على تجدد تسبيحها كلّما حضر ، ففي الجملة إشارة لاستحضار صـورة التسبيح و تأمّل عجائبها.

إنّ تسبيح كلّ مخلوق من مخلوقات الله –تعالى– من الأحياء والجمادات هو تسبيح حقيقـي وذاتي لكلّ منها، فكلّ نوع من المخلوقات له لغة خاصة به، منحها الله له، وميّزة بها عن غيره، وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح ولا نعرف ماهيته، وجاء في الظلال "لا تفقهونه لأنّكـم محجوبـون بصفاقة الطين، ولأنّكم لم تتسمعوا بقلوبكم، ولم توجهوها إلى أسرار الوجـود الخفيـة، وإلـى النواميس التي تنجذب إليها كلّ ذرة في هذا الكون الكبير، وتتوجه بها إلـى خـالق النـواميس،

---

[1] آل عمران: آية83.

[2] الإسراء: آية44.

[3] ص: آية18.

ومدبر هذا الكون الكبير، وحين تشق الروح وتصفو فتتسمع لكلّ متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح، ويتوجه بالتسبيح، فإنّها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود، النابضة في كلّ متحرك وساكن، وفي كلّ شيء في هذا الوجود"[1].

إنّ كلّ الخلائق التي خلقها الله –سبحانه وتعالى– في السموات والأرض تشارك في تسبيح الله تعالى – وحمده وتقديسه في كلّ يوم وكلّ ساعة وفي كلّ حين، فمن الآيات التي تشير إلى ذلك –أيضاً–، قوله تعالى: " **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**" [2] .

فصورة التسبيح في هذا التعبير من مقتضيات ملك الله وتصرّفه في الكون " وهذا يفيد ابتداء تقرير تنزيه الله تعالى وقوة سلطانه ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويكون لهم تعليما وامتنانا، ويفيد ثانيا بطريق الكناية تعريضاً بالمشركين الذين لم ينزهوه ولا وقروه فنسبوا إليه شركاء" [3].وتكرار الاسم الموصول " **مَا** " للتأكيد على عموم تسبيح الكائنات .

وقوله تعالى: "**وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**"[4].

ويتكرر صورة الخضوع والاستسلام لله تعالى في هذه الآية . ففي قوله " **وَمَنْ عِنْدَهُ** "، " هم المقربون في العوالم المفضلة وهم الملائكة "[5]. وجاء التعبير بصيغة المضارع المسند إلى واو الجماعة إشارة إلى عموم الملائكة ، كما أنّ تكرار حرف النفي مع المضارع يدل على تجدد اتصافهم هذه الأوصاف. وعبّر بقوله: "**وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ** " للمبالغة في وصفهم المنقاد لخالقهم، فهم لا يستثقلون، ولا يتعبون من دوام تسبيحهم ، وهذا دليل على مجيء التعبير التالي " **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**" أيّ : في جميع أوقاتها .

---

[1] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد4، ص2231.

[2] التغابن: آية1.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء29، ص260.

[4] الأنبياء: الآيتان 19–20.

[5] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء18، ص36.

وقوله تعالى: "يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ"[1].

وتختلف صيغة التسبيح حسب ما يقتضيه المقام ، ففي هذه السورة "جاء فعل التسبيح مضارعاً وجيء به في سواها ماضيا لمناسبة فيها وهي :" أنّ الغرض منها التنويه بصلاة الجمعة، والتنديد على نفر قطعوا عن صلاتهم وخرجوا لتجارة أو لهو، فمناسب أنّ يحكى تسبيح أهل السموات الأرض بما فيه دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدده تعريضاً بالذين لم يتموا صلاة الجمعة"[2].

ولعلّ دلالة " مَا " في الآيات الكريمة يفيد العموم، بمعنى كلّ شيء في هذا الكون من ملك، وإنسان ونبات وحيوان وجماد[3].

ومن صور تسبيح المخلوقات لله تعالى في السموات والأرض كما نطقت بها الآيات القرآنية، ما يتعلّق بالإنسان، والملائكة، والرعد، والجبال، والطيور.

أمّا فيما يتعلق بتسبيح الإنسان، فالأمر به واضح في سورة الروم حين يقول تبارك وتعالى: " فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ"[4]. فصورة التسبيح والحمد لله تعالى في جميع أوقات الليل والنهار، في المساء، وفي الصباح، وفي العشي[5]، ووقت الظهر، وقد خصّ الله –سبحانه– وقتي المساء والصباح للتسبيح، حيث يستقبل المؤمن يومه ونهاره بتنزيه الله عن جميع صفات النقص، ويصفه بجميع صفات الكمال، وكذلك يكون حاله عند إدبار النهار وإقبال الليل.

ففي الصورة إشارة إلى تسبيح العباد وتحميدهم لله تعالى في أوقات وأحوال شتّى ، وهي أوقات تمتد من بداية النهار حتى نهايته ، ومن بداية الليل حتى أواخره ، فهي أحوال تجمع بين ضوء خفيف وآخر قوي ، وظلمة خفيفة وأخرى شديدة ، وكلّ ذلك دلالة على عظيم سلطانه سبحانه وكمال قدرته.

---

[1] الجمعة: آية1.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء9، ص206.

[3] انظر: الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص378 و ص348.

[4] الروم: الآيتان 17–18.

[5] العشي: أخر النهار أو من صلاة المغرب إلى العتمة. انظر: لسان العرب ، مادة "عَشَا، "مجلد2، ص789، وانظر: محيط المحيط، ص604.

ومن الآيات الكريمة –أيضاً– التي أشارت إلى تسبيح الإنسان لله –سبحانه– في الصباح والمساء، قوله تعالى: "**وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**"[1]. وعندما كان الخطاب موجّهاً للناس هنا ، وكذلك التسبيح حُدّد بأول النهار وآخره ، فهذا كناية عن شمولية الأوقات بالتسبيح ، وكناية عن الصلوات الخمس ، فالتسبيح من موجبات الصلاة.

وهناك إشارات لهذا التسبيح –كذلك– في معرض خطاب الله –عزّ وجل– لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك حين أمره بالتسبيح رداً على المشركين وغيرهم من كفار مكة الذين شككوا في صفات الله تعالى ونعتوها بالنقص ، يقول –سبحانه–: "**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**"[2]. والخطاب هنا لسيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وللمؤمنين لذا فالفعل "**سَبِّحْ** " بمعنى "صلِّ" وذلك نظراً لتحديد أوقات الصلاة في الآية ، ويقول في سورة ق: " **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**"[3]. ففي قوله :" **قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ** " إشارة لصلاة الفجر ، وقوله :" **وَقَبْلَ الْغُرُوبِ** " إشارة لصلاة الظهر والعصر، وفي قوله :" **وَمِنَ اللَّيْلِ** " إشارة لصلاة المغرب والعشاء .ونلمح في تكرار فعل التسبيح في قوله " **فَسَبِّحْهُ** " للأهمية ،وللتأكيد عليه– كذلك– في أوقات أخرى وهي قيام الليل ،وبعد انقضاء السجود في الصلوات .

وكما أشار القرآن الكريم إلى التأكيد على التسبيح، وذلك على لسان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، عندما طلب من الله –عزّ وجلّ– أن يجعل له معيناً وشريكاً في تبليغ رسالته إلى فرعون الذي جاوز حده في الطغيان، يقول –سبحانه–: "**كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا**"[4]. وكذلك في كلّام زكريا مع قومه عندما أشار إليهم بأن يسبحوا الله في أوائل النهار وأواخره[5]. فالتسبيح والثناء لله تعالى ينبغي أن يكون تسبيحاً فريداً يليق بعظمته وبديع صنعه.

---

[1] الفتح: آية9.

[2] الواقعة: الآيتان 74 و 96.

[3] ق: الآيتان 39–40.

[4] طه: آية33.

[5] انظر: سورة مريم: آية11.

ومن صور تسبيح الملائكة في القرآن الكريم، قوله تعالى: "**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**"[1]. وفي قوله " **نَحْنُ** " إشارة إلى الانقياد التام لله تعالى. أمّا التعبير " **نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** " إشارة إلى أنّ هذا التسبيح ليس تسبيحاً عادياً بل هو تسبيح مصحوب بالحمد والتقديس والتنزيه .

وقوله تعالى: " **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا**"[2]. وفي الصورة تعظيم بشأن الملائكة الذين يحملون عرش الرحمن وأولئك الذين يحيطون به لعظمته ، وفيها كذلك تنويه للمؤمنين الذين تستغفر لهم الملائكة .وفي اختيار صيغة المضارع " **يُسَبِّحُونَ** " و" **يُؤْمِنُونَ** " و "**يَسْتَغْفِرُونَ** " دلالة على تجدد الأحداث من قبل الملائكة .

وفي قوله تعالى: "**فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ**"[3].فللملائكة صورة خاصة بالتسبيح توحي باستمرار هذا الفعل قولاً وعملاً ، ولعلّ ذكر " **اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** " لبيان استيعاب الزمان كلّه . وفي بيان حالهم " **وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ** " ففي التعبير صورة عجيبة تفصح عن استمرار هذا التسبيح بشكل محبب دون ملل أو ضجر .

وقد جاء في تفسير القرطبي ما نصه: أيّ ينزهونه عما لا يجوز في وصفه، ومالا يليق بجلاله، وقيل يتعجبون من جرأة المشركين فيُذكر التسبيح في موضع التعجب[4].

ومن صور تسبيح الرعد لله – عزّ وجلّ– ما ورد في سورة الرعد، عندما أخبرنا – سبحانه وتعالى– أنّ الرعد يسبّح له تسبيحاً مقترناً بالحمد والثناء عليه، يقول "**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**"[5] ويدل تسبيح الرعد " على تنزيه الله تعالى ووجوب حمده فكأنه هو المسبح ، وقيل إنّ الرعد هو الملك الذي يسوق السحاب ويزجر ه بصوته وهو يسبح الله تعالى ويحمده[6]. إذ "إنّ

---

(1) البقرة: آية30.

(2) غافر: آية7.

(3) فصلت: آية38.

(4) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن – تفسير القرطبي**، تقديم: هاني الحاج، تحقيق: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، الجزء16، المكتبة التوفيقية، ص5.

(5) الرعد: آية13.

(6) الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن : **مجمع البيان في تفسير القران** ، مجلد 3 ، مطبعة العرفان : سوريا ، 1355 هـ ، ص: 283 .

تسبيح الرعد حقيقة دلّ عليها القرآن، فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات، فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو حقّ"[1].

وأمّا تسبيح الجبال والطير له –سبحانه– فماثلٌ في قوله تعالى: "**وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**"[2]. إنّها حقيقة كونية باهرة ذكرها – سبحانه–؛ للدلالة على قدرته العظيمة في خلقه، فها هي الجبال والطير تشارك في التسبيح مع نبيّ الله تعالى سيدنا داود – عليه الصلاة والسلام– حين يسبح. قال ابن كثير: "وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور، فكان إذا نرنّم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وتردّ عليه الجبال تأويباً"[3]. ويذكر البقاعي في تقديم ذكر الجبال على الطير في الآية الكريمة: " وإنّما قدّم ذكر الجبال على الطير؛ لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب و أدل على القدرة في ذلك ؛ لأنّه أبعد عن النطق "[4].

فهذه الصورة تجعل المتلقي يجدد تسبيحه واستسلامه لخالقه تعالى ، وذلك حين تجعله يتخيّل صورة هذه المخلوقات وهي تسبّح بطريقتها الخاصة لخالقها الذي لم يخلقها عبثاً . كما أنّ هذه الصورة تُلقي على الحسّ ألواناً من الأصوات والحركات والتي على الرغم من اختلاف مادتها إلا أنّها تضفي نوعاً من التناسق والتجاوب في رحاب الكون . فمجمل هذه الصورة المحمّلة بهذه الدلالات تشير إلى عظمة الله تعالى وقدرته المتفرّدة .

فسبحان الله، حيث جعل الجبال والطير تسبح مع نبيّ من أنبياء الله –تعالى– إذا سبّح وذكر الله!! وليس هذا فحسب، بل يبهرنا الله – عزّ وجل– حين يخبرنا في الهيئة التي تتخذها الطيور حال طيرانها، لتعبر عن تسبيحها لخالقها، فقد ألهمها وأرشدها إلى بسط جناحيها، وهو يعلم أنّها تفعل ذلك، لأنها تسبحه وتعبده، فهو خالقها وخالق جميع الكائنات في السموات وفي الأرض، وهو الذي أرشدها وأهداها إلى طريقة معينة ومسلك خاص في تسبيحه وعبادته، يقول

---

[1] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد2، ص76.

[2] الأنبياء: آية79.

[3] ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، جزء3، ص217.

[4] انظر : البقاعي ، برهان الدين :**نظم الدرر**، جزء 5 ، ص:101 .

– سبحانه وتعالى– " **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كلّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**"[1].

وقد ورد في تفسير القرطبي عن سفيان قوله: "للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود. وقيل: إنّ ضربها بأجنحتها صلاة، وإنّ أصواتها تسبيح. وقيل: التسبيح ها هنا ما يرى في المخلوق من أثر الصنعة"[2].

ونتأمل في التعبير القرآني صورة صوتية عامّة نستمع إليها من كلّ ركن من أركان الكون، في سمائه وأرضه، تشكل سمفونية ربّانية متفرّدة تلقي بظلالها على الأسماع . وفي اختيار الاسم الموصول "**مَنْ** " على سبيل أنّ "إطلاق مَنْ على العقلاء وغيرهم بطريق التغليب"[3].

وقد خصّص سبحانه الطير بالذكر دون غيرها من المخلوقات ووصفها بـــ " **صَافَّاتٍ**" إشارة إلى الجمال المبدع للصورة في الشكل والمضمون ، ففي الصورة صوت يجعل الحسّ يتفاعل معه ويتذوق مضامينه النافذة ، وفيها حركة تجعل الناظر يتابع خفاياها ويشكر صانعها .

إنّ صورة تسبيح المخلوقات في القرآن الكريم صورة تهزّ القلوب وتلهب المشاعر ، فهي صورة شاملة لمخلوقات الله تعالى ، ففيها من الألفاظ والمعاني ما يجعل المتلقي يتأملها ويستحضرها ويتعايش معها عملياً ، فهي دالة على عظمة الله تعالى وقدرته المتفرّدة .

---

[1] النور: آية41.

[2] القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن– تفسير القرطبي**، جزء12، ص243.

[3] الألوسي ، روح المعاني ، جزء 18 ، ص 157 .

المبحث الخامس: مشاهد السماء والأرض يوم القيامة .

إنّ يوم القيامة هو الحادثة الكونية العظمى التي تطوى عندها السموات والأرض، وينتشر فيها هذا النظام الكوني أجمع. ولقد أكّد الله – عزّ وجلّ– هذا اليوم في كتابه العظيم، وقررها في عقول عباده وقلوبهم ؛ لتكون دليلاً على متانة وقوة العقيدة في نفوسهم" إنّ القضية، قضية القيامة التي أكدها القرآن الكريم بشتى المؤكدات في مواضع منه شتى، وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم، وإقرار حقيقتها في قلوبهم، مسألة ضرورة لا بدّ منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها، ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعاً. فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السماوية، كما أنّه حجر الأساس في تصور الحياة الإنسانية وإليه مرد كلّ شيء في هذه الحياة"[1].

فأمّا عن موعد هذا الحدث وزمنه والوقت الذي يكون فيه، فذلك ما أخفى الله تعالى علمه على الناس كلّهم بما فيهم الرسل والأنبياء، فليس لأحد – كائنً من كان– من سبيل إلى معرفة ما تبقى من عمر الحياة الدنيا.

ولقد صرّح القرآن بهذا الأمر وأكّده في صورة غيبية تشهد للخالق بعظيم القدرة والسيطرة، وتبعث في النفوس الكثير من الخوف والتحسّب لذلك اليوم ، فقال تعالى: " **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**"[2].

وكما يقرّر القرآن الكريم في وضوح تام أنّ علم الساعة لا يختص به إلا الله –سبحانه وتعالى–، فهو وحده الذي يعلم عن موعدها دون غيره، يقول –تعالى–: " **وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**"[3].

---

[1] فائز، أحمد: **اليوم الآخر في ظلال القرآن**، ط1، 1978، ص161–162.

[2] الأعراف: آية187.

[3] الزخرف: آية85.

فالقيامة آتية لا شك ولا جدل في ذلك، فهي آتيه لا ريب فيها وذلك بنص الآية الكريمة: "وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ"[1]. فالتعبير يشير إلى حتمية مجيء ذلك اليوم ، وحتمية بعث الخلائق للحساب .وكما أخبرنا –سبحانه– أنّ موعدها قد قرب :"وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ"[2]. وهذا التعبير يضع الناس في صورة استحضار دائم لذلك اليوم وما سيجري فيه.

إنّ يوم القيامة يوم أمره عظيم، وهوله شديد، لا يلاقي العباد مثله، وممّا يدل على ذلك أنّ الله –سبحانه وتعالى– وصفه بالعظم، فهو أعظم مما نتصور، وأكبر ممّا نتخيل، قال تعالى: " أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"[3]. ووصفه –سبحانه– في موضع آخر بالثقل: " إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا"[4]. وكما وصفه في موضع ثالث بالعسر: " فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ"[5].فجميع هذه الأوصاف تصوّر شدة ورهبة ذلك اليوم ، فهي تلقي بظلالها المؤلم على النفس .

وممّا يدل على الهول المرعب، والمشهد العنيف المفزع الذي يصيب العباد في ذلك اليوم، حيث صورة المرأة المرضع التي تذهل عن وليدها، وصورة الحامل تسقط حملها للهول المروّع الذي ينتابها ،وصورة الناس يكون حالهم كحال السكارى الذين فقدوا عقولهم. يقول تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كلّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كلّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"[6]. وقد وصف سبحانه وتعالى – ما يصيب القلوب والأبصار في ذلك اليوم فقال: "يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ"[7]، وقال: "قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ"[8].

---

(1) الحج: آية7.

(2) الشورى: آية17.

(3) المطففين: الآيات 4–6.

(4) الدهر: آية27.

(5) الإنسان: آية27.

(6) الحج: الآيتان1–2.

(7) النور: آية37.

(8) النازعات: آية8 – 9 .

إنّ من شدة ذلك اليوم وهوله أنّه طويل على الكافرين، قال تعالى: " **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا**"[1].إنها صورة توضح المفارقة بين فريقين، فمن طغى وتجبر في دنياه يتمنى بُعد ذلك اليوم، فالخوف حاضر لديه من نار جهنم. ومن عمل بما أمر الله يتمنى قُربه، فالحنين والشوق حاضر لديه كلّ حين لرائحة الجنّة.

إنّ كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة تقرر وتؤكد أنّ أحداثاً فلكية ضخمة ستتم في ذلك اليوم. وكلّها تشير إلى اختلال كامل في النظام الذي يربط أجزاء الكون، وعليه سنستعرض مظاهر هذا الانقلاب الكوني من خلال مشهدي السماء والأرض، وكما وضحتها وبيّنتها الآيات الكريمة.

*** مشاهد السماء يوم القيامة:**

إنّ ما سيحدث للسماء يوم القيامة لأمر عظيم يتغير معه نظامها وكواكبها ومداراتها وحركاتها، إذ بقدرة الله تعالى وإدارته ستتغيّر أحوال السماء وما فيها، حيث ستتعرض للانشقاق والتفكك منقادة ومطيعة لأمر ربّها بنص الآية القرآنية :"**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ**"[2].

يصوّر هذا التعبير صورة السماء وهي تتشقق ويختلّ تركيبها، هذا الانشقاق الذي يلوح للناظرين إليها فيلقي في قلوبهم الخوف والرعب والاستغراب، فالصورة مشحونة بالدلالات الحركية والصوتية، ولعلّ في أصوات الكلمة ما يشي إلى معنى الانتشار.

وقد جاء التعبير القرآني بهذا النسق أقوى من غيره ففيه إثارة للسامعين، حيث قدّم لفظ "**السَّمَاءُ** " على الفعل "**انْشَقَّتْ**" ، ولم يقل مثلاً "إذا انشقت السماء" وهنا يكمن السر البلاغي.

وفي التعبير بقوله: " **لِرَبِّهَا** " تأكيد لصفة الربوبية التي تتضمن معنى الملك وسعة التدبير.

---

[1] المعارج: الآيات 4–7.

[2] الانشقاق: الآيات 1–2.

وقوله تعالى: "وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ"[1]. وبانشقاق السماء تنفطر إلى أجزاء عديدة، لقوله تعالى: "إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ"[2] وبهذا الانشقاق والانفطار فإنّ لون السماء الأزرق الجميل يزول ويذهب فتصبح السماء مثل الورد الأحمر من حرارة النار.ففي التعبيرين: "فُرِجَتْ " و" انْفَطَرَتْ " تحفيز للسامعين بتخيّل تلك الشقوق التي ستحصل في قبة السماء، وما سيتراءى لهم من مناظر. وتكرار ظرف الزمان "إِذَا " في أوائل الآيات للتشويق والاهتمام بمضمون كلّ جملة.

ويقول سبحانه وتعالى: "فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ"[3]. جاء اللفظ " انْشَقَّتِ " بعد الظرف للاهتمام بموضوع الانشقاق ، وجاء بصيغة الماضي دلالة على تحقيقه في المستقبل.

ولا شك أنّ السماء كما أخبرنا القرآن الكريم تصبح ضعيفة واهية مسترخية، ليس فيها تماسك ولا صلابة، وأنّ الملائكة يقفون على أطرافها وجوانبها، يقول –سبحانه وتعالى–: "وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ"[4] .

إذ اختير صيغة الماضي في قوله :" وَانْشَقَّتِ "إشارة إلى تأكيد وقوع الحدث في المستقبل والفعل كذلك – يُجسد الحركة الصوتية التي تثير النفس وتنشّط الخيال، لا سيّما وأنّ جذر الكلمة يبدأ بحرف الشين "شقّ"، حيث يجيء لدلالة تقع على معنى التفشي والانتشار، وعليه فالحركة في لغة الفعل تقوم بوظيفة التصوير وتجسيد الحدث، إذْ تجعلنا نتصوّر حركة انشقاق السماء وما يترتب على هذا التصوّر من انفعالات نفسية تجعل المتلقي يُسقطها على المكان الذي يتواجد فيه.

ونلاحظ –كذلك– أنّ صورة الانشقاق هنا جاءت بشكل مباشر من خلال النسق التعبيري للآية، إذْ جاء بالفعل دون أن يسبقه كلمة أخرى – كما جاء في الآيات السابقة– ولهذا دلالته في شدة تأثير الصورة على النفس. ووصف السماء بقوله: "وَاهِيَةٌ " لبيان الضعف والتفرّق الذي يعتريها. وفي تكرار لفظ الزمان "يَوْمَئِذٍ" للتأكيد على تقييد تلك الأوصاف في ذلك اليوم .وكما

---

[1] المرسلات: آية9.

[2] الانفطار: آية1.

[3] الرحمن: آية37.

[4] الحاقة: الآيات 16–17.

جاء لفظ " الْمَلَكُ " إشارة إلى جموع الملائكة ، وقد ذكرت الملائكة هنا نظراً لحالة الانشـقاق ، فحصول تلك الحالة يأذن بحضورهم إلى موقع الحشر والحساب .فالآية تصوّر عظمة الله تعالى وتقرّب الصورة للأذهان .

وهكذا تتشق السماء ويؤذن بنزول الملائكة والاستعداد للموقف، وتحيط الملائكة بالخلائق من كلّ جانب، يقول تعالى: "**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَـةُ تَنْزِيلًـا**"[1].فاختيـار صـيغة المضارع المضعّف " **تَشَقَّقُ** " لاستمرار تجدد الصفة ، وفي التعبير " **نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا** " صـورة مشحونة بالرحمة من خلال حفظ الله لذلك التنزيل ، وكـذلك فيهـا صـورة جماليـة تتـراءى للمخاطبين وتجعلهم يعيشون ذلك المشهد في خيالهم من خلال عناصر الحركـة واللـون التـي تنبض بها الصورة .

ومن هول ذلك اليوم ستتحرك السماء وستضطرب اضطرابا شديداً لقوله تعالى: "**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا**"[2] .فالصورة تلقي بظلالها على السامعين ، إذ تدخلهم في دائرة الحـسّ ، وتجعلهـم يتخيلون أنّ الكون يتحرّك ويضطرب بهم . وتأكيد الفعل " **تَمُورُ** " بالمصدر " **مَـوْرًا** " للتأكيد على حقيقة هذا الوصف .

وستصبح السماء – كذلك – سائلة غير متماسكة،تشبه الزيت، يقول تعـالى: "**يَـوْمَ تَكُـونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ**"[3]. وهي صورة توحي باللزوجة وعدم الاستقرار، ممّا يجعل المخاطبين يشرعون بالتفكير بماهية المفرّ من تلك الحالة حيال سماعهم لها.

ونظراً لتشقق السماء من كلّ جانب، فإنّه يظهر فيها ما يشبه الأبواب بل تصبح هي وكأنّها أبواب، يقول –سبحانه وتعالى– في ذلك: "**وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا**"[4]. وجاء التعبير في هـذه الآية بقوله :" **وَفُتِحَتِ** " دون انشقت ، وفي هذا مناسبة لذكر لفظ " **أَبْوَابًا**" ،وفي قولـه :" **أَبْوَابًـا**" للمبالغة في كثرة الأبواب المفتوحة، وهذه الصورة توحي بكثرة الملائكة التـي سـتتنزّل مـن السماء.

---

[1] الفرقان: آية25.

[2] الطور: آية9.

[3] المعارج: آية8.

[4] النبأ: آية19.

وتبدو السماء يوم القيامة بما فيها بهذه الأحداث وكأنّها نزعت وأزيلت من مكانها، يقول الله تعالى: "**وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ**"[1] .أيّ: "إذا أزيلت ونزعت من مكانها كما ينزع الجلد عن الشاة"[2].فالتعبير بقوله " **كُشِطَتْ** " توحي لمن يسمعها بالحركة المتتالية التي يتخللها أصوات وألوان متنوعة . فهي صورة يحتار الناظر إليها .واستخدام صيغة الماضي لوقوع الحدث في المستقبل فالصورة تجعل المتلقي يشعر بالألم جرّاء سماع هذا الحدث.

أمّا الشمس التي تشرق كلّ صباح، فتغمر الأرض بضوئها ونورها، وتمدّ الخلائق بالطاقة التي لا غنى عنها للحياة، فإنّ ضوءها يذهب، كما قال تعالى: "**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**"[3]، فمعنى قوله تعالى: " **كُوِّرَتْ** " " جمع بعضها إلى بعض ثمّ لفّت فرُمي بها، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها"[4].

وتشير الصورة إلى أنّ أجزاء الكون مطواعة لله تعالى، كما أنّ صيغة الفعل الماضي" **كُوِّرَتْ** " إشارة إلى أنّ التكوير سيتحقق يوم القيامة .

وأمّا القمر الذي نراه في أول كلّ شهر هلالاً، ثمّ يتكامل ويتنامى، حتى يصبح بدراً جميلاً يؤنس المسافرين في الليل، فإنّه يخسف ويذهب ضوؤه، قال تعالى: "**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ* وَخَسَفَ الْقَمَرُ**"[5]. فالآية تبيّن صورة الدهشة الشديدة التي تتملّك مشاعر الناس تجاه مشهد القيامة. ونلحظ انبعاث الإيقاع في حرف "الراء" في فواصل الآيتين، ممّا يكسب النص دلالة تشدّ الأسماع وتبقى متعلّقة في الذهن، لتصبح صورة حيّة ماثلة في الوجدان.

أمّا تلك النجوم المتناثرة في قبة السماء الزرقاء، فإنّ عقدها ينفرط فتتساقط من مواضعها وتتناثر لقوله تعالى: "**وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ**"[6]. " فانتثار الكواكب مستعار لتفرّق هيئات اجتماعها

---

(1) التكوير: آية11.

(2) الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، المجلد 3، ص524.

(3) التكوير: آية1.

(4) ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**، جزء4، ص564.

(5) القيامة: الآيات 7-8.

(6) الانفطار: آية2.

المعروفة في مواقعها ، أو مستعار لخروجها من دوائر أفلاكها وسموتها فتبدو مضطربة في الفضاء "[1] . فدلالة صوت "الثاء" جاء لمعنى التفريق والانتشار.

وقوله تعالى: "وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ"[2]، والانكدار: الانتشار، وأصله في لغة العرب: الانصباب[3]. وفي قوله " انْكَدَرَتْ " إشارة إلى تغيّر لونها ، فالصورة كناية عن ذهاب ضوئها .

وقد أخبرنا –سبحانه وتعالى– أنّه قد تعهد بإعادة السموات والأرض إلى سيرتها الأولى في صورة جديدة لم يألفها الإنسان ، وذلك بقوله: "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ"[4]. وهكذا ستطوى السموات يوم القيامة كما تطوى صفحات الكتاب. وتكشف ملامح الصورة عن تغيير مواقع موجودات السماء كما تتغير مواقع أطراف الورقة حين تُثنى، وتكشف كذلك عن إعادة الصورة المماثلة للخلق ممّا يظهر طواعية جميع الأشياء في ذلك اليوم لإرادة الله وحكمته .

وهكذا ينتهي كلّ شيء، وإذا الكون الذي ألفه الإنسان وتعايش معه قد طوي وتغيّرت أوصافه ليحلّ محلّه عالم جديد لم يألفه: "يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ"[5].

*مشاهد الأرض يوم القيامة:

إنّ الأرض في الحياة الدنيا تنهض وتزدهر حتى يعتقد البشر أنّهم يسيطرون عليها بإمكانياتهم المادية والعلمية، وأنّها على أيديهم تنهض نهضة عمرانية كبرى، وتأخذ في التقدم والتزيّن حتى ليخيّل إليهم من تقدمهم العلمي والمادي أنّهم قادرون عليها ويغيّرون ويبدلون فيها، لكن سرعان ما ينتهي هذا الجمال وهذا التقدم، وسرعان ما تذهب هذه الزينة وهذه النهضة،

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء31، ص140.

[2] التكوير: آية2.

[3] انظر: ابن كثير: **تفسير القرآن الكريم**، جزء4، ص565.

[4] الأنبياء: آية104

[5] إبراهيم: آية48.

وتصير كالحصيد على أثر هزات عنيفة مؤثرة تعتريها يوم القيامة بإرادة الله –سبحانه– إذ يقول: "**حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**"[1].فالصورة في هذا السياق صورة مركبة حيث شبه حال الحياة في سرعة زوالها بعد أن كانت مبهجة لأصحابها بحال نبات الأرض الذي كان نضراً ثمّ مصيره إلى الحصاد ، وهي توحي بحتميّة انقضاء الأشياء في زمن ما .

وفي قوله " **أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا** " على سبيل الاستعارة المكنية ، حيث شبّه الأرض بالمرأة التي تتزين بأجمل الزينة من ثياب ملونة وحليّ .وفي التعبير " **أَتَاهَا أَمْرُنَا** " إشارة إلى حكم الله النافذ في الكون . وفي قوله " **لَيْلًا أَوْ نَهَارًا** " إشارة إلى عموم الزمن ، ففيه تنبيه للسامع إلى أهمية استشعار قدرة الله تعالى .

إنّها صورة يوم القيامة، حيث زلزلة عنيفة رهيبة، وصيحة قوية تزلزل الأرض ومَن عليها، فإذا بالأرض الثابتة ترتجف وتتزلزل وتلفظ وتنفض ما في جوفها، وتخرج ما يثقلها من أجساد وأشياء كثيرة مما حملته طويلاً وكأنّها تتخلّص من هذه الأثقال التي طال حملها لها! يقول تعالى: "**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا*يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**"[2]. فهي صورة جامعة لموجودات الأرض الداخلية، تلقي على الحسّ معاني الرهبة مما سيُشاهد من أشياء لم يألفها الناس.

وكما يؤكد القرآن الكريم على مثل هذه الصورة عندما يتحدث على أنّ الأرض يوم القيامة تزداد سعة بإزالة جبالها، وتصير مستوية لا بناء فيها ولا جبال تذكر، وأنّها تلقي ما في بطنها من الموتى والكنوز والمعادن وتتخلى عنها، وكلّ ذلك امتثالاً وطاعة لأمر ربّها إذ يقول سبحانه وتعالى: "**وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ**"[3]. وفي تكرار الأفعال الماضية إشارة إلى التأكيد على تحقيق وقوع هذه الأحداث يوم القيامة.

---

[1] يونس: آية24.

[2] الزلزلة: الآيات1–5.

[3] الانشقاق: الآيات 3–5.

ويخبرنا –سبحانه وتعالى– عن صورة أرضنا الثابتة، وما عليها من جبال راسية ثابتة، حيث تُحمل يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة، إذ يقول:" **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ *وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**"[1]. والتعبير " **حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ**" بمعنى" أزيلت من اماكنها وأبعدت إلى مداراتها ، فشبهت هذه الحالة بحمل الحامل شيئاً ليلقيه على الأرض"[2]. وفي اختيار اللفظ "**دَكَّةً** " كناية عن دقّها وتفتيتها ، حيث تشيع في الصورة معاني الاستغراب لتحويل هذه المخلوقات العظيمة إلى شيء حقير، ففيها دلالة على عظيم قدرته تعالى ، كما نلمح في الكلمة دلالة حركية وصوتية . وفي تكرار الأفعال الماضية المبنية للمجهول في " **نُفِخَ** " و " **حُمِلَتِ** "و" **دُكَّتَا** " إشارة إلى وقوع هذه الأحداث يوم القيامة .

ويقول أيضاً: "**كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا**"[3]،جاء اللفظ " **دَكًّا**" في هذا السياق مؤكداً حيث يخالف عمّا جاء في الآية السابقة .ولا شك أنّ في تتابع أصوات اللفظين دلالة واضحة على الحركة والأصوات المتتابعة، فإيقاع الحروف الصوتية يُوقع على النفس ذبذبات صوتية توقظ الحواس والوجدان تجاه الدلالات المقصودة ،ويستشعر المرء وهو يتابع هذه الصورة الخوف من ذلك المشهد قبل حدوثه.

وعند ذلك تتحول هذه الجبال من صورتها الصلبة القاسية التي كانت أوتاداً للأرض مخافة أن تزول إلى صورة رمل ناعم نتيجة الرجفة التي تصيب الأرض، كما قال تعالى: "**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا**"[4] أيّ تصير الجبال ككثبان الرمال، بعد أن كانت حجارة صماء. ففي استخدام صيغة المضارع "**تَرْجُفُ**" للدلالة على تكرار واستمرار هذا الوصف، ففيه دلالة حركية .أمّا الماضي الناقص "**كَانَتِ**" لوقوع الحدث في الزمن المستقبل ، وقد جرى المخالفة في طبيعة هذه الأفعال؛ لأنّ " صيرورة الجبال كثباً أمر عجيب غير معتاد ،فلعله يستبعده السامعون ، وأمّا رجف الأرض فهو معروف ، إلا أنّ هذا الرجف الموعود به أعظم ما عرف جنسه "[5].إنّها صورة شاخصة يصعب على الخيال استيعابها وتصورها.

---

[1] الحاقة: الآيات 13–15.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء30، ص125.

[3] الفجر: آية21.

[4] المزمل: آية14.

[5] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء30، ص272 .

ويتجلى هذا المشهد الرهيب. فإذا الجبال الراسية الراسخة قد نسفت من جذورها وتفتت ذراتها فأصبحت كالرمل، وإذا هي قاع بعد ارتفاع: "**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**"[1]. ففي التركيب "**يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**" تأكيد على حدوث الصورة ، وفي أصوات هاتين الكلمتين معنى الانتشار وهذا يتلاءم مع صورة الجبال. وقد أُكد الفعل بالمصدر "**نَسْفًا**" للدلالة على غرابة هذا المشهد وخروجه عن المألوف.

وقد أخبر الله تعالى في موضع آخر أنّ الجبال تصبح كالصوف المنتوف تتقاذفه الرياح بعد أن كانت ثابتة راسخة في الأرض كما قال تعالى: "**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ**"[2]. "ووجه الشبه "بالعهن" تفرق الأجزاء، فإيثار العهن بالذكر لإكمال المشابهة؛ لأنّ الجبال ذات ألوان"[3] وفي التعبير دلالة حركية خفيفة لكنّها ممتدة.

والقرآن يرسم صورة أخرى حيث يُزيل هذه الجبال عن مواضعها، ويحرّكها من أماكنها ثمّ تختفي وتتحول إلى سراب خادع، إذ يقول –سبحانه– :" **وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا**"[4]، ويقول – أيضاً–: " **وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ**"[5].وقد استخدم السياق صيغة الفعل الماضي المبني للمجهول " **سُيِّرَتِ** " إشارة إلى تحقيق الحدث يوم القيامة بقدرته سبحانه ، والصورة مشحونة بدلالة حركية من خلال حركة الجبال وحركة السراب .

ثمّ بيّن –سبحانه وتعالى– حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها، إذ يقول: "**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً**"[6] أيّ "وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان، فقد قلعت جبالها وهُدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة"[7]. فقد اختير هاهنا الفعل المضارع " **نُسَيِّر** " دلالة على الاستمرار والتجدد في الحدث ، والخطاب في قوله: "**وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً**" موجّه لكلّ من يشاهد ذلك المشهد .

---

[1] طه: الآية105.

[2] القارعة: آية5.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء30، ص149.

[4] النبأ: آية20.

[5] التكوير: آية3.

[6] الكهف: آية47.

[7] الصابوني: **صفوة التفاسير**، مجلد2، ص194.

وهكذا تتحول الصخور إلى غبار متفرق متطاير في الهواء بعد أن تتفتت الجبال حتى تصبح كالدقيق المبسوس، يقول الله تعالى: "**وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا**"[1]. وقد جاء قوله "**هَبَاءً مُنْبَثًّا**" مناسباً للتعبير السابق "**وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا**". وفي بعض أصوات الكلمات كالسين والثاء مثلاً ما يؤكد تلك الصورة. وقد عبّر بالمصدر "**بَسًّا**" ليؤكد فعل البسّ .

وما يُلفت المتلقي هنا توالي حرف المد "الألف" في فواصل الآيات، فهو يبعث في الصورة النغم والإيقاع المؤثر في الحس والنفس، فهذه الصورة ممّا تهتز لها المشاعر، وتستجيب لها الحواس، وتتملّك القلوب بالخضوع والخشوع، وهنا تكمن جماليات اللغة في التعبير القرآني.

وأمّا البحار فإنّها ستتفجّر ويختلط الماء العذب بالمالح ويزول البرزخ الحاجز بينهما كما أخبرنا الله تعالى: "**وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ**"[2]، كما أخبرنا –سبحانه وتعالى– عن صورة أخرى للبحار تشتعل ناراً، إذ يقول: " **وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**"[3]، ويقول أيضاً :" **وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ**"[4]، وجاء في تفسير القرطبي عن ابن عباس –رضي الله عنه– أنّ " **سُجِّرَتْ** " بمعنى "أوقدت، يحتمل أن تكون جهنم في قُعور من البحار، فهي الآن غير مسْجورة لقوام الدنيا، فإذا انقضت الدنيا سُجرت، فصارت كلّها ناراً يدخلها الله أهلها. ويحتمل أن تكون تحت البحر نار، ثَمّ يوقد الله البحر كلّه فيصير ناراً"[5]. وإذا دققنا النظر في السياق نلاحظ أنّه استخدم التعبير " **سُجِّرَتْ** " بالتضعيف مع صيغة الجمع "**الْبِحَار**" ، والتعبير "**الْمَسْجُور**" بالتخفيف مع صيغة المفرد "**الْبَحْر**". وفي التعبيرين دلالة حركية وصوتية تُحاكي الذهن، وهذا من بلاغة الأسلوب اللغوي في التعبير القرآني.

ففي يوم القيامة، سيكون مشهد الانقلاب التام لكلّ موجودات الكون، وستكون الثورة الكاملة والممتدة لكلّ الأجرام السماوية والأرضية، سيتغير نظام الكون ونوامسيه التي عهدناها في الحياة الدنيا، وستنقلب حقيقة كلّ الكائنات، وهي حقيقة أكبر وأعظم من أن ندركها بمشاعرنا وتصوراتنا، فهي حقيقة لا يعلم ماهيتها إلا الله – عزّ وجلّ– .

---

(1) الواقعة: الآيات5–6.

(2) الانفطار: آية6.

(3) التكوير: آية3.

(4) الطور: آية6.

(5) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، الجزء19، ص173.

إنّ المشاهد التصويرية للسماء والأرض يوم القيامة مشاهد مروّعة مفزعة، وهي مشـــاهد ترتسم في الطبيعة الصامتة بصور شاخصة يهتز لها الوجدان ، وهي تتجلى في نهاية صـــورها في انخفاض أقدار كانت رفيعة في الأرض، وارتفاع أخـــرى كانـــت خفيضـــة، حيـــث تختـــل الاعتبارات والقيم، ثمّ تستقيم في ميزان الله وعدالته: "إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ *خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ"[1].

فالتعبير القرآني في مشاهد السماء والأرض يوم القيامـــة يضـــع المتلقـــي فـــي صـــورة استحضار تلك المشاهد في ذلك اليوم ، فجميع الصور مشحونة بالدلالات الحركيـــة والصـــوتية التي تثير الخوف والرهبة في النفس ، وتحفّز الخيال لتخيّل تلك المشاهد . وممّا زاد من دلالـــة تلك الصور وإبرازها اختيار صيغة الفعل الماضي ؛ إشارة إلى تحقيـــق وقـــوع الحـــدث فـــي المستقبل.

[1] الواقعة: الآيات 1-3.

الفصل الثالث

السماء والأرض: دراسة فنية

مدخل ..

التصوير الفني في القرآن الكريم .

المبحث الأول: التعبير بالحقيقة .

المبحث الثاني: التعبير بالمجاز.

المبحث الثالث: أساليب التعبير الخبري والإنشائي.

المبحث الرابع: التعبير بالصورة البلاغية:

ـ التشبيه.

ـ الكناية.

السماء والأرض: دراسة فينة

التصوير الفنيّ في القرآن الكريم:

إنّ القرآن الكريم معجزة الله في خلقه، نزل به الوحي الأمين، على رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي تعلّمه وعلّمه للناس، فكان يتلو عليهم آياته الباهرة، فكان منهم من يلين قلبه، ومنهم من يقشعر بدنه، ومنهم من ينعصر فؤاده، ولا شك أنّ سبب ذلك يرجع إلى أسلوب القرآن، وطريقة نظمه وبلاغته، فعبارات القرآن فيها من الفصاحة والبلاغة، والحقيقة والمجاز، والتشبيه والاستعارة والكناية، ومن زينة لفظية، وحلية معنوية، ما يجعل الكلام هادئاً مريحاً في مواقف اللين، وعنيفاً صارخاً في مواقف العنف؛ لأنّه يخاطب في البشر قلوبهم وأفئدتهم، ومشاعرهم وأحاسيسهم، كما يخاطب عقولهم وألبابهم.

ويستطيع الدارس أن يتلّمس الصورة الجمالية في النصوص المقروءة، ويميّز بين نماذج إبداعية موهوبة تنفذ إلى مشاعره وعواطفه، وأخرى لم تلامس سوى أذنيه "إذ إنّ التصوير عملية إبداعية خلاقة تُضفي على الموضوع المصوَّر ما تملكه الذات المصوِّرة من خيال مبدع بحيث تمنح له حرية التصرف في شكل الشيء المصوَّر وأوصافه وملامحه وتفاصيله، وحرية الإضافة إليها أو الحذف منها، وكذلك حرية التعديل والتغيير وفق إرادة المصوِّر المبدع ومشيئته ورغبته، وبما يتوافق مع أهدافه ويتواءم مع غاياته: شكلية كانت أم موضوعية، جمالية أم فكرية، مادية أم معنوية"[1]. فبدون التصوير يصبح التعبير جامداً، ضعيف التأثير، بعيداً عن الجمال، لذا فقد خاطب القرآن الكريم النفس البشرية بمنطق التصوير.

---

[1] يونس، عيد سعد: **التصوير الجمالي في القرآن الكريم**، ط1، عالم الكتب، 1427هـ، 2006م، ص123.

إنّ الصورة الفنية في القرآن الكريم حافلة بأساليب التأثير والاستمالة والإقناع، ودراسة هذه الأساليب "تؤدي بدورها إلى فهم الصورة القرآنية على أنّها طريقة في الإقناع، تتوسل بنوع من الإبانة والتوضيح وتعتمد على لون من الحجاج والجدل، وتحرص على إثارة الانفعالات في النفوس، على النحو الذي يؤثر في المتلقي، ويستميله إلى القيم الدينية السامية التي يعبّر عنها القرآن الكريم"[1].

ونجد أنّ التصوير من أهم أساليب القرآن الكريم، فهو ليس مجرد بصمة جمالية تُثبت في موقع ما، بل هي طريقة أداء شاملة ومتكاملة، "إنّ التصور هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فليس هو حلية أسلوب، ولا فلته تقع حيثما اتفق. إنّما هو مذهب مقرر، وخطة موحدة، وخصيصة شاملة، وطريقة معينة، يَفتنُّ في استخدامها بطرائق شتى، وفي أوضاع مختلفة"[2].

وأمّا مجالات التصوير الفني في القرآن فهي المعاني الذهنية، والحالات النفسية، والحوادث، والمشاهد، والنماذج الإنسانية، والطبائع البشرية، "فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة"[3].

وتصوير القرآن الكريم –بهذا المعنى– هو تصوير لمشاهد الكون بكلّ ما فيها، يضعها القرآن أمام الإنسان، ويبث روح الحياة فيها، فإذا بها مشاهد متحركة وناطقة، تتجسد أمامه بكلّ تجلياتها. ولعلّ هذا ناشئ عن الربط المحكم والقوي بين الألفاظ القرآنية ودلالاتها المعنوية.

---

[1] عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، 1983، ص332.

[2] قطب، سيّد: **التصوير الفني في القرآن الكريم**، ط5، دار الشروق، 1399هـ، 1979م، ص33.

[3] المرجع السابق :ص32.

وينبض التصوير في القرآن الكريم بأشكال عدة، " فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل، وكثيراً ما يشترك الوصف، والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان"[1]. وفي هذه الأشكال من أسرار الإعجاز القرآني الشيء الكثير.

والقرآن الكريم في عرضه للصور الفنية وما يقابلها من صور أخرى تتقابل معها في الشكل والمضمون، يستخدم أسلوباً بلاغياً معتمداً على الصورة، "فهو يعرض جميع القضايا الكبرى في هذا الوجود بأسلوب التقابل حين يجمع في الطريقة بين الشيء وضده، والمعنى ونقيضه"[2]. وبذلك تصبح الصورة واضحة جليّة أمام القارئ، فهي تحرك فيه جوانب عدة وتُشرك فيه أكثر من حاسة إذ "يقوم الأسلوب التصويري على لغة البصر والبصيرة، لذلك كان يعكس دلالات الحسن والمعنى... وقد عالج الأسلوب القرآني هذا المثال، أو أنّ هذا الأسلوب تنازعه التعبير القرآني ليحمل دلالات مؤثرة وأكثر إيصالاً للقلب والعقل وترسيخاً في الفكر والنفس من غيره"[3]. وقد نوّع القرآن الكريم في أساليبه البلاغية، فاختار لكلّ موضوع وفكرة لوناً خطابياً بلاغياً يناسبه. وهكذا "يتطور أسلوب الخطاب من مجرد خطاب يعتمد لغة محددة في قوالب ثابتة إلى تفاعل متنام يرتقي بالصورة المفردة من خلال علاقتها مع الصور الأخرى، إلى تركيب فني متكامل، يعطي الخطاب البلاغي مفهوماً أعمق"[4].

ولا شك في أنّ القرآن الكريم يحفل بالكثير من مواطن التصوير الفني من خلال إعجازه اللغوي وإبداعاته البلاغية، عندما استخدم ألفاظاً معروفة في معانٍ جديدة غيّرت من مدلولاتها الأولى، وجعلتها تمتاز بجمال ذي إيقاع وجرس، "والقرآن الكريم عندما خاطب الإنسان بهذا

---

[1] قطب، سيّد: **التصوير الفني في القرآن الكريم**، ص33.

[2] بالطاهر، بن عيسى: **المقابلة في القرآن الكريم**، ط1، دار عمّار، 2000م، ص213.

[3] عبدالله، محمد صادق حسن: **جماليات اللغة وغنى دلالاتها**، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1993م، ص246.

[4] عودة، خليل: **مستويات الخطاب البلاغي في النص الشعري**، مجلة النجاح للأبحاث، المجلد13، عدد2، 1999م، ص428.

الأسلوب الفني المعجز الذي يحرك كلّ مكوناته نحو تأمل الطبيعة، إنّما كان يوجه إلى الإنسانية دعوة ثنائية مزدوجة، فهي دعوة إلى التأمل العلمي والحدس الجمالي- إبداعاً واستمتاعاً- في وقت واحد، وهي دعوة إلى الفنان الذي يعاين ويلمس وينظر ويسمع فيهتز فؤاده وينبض قلبه عشقاً وهياماً، وحدس مشرق موحٍ ينقل كلّ أحاسيسه ويترجمها إلى أثر فني جميل "[1].

ومن منطلق هذا الفهم للتصوير الفني في القرآن الكريم، سنقوم بدراسة الصورة الفنية في صورتي السماء والأرض، لأن قصر التصوير على صورة معيّنة، أو لون خاص، يُخرج آيات كثيرة عن طريقة التصوير، أو يُغفل ما فيها من تصوير، لا سيّما وأنّ أسلوب القرآن الكريم ولغته تتسع للكثير من الإشارات والتعابير الفنية التي تجعل من القرآن جمالاً متجدداً، ومعيناً لا ينضب، ونوراً لا ينطفئ.

[1] يونس، عيد سعد: **التصوير الجمالي في القرآن الكريم**، ص62-63.

المبحث الأول: التعبير بالحقيقة.

الحقيقة والمجاز من المسائل الكبيرة والمهمّة التي عُني بها علماء البلاغة، لا سيّما وأنّ من تلك المسائل تتفرع قضايا كثيرة في علم البيان، ذلك العلم الذي يرد فيه المعنى الواحد في تراكيب وأحوال مختلفة.

وقد عرّف أحمد بن فارس الحقيقة بقوله: "الحقيقة هي الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم ولا تأخير كقول القائل: أحمد الله على نعمه وإحسانه، وهذا أكثر الكلام "[1].

ويعرّفها عبد القاهر الجرجاني بقوله: "كلّ كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره. وهذه عبارة تنتظم الوضع الأول، وما تأخر عنه، كلغة تحدث في قبيلة من العرب أو في جميع العرب، أو في جميع الناس مثلاً، أو تحدث اليوم. وإنّما اشترطت هذا كلّه لأنّ وصف اللفظة بأنّها حقيقية أو مجاز حكم فيها من حيث إنّ لها دلالة على الجملة لا من حيث هي عربية أو فارسية أو سابقة في الوضع أو محدثة مولدة"[2].

ويعرّف السكاكي الحقيقة : بأنّها الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق[3].

أمّا ضياء الدين الأثير فقد تحدّث عن موضوع الحقيقة بقوله: "الحقيقة اللغوية: هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على المعاني، وليست بالحقيقة التي هي ذات الشيء، أيّ نفسه وعينه؛ فالحقيقة اللفظية إذن هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة[4].

---

(1) ابن فارس ،أبو الحسين أحمد: **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهما**، تحقيق وتقديم: مصطفى الشّويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر: بيروت– لبنان، 1963م– 1382هـ، ص197.

(2) الجرجاني، عبدالقاهر: **أسرار البلاغة**، تعليق: أحمد مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص396–397.

(3) السكاكي، سراج الملة والدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: **مفتاح العلوم**، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية: بيروت– لبنان، 1403هـ– 1983م، ص359.

(4) ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبدالكريم: **المثل السائر في أدب الكاتب والمشاعر**، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، جزء1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي بمصر، 1358هـ– 1939م، ص59.

وينبغي العدول عن المجاز إلى الحقيقة إن لم يكن فيه زيادة فائدة عليها، وفي ذلك يشير ابن الأثير حين يقول: "واعلم أنّه إذا ورد عليك كلام يجوز أن يحمل معناه على طريق الحقيقة وعلى طريق المجاز باختلاف لفظه؛ فانظر: فإن كان لا مزيه لمعناه في حملة على طريق المجاز، فلا ينبغي أن يحمل إلا على طريق الحقيقة؛ لأنّها هي الأصل والمجاز هو الفرع، ولا يعدل عن الأصل إلى الفرع إلا لفائدة" [1].

وقد تحدث علي البطل عن الحقيقة عندما بيّن نهوض النقد الحديث بمفهوم الصورة الفنية وتجاوز قصورها المعتمد على التشبيه والاستعارة، "فلم تعد الصورة البلاغية هي وحدها المقصودة بالمصطلح، بل تخلو الصورة –بالمعنى الحديث– من المجاز أصلاً، فتكون عبارات حقيقية الاستعمال ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب"[2].

ومن خلال هذه التعريفات والوقفات حول مفهوم الحقيقة نستطيع القول: إنّ التصوير بالحقيقة يُراد به المعنى القريب الذي يُفهم مباشرة من الكلمة، وإنّ دلالة الكلمة على ما وُضعت له في الحقيقة قابلة لأن تحمل معاني أخرى وتتلون بدلالات جديدة متنوّعة تشير إلى فكرة ما أو ترمز إلى صورة أخرى، وأنّ هذه المعاني الجديدة تُفهم من خلال سياق الكلام ومجاورة الكلمات بعضها لبعض ضمن نسق معيّن. فالكلمة في الأسلوب البلاغي عامة، وفي التعبير الحقيقي خاصة مثقلة بالكثير من الألوان والظلال التي تشدّ القارئ، وتجعله يتأملها ثمّ يتفاعل مع جزئياتها.

فالتصوير بالحقيقة –من منطلق هذا الفهم– عنصر من عناصر الصورة الفنية، بل هو جوهر التعبير الفني، فيه من الخيال الموحي، والعاطفة الأخّاذة التي تضفي على النص روعة وجمالاً، وكذلك تلك الأفكار المتجددة النابعة من وراء العبارات.

---

[1] ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبدالكريم: **المثل السائر**، ص63.

[2] البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي** ، ص25.

والأديب لا يلجأ دائماً إلى الصور البلاغية المألوفة ، بل نجده يبدع الكثير من الصور المؤثرة المليئة بالحركة، ولا ضير في ذلك، فهو يملك الكثير من وسائل التصوير "لأنه دائماً يحاول أن يقترب باللغة من روحها البدائية الأولى، وكلما اقتربنا من النصوص الفنية حديثة العهد ببكارة اللغة الأولى وجدنا التصوير فيها أغلب من التجريد العقلي"[1].

ودلالة الألفاظ على معانيها الحقيقية جليّة في آيات القرآن الكريم، فحين يتحدث القرآن الكريم عن قضايا العقيدة الكبرى، وعن المكذبين الذين كذّبوا بما أنزل الله تعالى، يقرّر أن الله سبحانه وتعالى –هو الخالق المبدع الذي أنشأ الأكوان وفطرها ، يقول تعالى: " **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"[2].

وقد سميت سورة فاطر بهذا الاسم "لذكر هذا الاسم الجليل، والنعت الجميل في طليعتها، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثال سابق، ولما فيه من التصوير الدقيق، المشير إلى عظمة ذي الجلال، وباهر قدرته، وعجيب صنعه"[3].

وقد تميّز سياق الآية الكريمة بوصف الله –سبحانه– بأنّه " فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" "هذا الاستفتاح الأخاذ هو المقدمة للرد على المكذبين، وهو استفتاح يروّع الحس لأول وهلة ويهز الوجدان هزّاً، ولا شك أنّ ذكر الملائكة هنا ممّا يشارك في إيجاد هذا الجو الخاشع بالحمد لله، المتطلع إلى قدرة الله المعجزة التي لا يحد قدرتها شيء، ولكن الصورة في ذاتها، والجو الذي تثيره في النفس، هي صورة أخّاذة، تحرك الوجدان لينفعل بقدرة الله"[4]. وتركيز الصورة على خلق الملائكة – كجزء من خلق هذا الكون بهيئات متعددة، بعضهم بجناحين، وبعضهم بثلاثة أجنحة، وبعضهم بأربعة، يجعل المتمعّن في هذه الصورة يتصورها ويرسم لها صوراً ذهنية، لا

---

[1] البطل، علي: **الصورة الفنية في الشعر العربي**، ص26.

[2] سورة فاطر: آية 1.

[3] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد2، ص563.

[4] قطب، محمد: **دراسات قرآنية**، ط2، دار الشروق، بيروت، 1400هـ، 1980م، ص215.

سيّما وأنّ الملائكة خُلقت من نور، وهذا النور يهبط من السماء إلى الأرض ثمّ يصعد، مسبحاً بحمد الله ومثنياً عليه، إنّها صورة نورانية تزداد إشعاعاً أكثر فأكثر فينفعل معها الوجدان، "إنّما تنفسح الصورة فتشمل "الخلق" كلّه، والقدرة التي تزيد في "الخلق" بما تشاء، لا تحدّها حدود، ولا يقفها عجز، فإذا وصل الوجدان مع السياق إلى قوله تعالى: "**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**" كان قد تهيأ بالفعل لتلقي هذه الحقيقة الهائلة، والانفعال بها بما تستحقه من شعور بعظمة الخالق وجلاله، التي تستدعي أن يتوجه القلب لله بالحمد، ويتوجه بالطاعة، ويتوجه بالإيمان"[1].

وقد استخدم التعبير اسم الفاعل "فاطر" في الربط بين السماء والأرض، كما استخدم اسم الفاعل "جاعل" عند ذكر الملائكة، وفي هذين الاستخدامين لفتة بلاغية تدل على عظمة الله تعالى وقدرته. ومعنى كلمة فاطر هنا "ابتدأه"[2]، ثمّ جاء الربط بين الملائكة والرسل إشارة إلى وظيفة الملائكة في التبليغ . وكلّ هذه الدلالات جاءت بعيدة عن التعبير المجازي.

وإذا تأملنا قضية رفع السموات، والاستواء على العرش، وتسخير الشمس والقمر، وهي قضية حقيقية تؤكد على خلق السموات وما فيها من موجودات، إلاّ أنّ القرآن الكريم عالجها بطريقة التصوير بالحقيقة؛ للفت النظر إلى عظمة الله وقدرته الحقيقية، يقول تعالى: "**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**"[3] الكثير من الناس لا يتأملون هذه الصورة، ولا يستخلصون دلالاتها، فربما عائد ذلك إلى تآلفهم مع تلك المشاهد التي اعتادت أنظارهم عليها منذ نشأتهم الأولى "فابتداء الآية بلفظ الجلالة "**الله**" في معرض الردّ على إنكار الوحي ليس غريباً ولا مفاجئاً، إنّما يلفت حسَّنا- وحسَّ أولئك المنكرين كذلك- إلى جوهر القضية، وإلى سبب ذلك الإنكار. وقيام السموات مرفوعة بغير عمد حقيقة

---

[1] قطب، محمد: **دراسات قرآنية**، ص215.

[2] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "فَطَرَ" مجلد2، ص1108.

[3] سورة الرعد: آية2.

مشهودة، لكن الحس يتبلد عليها بدافع الإلف والعادة فلا يعود يأخذ منها دلالتها الحقيقية على عظمة الخالق التي لا تقف عند حدّ"[1].

وبعد أن عرضت الآية الكريمة الحقيقة الأولى المشهودة، تمضي في عرض الحقيقة الثانية وهي حقيقة استواء الخالق على العرش " **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** " ، وهذه حقيقة غيبية تلقي بظلالها من خلال دلالاتها، حيث توحي بالتمكن الكامل والسيطرة الكاملة على جميع المخلوقات.

وتمضي الآية في عرض الحقيقة الثالثة وهي تسخير الشمس والقمر، وهي حقيقة مشهودة للناظر إليها والمتدبر لحركتها، "والتعبير القرآني يزيل عنها إلفها، ويمنحها الجدة التي تجعلها تعطي للحس شحنتها، إنّه لا يقول إنّ الشمس والقمر يجريان، ولكنه يضعنا أمام حقيقة ينساها القلب الغافل فيتبلد عن دلالتها: "**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**" فهما لا يجريان، من تلقاء نفسهما كما يخيّل إلينا في حالة الغفلة والتبلد"[2]. فهذه الصورة إنْ دلّت على شيء فإنّها تدل على مدى استغراق الإنسان في غفلته عن حقائق الكون وصنع الخالق فيه!!، فينبغي له أن يُبقي حسّه يقظاً تجاه هذا الكون، متيقناً تمام اليقين أنّ الله تعالى يتدبر الكون في كلّ لحظة، وأنّه حاضرٌ دائماً في كلّ أحداثه.

ولا شكّ أنّ القرآن الكريم يعتمد على التصوير بالحقيقة؛ لإبراز خبايا الصورة، وتشكيل عناصرها، "والأسلوب القرآن يعتمد على كثرة الحقائق، وصحتها، ووضوحها، فالحقائق مع الكثرة والصحة، والوضوح تتلّون بلون الصورة، وتشكل عنصراً من عناصر الصورة الأدبية، ومن ثمّ تجيء نمطاً جديداً في مجال الإعجاز القولي"[3].

وهناك صورة أخرى مقابلة لصورة رفع السماء بدون أعمدة، تكشف عن براعة تصوير القرآن المعتمد على الحقيقة، وهي صورة الأرض التي تُعرض أمام حسّ الناس بموجوداتها التي تبهر عقولهم وتهز وجدانهم، يقول سبحانه وتعالى في ذلك: "**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ**

---

[1] قطب، محمد: **دراسات قرآنية**، ط2، ص151.

[2] المرجع السابق :ص152.

[3] عامر، فتحي أحمد: **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1976م، ص65.

وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[1] إنّ استخدام الألفاظ على حقيقتها في هذه الآية قد أسهم في تشكيل صورة خصبة، فمجيء اللفظ "مدّ" يُعطي أفقاً بعيداً في السعة بحيث لا نكاد نتخيّل حدوده، وهذا يتناسب مع الأرض كجوهر. أمّا التعبير باللفظ "جعل" فجاء مع ذكر متعلقات الأرض. كما أنّ الجمع بين الرواسي والأنهار وتنكيرهما إشارة إلى التكثير وإلى عظمة الله تعالى. "والخطوط العريضة في لوحة الأرض هي مدّ الأرض وبسطها أمام النظر وانفساحها على مداه. فهي ممدودة مبسوطة فسحة، هذه هي اللمسة الأولى في اللوحة، ثم يرسم خط الرواسي الثوابت من الجبال، وخط الأنهار الجارية في الأرض، فتتم الخطوط العريضة الأولى في المشهد الأرضي، متناسقة متقابلة"[2].

ولا يخفى على المتتبع لخطوط هذه اللوحة حين يقف عند فاصلة الآية " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" ما فيها من الأسرار العجيبة التي تلفت الأنظار، إلى ما جاء في الصورة من ظواهر دالة على عظمة الله، وهي حقائق من شأنها إثارة التفكير العميق في قدرته المبدعة في تدبر أسرار خلقه.

لنتأمل هذه الصورة التي تشكّلها اللغة الفنية التي لا تعتمد على رصد الواقع المجرد كما يبدو للوهلة الأولى، ولكن نجدها تثير الانفعال بطريقة تصويرية، يقول تعالى: " أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"[3] إذ نرى التناسق المحكم بين خيرات هذا الكون وطاقاته المبثوثة في سمائه وأرضه التي سخّرها للإنسان لتمكنه من العيش على الأرض، وبين إسباغ نعم الله الكثيرة الوافرة التي لا يُدْرَك مداها سواء أكانت ظاهرة منها أم مستترة. ويستوقفنا كذلك التعبير المجمّل للصورة "أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ" وكأنّ كثرة هذه النعم التي تسدّ حاجات الإنسان، وتعدد أشكالها، ثوب يكسو الإنسان بأكمله، ظواهره ومواطنه.

فاللافت في التعبير أنّه بعد كلمة " سَخَّرَ " تأتي كلمة " أَسْبَغَ " للدلالة على تعميم النعمة، لا سيّما وأنّ التعبير جمع بين السماوات والأرض لإبراز الصورة أكثر.

---

[1] سورة الرعد: آية3.

[2] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، ط10، مجلد4، دار الشروق، القاهرة، 1401هـ، 1981م، ص2045.

[3] سورة لقمان: آية20.

ومن التصوير المعتمد على التعبير بالحقيقة ما جاء في قوله تعالى: "**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**"[1] فالصورة هنا تكمن في مدى زينة الأرض التي أودعها سبحانه عليها من متاع وزخرف وأموال ونبات وغيرها، وفي النهاية التي ستؤول إليها هذه الزينة نتيجة أفعال العباد، "فالصورة هنا تقيم علاقات في تناسق وتناسب أساسها الإحساس بالجمال بين الإنسان وما يحيط به من مظاهر الكون، ولا بدّ من تصحيح تلك العلاقة إن شابها ما ينقص عراها"[2]، فالقرآن الكريم إذ يقيم هذه العلاقة الجمالية، " فإنّه استكمال للبناء النفسي والوجودي للإنسان يصحح علاقة الإنسان بذاته جسماً وروحاً، ويصحح علاقته بالظواهر الإنسانية الاجتماعية والحضارية"[3].

ويستوقفنا التعبير الدّال على عودة الأرض مجرّدة من تلك الزينة من خلال الألفاظ التي ترسم شدة المشهد وغرابتة ، "**وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا**" ونلاحظ أنّ "في التعبير صرامة، وفي المشهد الذي يرسمه كذلك، وكلمة " **جُرُزًا** " تصور معنى الجدب بجرسها اللفظي، كما أنّ كلمة "صعيداً" ترسم مشهد الاستواء والصلادة!"[4]. لذا فقد استخدمت الكلمات في مواقعها الحقيقية ولكنّها تحمل الكثير من الدلالات والمعاني.

ويرسم التعبير القرآني تصويراً حسيّاً عن طريق تجسيم المعنويات، فيقول –سبحانه وتعالى– بشأن ذلك: "... **إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ**"[5]. ونحن نقرأ هذه الآية يستوقفنا لفظ " **ضَاقَتْ**" إذ نتساءل : كيف تضيق الأرض بساكنيها على الرغم من اتساعها؟ وهل تُصبح في أحوال معينة محدودة المساحة حتى لا تستوعبهم؟ فلا بدّ أن يكون هناك مغزىً من هذا التعبير، إذ تُظهر الآية "حالة نفسية معنوية هي حالة التضايق والضجر والحرج، فيجسمها كحركة جثمانية، فالأرض تضيق عليهم، ونفوسهم

---

[1] سورة الكهف: الآيتان 7،8.

[2] عبدالرحمن، مروان محمد سعيد: **دراسة أسلوبية في سورة الكهف**، رسالة ماجستير، 2006، ص194.

[3] حجازي، محمد عبدالواحد: **الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم**، ط1،دار الوفاء ، الإسكندرية، مصر، 1998، ص61.

[4] قطب، سيد: في ظلال القرآن، مجلد4، ص2260.

[5] سورة التوبة: آية25.

تضيق بهم، ويستحيل الضيق المعنوي في هذا التصوير ضيقاً حسيّاً أوضح وأوقع"[1]. إنّه التناسق المعبّر بين أسلوب التعبير القرآني، وإيقاعه مع موضوعه والجو الذي يحيط به.

ويمضي التعبير في رسم نموذج باهر للمكابرة والعناد لأولئك الكافرين المكذبين، فيقول جلّ وعلا في شأنهم: "**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ**"[2]. فالآية تصور بالحقيقة كيفية صعود هؤلاء إلى السماء من باب يُفتح لهم فيها، وتضعهم في صورة هذا الحدث، فهم ينظرون بأمّ أعينهم إلى ذلك الباب المفتوح أمامهم، ويحسّون حركة صعودهم إلى السماء، لكنّهم مع ذلك ينكرون هذا المشهد المتحرك، فهي صورة شديدة تتناسب مع عنادهم البغيض.

ومن خلال هذه الصورة النابضة بالحركة نلمح اهتمام القرآن بهذا النوع من التصوير "أمّا أغلب الصور ففيها حركة مضمرة أو ظاهرة، حركة يرتفع بها نبض الحياة، وتعلو بها حرارتها، وهذه الحركة ليست مقصودة على مشاهد القصص والحوادث، ولا على مشاهد القيامة، ولا صور النعيم والعذاب، أو صور البرهنة والجدل، بل إنّها لتلحظ كذلك في مواضع أخرى لا ينتظر أن تلحظ فيها. هذه الحركة هي التي نسميها "التخييل الحسي"، وهي التي يسير عليها التصور في القرآن لبث الحياة في شتى الصور، مع اختلاف الشيات والألوان"[3].

والقرآن الكريم يعبّر بالحقيقة –كذلك– عند حديثه عن مشاهد يوم القيامة، فها هو يصوّر النفخة الأولى في ذلك اليوم، حيث فناء المخلوقات في السموات والأرض "**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ**"[4] إذ يركّز في تعبيره على استخدام الأفعال الماضية التي تصوّر المشهد تصويراً يتناسب مع طبيعته، "نلاحظ هنا أنّه استعمل الفعل الماضي "**نُفِخَ**" إشارة إلى تحقق وقوع الفعل، وكذلك استعمل الفعل الماضي "**صَعِقَ**" والصعقة بمعنى "غُشي عليه

---

[1] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن الكريم** ، ص67.

[2] سورة الحجر: الآيتان 14، 15.

[3] قطب، سيد: **التصوير في القرآن**، ص61.

[4] سورة الزمر: آية 68.

وذهب عقله من صوت يسمعه كالهدّة الشديدة وربما مات منهـا"[1]. إنّ هـذه الصـورة شاخصة حافلة بالحركة حتى لتتابعها العين بدقة، وتسمع لها الأذن بانتباه، ويسرح معها الخيـال حتى النهاية، "وهو مشهد رائع حافل، يبدأ متحركاً، ثم يسير وئيداً، حتى تهدأ كلّ حركة، وتسكن كلّ نأمة، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت، ورهبة الخشوع!!"[2].

ويظهر التصوير المعتمد على الحقيقة –أيضاً– من خلال حركة الجبال الراسخة ومنظـر الأرض المكشوفة في ذلك اليوم الرهيب، يقول تبارك وتعالى: "**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**"[3]. ونكاد نستشف من خلال هذا التعبير سير الجبال رغم رسوخها، وتبدي الأرض وبروز صفتها مكشوفة لا يسترها ساتر، فلا جبال فيها، ولا سهول، ولا أنهـار، ونكاد نتلمّس –أيضاً– صيغة المضارع "**تَرَى**" إشارة إلى استمرارية الرؤية وتجددها، ودلالة لفظ " **بَارِزَةً** " التي توحي بالرهبة، فبروز الأرض ها هنا بروز عام لكلّ موجوداتها لا سيّما أناسـها، حيث ستتكشف خباياهم، وستُفتح صفحات قلوبهم، ولا مجال في هذا المشهد المتحـرك لكـوامن الأسرار.

وعندما يتحدث القرآن عن أحوال الجن وعدم بلوغ أهدافهم، يستخدم طريقـة التصـوير بالحقيقة لعرض مشاهد محسوسة عنهم، كما في قوله تعالى: "**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا**"[4]. وأول ما نلحظ ها هنا استخدام التعبير للفظ "**لَمَسْنَا**" والمعنى: "طلبنا بلوغ السماء لاستماع كلام أهلها"[5]. فهذا التعبير يضم حشداً كبيراً من الدلالات المتحركة التي تختفي وراءه، ويرسم كذلك صورة حيّة للمشهد.

---

[1] ابن منظور: **لسان العرب**، مادة "صعق"، مجلد2، ص442.

[2] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد5، ص3062.

[3] سورة الكهف: آية47.

[4] سورة الجن: أية8.

[5] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص459.

إن استعمال اللغة على حقيقتها يشكّل مرتكزاً هاماً من مرتكزات الصورة الفنية، إذ "ليس المهم في ذلك السبيل الذي تسلكه الصورة، ولكن المهم هو قدرتها على التعبير الموحي ونجاحها في ترك الأثر والانطباع من غير مباشرة"[1].

وعملية التصوير المعتمد على الحقيقة ليس رصداً شكلياً، بل يتعدى إلى انصهار وتفاعل بين المتلقي وعناصر الصورة، من خلال الخيال الخصب الذي يتفاعل ويتسع؛ ليشارك في إبراز الجوانب الخفية فيها، عندها تتألق تشكيلات الصورة وتفرض حضورها.

والنتيجة التي نخرج بها من خلال تتبعنا لتصوير القرآن الكريم بالحقيقة في صفحتي السماء والأرض "أنّ الأسلوب الحقيقي في القرآن الكريم لا يقصد فيه إلى المعاني الأولى فقط، ولكن هذه المعاني الأولى قد تكون مثاراً لدلالات ثانية مبعثها تآلف الكلمات في اتساق حسن، وتأليف بديع، فتجئ الحقيقة محدودة واضحة، صحيحة في ثوب أدبي جميل، يوحي بالعظمة والتأمل ويضمن لهذه الحقيقة خلودها على مرّ الزمن"[2].

---

[1] أبو علي، محمد بركات: **فصول في البلاغة**، ط1، عمّان، دار الفكر للنشر والتوزيع، 1403هـ – 1983م، ص55.

[2] عامر، فتحي أحمد: **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، ص65.

المبحث الثاني: التعبير بالمجاز.

أشار ابن شيق القيرواني إلى ولوع العرب بالمجاز فقال: "والعرب كثيراً ما تستعمل المجاز، وتعده من مفاخر كلامها؛ فإنّه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات"[1].

وقد تعددت تعريفات المجاز عند البلاغيين، فقد عرّفه الجرجاني: "مَفْعَل" من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه. وإذا عُدل باللفظ عمّا يوجبه أصل اللغة وُصف بأنّه مجاز ،على معنى أنّهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وُضع فيه أولاً"[2]، والمجاز: "كلّ كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضع لملاحظة بين الثاني والأول فهو مجاز"[3].

وهو عند القزويني: "المجاز أصله مجوز، من جاز المكان، تعداه؛ لأنّ الإسناد تعدى مكانه الأصلي"[4].

وقسّم الجرجاني المجاز ضربين: مجاز عن طريق اللغة، ومردّ المجاز فيه إلى الكلمة المفردة، ومنه الاستعارة والمجاز المرسل، ومجاز عن طريق المعنى والمعقول ومردّ المجاز فيه إلى الجملة من الكلام من خلال أوصافها في التأليف والإسناد[5].

ولا بدّ لكلّ مجاز في اللغة من حقيقة له، ولكن أيّهما أولى بالاستخدام لتحقيق محاسن الكلام؟ ونحن نقول: أيّاً كانت اللفظة، حقيقية أم مجازية، فهي في النسق الموضوعة فيه باعثة للإيحاء والجمال، فربما نتأمل لفظة معتمدة على الحقيقة ونجد فيها ضآلتنا، وربما العكس، ولعلّ مرجع ذلك ملكة التذوق وجمال الطبع وسلاسته لدى المتلقي، لذا فالتعبير الحقيقي والمجازي كلاهما مكمن الرموز، ومنطلق لمعانٍ شتّى ودلالات أعمق.

---

(1) القيرواني، أبي علي الحسين بن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، جزء 1 ، ط4، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت– لبنان، ص1672.

(2) الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، ص438.

(3) المرجع السابق: ص398.

(4) القزويني، الخطيب: **الإيضاح في علوم البلاغة**، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، جزء1، ط3، المكتبة الأزهرية للتراث، 1413هـ، 1993م، ص82.

(5) الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، ص450–451.

أ- المجاز الاستعاري:

تُعد الاستعارة فنّاً من فنون المجاز اللغوي، وعلاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى البلاغي، وتختلف عن التشبيه بكونها تشبيهاً قد حُذف أحد طرفيه، وهي "أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً؛ وتدل الشواهد على أنّه أختص به حين وُضع، ثُمّ يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، ينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعاريّة"[1].

وللاستعارة دورٌ مهم في إثراء اللغة، ونقل التعبير الموحي، وتحفيز الصور التعبيرية الكامنة في النص فهي "تتصدر بشكل كبير الكلام الإنساني، إذ تُعد عاملاً رئيسياً في الحفز والحث، وأداة تعبيرية، ومصدراً للترادف وتعدد المعنى، ومتنفساً للعواطف والمشاعر الانفعالية الحادة، ووسيلة لملء الفراغات في المصطلحات"[2].

لقد التفت البلاغيون القدماء لأهمية الاستعارة كونها ركيزة أساسية في الصورة الشعرية، وعلى الرغم من ذلك نظروا إليها بحذر شديد على اعتبار أنّه "يظلّ ما في الاستعارة من شبهة التداخل والاختلاط في الحدود والمعالم مصدر ريبة تناوش عقول أشدّ المعجبين بها. وما كان واحد منهم يتقبلها إلاّ إذا تيقّن أنّ مخرجها مخرج التشبيه، وأنّها لا تخلّ بالمبدأ الذي يقوم عليه التشبيه، وهو مبدأ التناسب العقلي والمطابقة المادية"[3]، وعليه "أصبح يُنظر إليها على أنّها علاقة لغوية تقوم على المقاربة، شأنها في ذلك شأن التشبيه، لكنّها تتمايز عنه بأنّها تعتمد على الاستبدال أو الانتقال بين الدلالات الثابتة للكلمات المختلفة"[4].

ويُعطي الاستخدام الاستعاري مجالاً واسعاً لتعدد معاني الألفاظ، فهو يُستخدم في مختلف اللغات، حيث يمدّها بحصيلة هائلة من الألفاظ، إذ "تؤثر الاستعارة في مفهوم الثقافة اللغوية

---

[1] الجرجاني، عبد القاهر: **أسرار البلاغة**، ص35-36.

[2] أبو العدوس، يوسف: **الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأبعاد المعرفية والجمالية**، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1997م، ص7.

[3] عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، ص200-201.

[4] المرجع السابق: ص201.

ودلالتها، إذ إنّ اللغات المختلفة تعبّر عن أشياء، وعواطف، وأفكار معينة بواسطة استعارات متعددة الأشكال، ومتنوعة المصادر، ومن هنا فإنّ الصورة الاستعارية ربما تُساعد الذاكرة على التوسط في شكل العلاقة الترابطية بين الأفكار المتنوّعة، وتساعد على خلق استجابات خلاّقة نتيجة لخصائص تتميز بها الاستعارات، وهي: الإيحاء، والملاءمة، والابتكار والجدة، والتشخيص، ثم علاقة الصور الاستعارية بالخيال"[1].

وترجع أهمية الاستعارة في "أنّها طريقة من طرائق إثبات المعنى وتأكيده، وإدّعاء أنّ هذا قد أصبح ذاك دون أنْ يكون كذلك بالفعل، وأنّ المعنى الذي نحصّله من الاستعارة ليس هو المعنى الأصلي المزعوم، وإنّما معنى جديد، نبع من تفاعل كلا الطرفين اللذين يكوّنان الاستعارة"[2]. وللصورة الاستعارية أهمية كذلك في "قدرتها على الإيحاء والإيماء، واعتمادها على التلميح بدل التصريح، ويعني الإيحاء، تلك الطاقة المعنوية المتولدة من البنية الفنية للصورة الشعرية الجزئية في إطارها الكلي، وتعمل على توسيع رقعة الظلال التي تسبح فيها المعاني التي يريد الشاعر تصويرها أو بثّها"[3].

وبما أنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فإنَّ أسلوب الاستعارة موجود فيه بكثرة، إذ إنّ التعبير بالألفاظ التي دخلتها الاستعارة فيه تحدث تأثيراً يتداعى إليه القلوب والنفوس معاً، ومن هنا، سنقف عند جماليات الاستعارة التي تكشف صورتي السماء والأرض في القرآن الكريم، ولنذكر نماذج قرآنية لعبت فيها الاستعارة دوراً تفكيراً بارزاً، وذلك من خلال النسق القرآني الذي رسم المعاني والدلالات، وتفنن في عرض الصور البلاغية الموحية، وهيأ لها الظلال والألوان.

لنتدبر وعد الله –عزّ وجلّ– لعباده من خلال صورة بركات السماء والأرض الحاصلة لهم مع الإيمان والتقوى في قوله تعالى: "**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ**

---

[1] أبو العدوس، يوسف: **الاستعارة في النقد الأدبي الحديث**، ص223.

[2] عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، ص226.

[3] أبو العدوس، يوسف: **الاستعارة في النقد الأدبي الحديث**، ص225.

وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[1]، ومعنى فتح البركات عليهم: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها"[2]، وأيضاً "ليسرنا عليهم الخير من كلّ جانب، وقيل المراد بالبركات السماوية: المطر، وبالبركات الأرضية: النبات [3]، فقد جعل السماء أبواباً تُفتح، ولم يستخدم في الصورة بركة وإنّما "بركات" للتكثير، ثمّ جمع في الصورة بين السموات والأرض لشمولية البركات، ثمّ استخدم القرآن كلّه حجّة عليهم، فشملت الاستعارة صوراً ممثلة من الانفتاح والوصول أو الإرسال والتلقي. والبركات التي وعد الله –تعالى– بها مَنْ يؤمن ويتقي هي ذات ألوان شتى لا يحدّها حدود" وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كلّ مكان، التابع من كلّ مكان، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهي البركات بكلّ أنواعها وألوانها، وبكلّ صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، والتعبير القرآني يلقي ظلاله الفيض الغامر، الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات"[4].

لنتأمل التعبير الاستعاري البديع الذي يشعرنا بالحياة التي تدب في الأرض حين تأخذ زخرفها وتتزين، وذلك في قوله تعالى"حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ"[5]، ففي هذا التصوير "جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كلّ لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين"[6]، ونلاحظ في الصورة كلمة " أَخَذَتِ "، وهنا أعطت الأرض إرادة غير مسبوقة ثمّ بعد الأخذ يأتي لفظ "ازَّيَّنَتْ " ليكون الأخذ جمالياً نابضاً بشتى ألوان الحياة، والصورة بهذه الجزئيات تعكس صورة فنية تعجّ بالحياة والحركة، وتمتلئ بالجمال والسعادة، وذلك من خلال رسم الصورة المحسوسة بما يزيدها قوة وتأثيراً لها في النفس.

---

[1] سورة الأعراف: آية96.

[2] الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مجلد2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص98.

[3] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، جزء 9، ص10.

[4] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، مجلد3، ص1338–1339.

[5] يونس: آية24.

[6] الزمخشري، أبو القاسم جار الله: **الكشاف**، مجلد2، ص233.

لنتابع صورة الأرض الميتة اليابسة وكيف تتحول إلى كائن حيٍّ في قوله تعالى: "**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**"[1]، ففي التعبير استعارة حيث "شبه حال جدوبة الأرض وخلوها عن النبات، ثمّ إحياء الله تعالى إياها بالمطر، وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب، وإنبات كلّ زوج بهيج، بحال شخص كئيب كاسف البال رث الهيئة، لا يؤبه به إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها، تكلّف بأنواع الزينة والزخارف فيختال في مشيه زهوّاً، فيهتز بالأعطاف خيلاء وكبراً[2]"، وفي وقوله " **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**" استعارة تبعية حيث "شبه الأرض بنائم لا حركة له ثمّ يتحرك وينتعش وتدب فيه الحياة بنزول المطر عليه"[3].

ونفس الصورة بملامحها السابقة نجدها أيضاً في قوله تعالى: "**تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**"[4]. ففي قوله تعالى: " **تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً**"، "استعارة مكنية، فقد استعير الخشوع، وهو التذلل، والتقاصر لحال الأرض عند قحطها وجفافها، كما استعير الهمود لها في قوله تعالى: "**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً**" وكذلك يسري القول على الاهتزاز والربو"[5]. فالأرض نجدها مرة "**هامدة**" ونجدها أخرى " **خَاشِعَةً** " ،ويُخلع عليها صفات الحي تشخيصاً وتجسيماً لها، "وهكذا تستحيل الأرض الجامدة، كائناً حيّاً بلمسة واحدة في لفظة واحدة"[6].

وحين نتأمل التعبير القرآني، نجد التنويع فيه ظاهراً على الرغم من تشابه عناصر الصورتين، ففي الآية الأولى، جاء التعبير بكلمة " **هَامِدَةً** "، وفي الثانية بكلمة " **خَاشِعَةً** "، فلا يمكن أن يأتي التعبير جُزافاً، ولعلّ مردّ ذلك إلى السياق الذي وردت فيه كلّ آية منهما، فحين نتأمل السياق السابق لتصوير الأرض بأنها " هَامِدَةً "، نجده مفعما بجو البعث والإحياء وإخراج الكائنات، فإذا بالأرض بعد ذلك تهتز وتربو، وتنبت من كلّ زوج بهيج. أمّا تصوير الأرض بأنّها "خاشعةً "، فهذا يتناسق مع الجو السابق للآية، والذي يتحدث عن عبادة وسجود المخلوقات لله تعالى، فالأرض كونها مخلوقاً كذلك، فهي تشارك غيرها في العبادة والخشوع، لذا نجدها " **اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ".

---

[1] سورة الحج: آية5.

[2] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مجلد24، ص126.

[3] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد2، ص285.

[4] سورة فصلت: آية 39.

[5] الدرويش، محي الدين، **إعراب القرآن الكريم**، مجلد6، ط9، دار اليمامة: دمشق- بيروت، 1424هـ، 2003م، ص638-339.

[6] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**، ص62.

ونلاحظ كذلك "أنّ الهمود والخشوع يتحدان في المعنى العام، ويستدل بهما في الآيتين على قدرة الخالق على البعث، فما هما إلا سكون أو خمود، تعقبه الحركة والحياة؛ فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني، لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع. ولكن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني، إنّما يريد الصورة كذلك؛ والصورة تقتضي هذا التنويع، ليتم التناسق مع الأجزاء الأخرى في اللوحة، أو في المشهد المعروض"[1]. فالتنويع في الصورة القرآنية الواحدة، حيث تآلف جزئياتها مع الجو العام المرسوم لها، يجعل الصورة تنبض بالحياة، فتغدو مفعمة بالحركة.

ونقف عند قوله تعالى: " **وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ**[2]"، لنلاحظ الصورة الاستعارية اللطيفة فيها، ويقصد "بالطرائق": "السموات؛ لأنّه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكلّ شيء فوقه مثله فهو طريقة، أو لأنّها طرق الملائكة ومتقلباتهم"[3]، فهي استعارة شبّهت الآية فيها "السموات السبع بطرائق النعل التي يجعل بعضها فوق بعض"[4]. وقد يحتاج المرء إلى تريث يدرك به طبيعة التعبير من خلال هذه الصورة لا سيّما وأنَّ تقريب الصورة جاء من خلال استخدام المحسوس القريب من الأذهان، وهذا من بلاغة النص القرآني .

ويستوقفنا التعبير الاستعاري الذي يكشف عن قوة الله –سبحانه– وقدرته على الأرض، في قوله –سبحانه– "**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**"[5]، ففي هذا التعبير " **مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ** " استعارة مكنية، "فقد شبه الأرض بالدابة التي يركب الإنسان عليها، ثمّ حذف المشبه به، وهو الدابة، وأبقى لها شيئاً من لوازمها وهو

---

(1) قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**، ص98.

(2) سورة المؤمنون: آية 17.

(3) الزمخشري، أبو القاسم جار الله: **الكشاف**، مجلد3، ص28.

(4) الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد2، ص306.

(5) سورة فاطر: آية 45.

الظهر"[1]. وهو تعبير "يبرز شناعة ما يكسب الناس وبشاعته وأثره المفسد المدمر للحياة كلّها لو آخذهم الله به مؤاخذة سريعة"[2].

وفيه وقفة للتأمل لكلّ ذي عقل متدبر لخلق الله تعالى عندما يفرض عليه هذا التعبير سرعة انقضاء الحياة على الأرض، وأنّه فيها كالمسافر لا حول له ولا قوة أمام حكم الله عليها، فالمتلقي لهذا التعبير يشعر بشيء من الحذر تارةً، والخوف والرهبة تارةً أخرى.

ونجد هذه الاستعارة الموحية التي تصوّر حقيقة تصرّف الله –تعالى– وحده في ملكوت السموات والأرض، وهي تنطق بتدبيره وإبداعه –سبحانه– دون شريك، يقول تعالى:"**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**"[3]، ففي قوله: "**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**" أي "مفاتيح خيراتها، ومعادن بركاتها، فشبّه الخيرات والبركات بخزائن، واستعار لها لفظ المقاليد، بمعنى المفاتيح"[4] ، وفي الصورة "مزيد دلالة على الاختصاص؛ لأنّ الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها إلا مَنْ بيده مفاتيحها"[5]. وهنا نلاحظ كيف ربط الله عزّ وجلّ المقاليد بالسموات والأرض، وفي ذلك دلالة على التعميم.

وترسم الآية الآتية صورة استعارية تهدف إلى تصوير عظمة الخالق، والوقوف على جلاله الواسع في السيطرة على الكون، في قوله تعالى: "**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ...**"[6]، والمعنى: "أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته كأنّه يقبضها بكفّ واحدة، وأنّ السموات مفنيات بقسمه؛ لأنّه أقسم أن يفنيهما"[7].

---

[1] الدرويش، محي الدين: **إعراب القرآن الكريم**، مجلد6، ص303.

[2] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، مجلد5، ص3951.

[3] سورة الزمر: آية 63.

[4] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص91.

[5] البيضاوي: **تفسير البيضاوي**، تحقيق: عبدالقادر عرفات حسونة، جزء5، دار الفكر– بيروت، 1416هـ، 1996م، ص75.

[6] سورة الزمر: آية67.

[7] الزمخشري: **الكشاف**، مجلد3، ص409.

ففي قوله: " **وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ**"، فقبض الله للأرض فيه إيحاء بالقدرة والإحاطة الشـــاملة بجميع مخلوقاته، حيث "شّبه الأرض وهي تحت تصرف المولى سبحانه ورهن إرادته، بالشـــيء يكون في قبضة الممسك به، فهو متمكن منه يصرفه كيف شاء، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشية بطريق الاستعارة التمثيلية"[1]. وهنا نلاحظ استخدام كلمة " **جَمِيعًا** " بما تفيده الكلمة من عمومية. وفي قوله: "**وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** " أيضاً صورة استعارية تمثيلية إذ "شبه الســموات وهي تحت تصرفه وطوع مشيئته، بالشيء المطوي (كالكتاب مثلاً) في يمين منقاد له فهو يطويه وينشره كلما شاء، وخص اليمين لأنّها أشرف اليدين وأقواها، ثمّ حذف المشبه به واستعير المشبه به للمشبه[2].

واللافت في التعبير أنّه عندما ذكر صورة الأرض جاء بلفظ " **قَبْضَتُهُ** "، وعندما تحدّث عن صورة السماء ذكر لفظ "**يَمِينِهِ** "، فالقبضة شيء محسوس واضح للمتلقي تتناســب مــع الأرض القريبة منه، أمّا السماء فلانّها جليلة عند الله تعالى ومعظمها لا يقع ضمن مشاهدة الإنسان فجاء بالتعبير "**يَمِينِهِ**". وفي هاتين الصورتين الباهرتين "تنبيه على عظمته، وحقارة العظام التي تتحيــر فيها الأوهام، بالإضافة إلى قدرته، ودلالة على أنّ تخريب العالم أهون شيء عليه، على طريقــة التمثيل والتخييل من غير القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً"[3].

ونحن نُتابع هاتين الصورتين، نلاحظ أنّ التعبير القرآني فيهما يسير بطريقــة توضــيحية للحقائق، وذلك من خلال المشاهد المحسوسة التي يمكن إدراكها.

ومن الصور الاستعارية –كذلك– صورة استجابة السماء والأرض طــائعتين لربّهمــا – سبحانه– كأنّهما عاقلتان، يقول تبارك وتعالى:" **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**"[4]، يقول الزمخشري: "إمّا أن يكون هذا من مجاز التمثيل، كان عدم امتناعهما على قدرته امتثال المأمور المطيع إذا ورد عليه الأمر المطاع، وإمّا أن يكون تخيــيلاً فيُبنى الأمر فيه على أنّ الله تعالى كلّم السموات والأرض فأجابتاه. والغرض منه تصــوير أثــر القدرة في المقدرة من غير أن يحقق شيئاً من الخطاب والجواب"[5]. ففي هذا التعبير التصويري،

---

(1) لاشين،عبدالفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن**، ط2 ،دار الفكر العربي، 1422هـــ، 2002م، ص186.

(2) المرجع السابق : ص186.

(3) البيضاوي: **تفسير البيضاوي**، جزء5، ص77.

(4) سورة فصلت: آية11.

(5) الزمخشري: **الكشاف**، مجلد3، ص445.

يتوّجه الخطاب إلى السماء والأرض، فتسرعان بالجواب الدّال على خضوعهما واستسلامهما المتناهي لخالقهما، فالخيال شاخص إليهما، فهما تُدعيان وتُجيبان الدّعاء. وما يُثير انتباه المتلقي في هذه الصورة قوله: " **طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** " لما في لفظي التضاد من تقوية المعنى وإظهاره.

وفي قوله تعالى:"**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**" استعارة، عبّر فيها – سبحانه– عن خلق السموات بالاستواء، "والاستواء: الاعتدال والاستقامة، أيّ: قصد إليها بإرادته ومشيئته بعد خلق ما في الأرض من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر"[1]. وفي اللفظ " **اسْتَوَى** " إشارة إلى عظيم قدرته تعالى.

لنتأمل فاعلية الاستعارة في قوله تعالى: "**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ**"[2]، والمعنى: "لم يتغير بهلاكهم شيء ولم تحزن عليهم السماء والأرض بعد انقطاع آثارهم، والعرب يقولون في التعظيم: بكت عليه السماء والأرض، وأظلمت له الدنيا، ويقولون في التحقير: مات فلان فلم تخشع له الجبال"[3]، والتعبير القرآني يحقّرهم من خلال هلاكهم، "فما كان مهلكهم إلا كمهلك غيرهم، ولم يكن حدثاً عظيماً كما كانوا يحسبونه، ويحسب قومهم"[4]، وترسم الاستعارة صورة تشخيصية للسموات والأرض، حيث جعلهما الله عزّ وجلّ في مرتبة الإنسان، فأعطي الصورة الحيوية، إذ تفرض هذه الصورة على المتلقي نوعاً من التخيّل للمشهد بكلّ جوانبه المؤثرة على النفس . وفي ربط السماء والأرض إشارة إلى شمولية الحدث. وهنا نلمس جمالية الاستعارة وبلاغتها من لو جاء التعبير على سبيل الحقيقة.

لنلاحظ شدة انضباب الأمطار من صفحة السماء في قوله تعالى: " **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**"[5]، فهذه العبارة "مركب تمثيلي لهيئة اندفاق المطر من الجو بهيئة خروج الجماعات من

---

[1] الزمخشري: **الكشاف**، جلد1، ص270.

[2] سورة الدخان: آية29.

[3] الصابوني: محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص178.

[4] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء26، ص34.

[5] سورة القمر: آية11.

أبواب الدار"[1]، وفي التعبير" **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ** " يتبادر إلى أذهاننا أسئلة حول ماهية هذه الأبواب وكيفية فتحها، ففي التعبير استعارة حيث "شبّه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء، وانشق بها أديم الخضراء"[2]، إنّها صورة تشع بالحركات المتتالية، وبالأصوات التي تكاد تملأ صفحة السماء وتصل إلى صفحة الأرض.

وتتوالى الصور الاستعارية التي تعبّر عن قدرته –سبحانه– في الأرض، فالتعبير القرآني يحاول دائماً تقريب ذلك بمشاهد حسيّة، فها هو يقرّب لنا صورة قسوة القلوب في قوله تعالى: "**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**"[3]. وفي التعبير " **يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** " تشبيه حال ذكر الله والقرآن في إصلاح القلوب بحال المطر في إصلاحه الأرض بعد جدبها"[4]، وفي هذا ترغيب لكلّ من قست قلوبهم أن تلين وتعود إلى خالقها القادر على كلّ شيء، فإحياء الأرض بعد موتها لا تستعصي عليه –سبحانه–، واستخدام التعبير للفظة " **يُحْيِي** " إذ هي صورة ممتدة ولوحة فنية تزهر بالحياة وتمتلئ بالحركة والألوان، وفي التعبير –كذلك– ما يوحي بالهدوء والطمأنينة من خلال الجو الذي أشاعته هذه المفردة.

لنتأمل استماع السماء وانقيادها لأمر الله –تعالى– يوم القيامة في قوله: " **وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ**"[5] وفي المشهد استعارة، إذ ليس من شأن السماء الاستماع، فهي لا تسمع حقيقة؛ لأنّها لا تتصف بحاسة السمع، "فقد شبّهت حال السماء في انقيادها لتأثير قدرة الله تعالى حيث أراد انشقاقها بانقياد المستمع المطواع للأمر"[6].

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء28، ص182.

[2] الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص291.

[3] سورة الحديد: آية17.

[4] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء28، ص394.

[5] سورة الانشقاق: آية2.

[6] الدرويش، محي الدين: **إعراب القرآن الكريم**، مجلد8، ص262.

وكذلك صورة الأرض التي تخلّصت منْ كلّ ما في جوفها فأصبحت خالية فيقول – سبحانه– وتعالى: "**وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ**"[1]. فهي استعارة حيث "شبّهت حال الأرض بحال المرأة الحامل تلقي ما في بطنها عند الشدّة والهول"[2]، وحين يستوقفنا التعبير " **مَا فِيهَا** "، يتبادر إلى الأذهان الكثير من المخلوقات التي عاشت في جوفها آلاف السنين من معادن ومياه وأسرار أخرى لا يعلمها إلا خالقها، فالصورة متكاملة تعكس استسلام الأرض وطاعتها وخشوعها –لله– في هدوء متناهٍ عميق.

فمن خلال اللمحات الفنية السابقة، نرى أنّ الألفاظ المستعارة قد عبّرت عن الدلالات المطلوبة تعبيراً بلاغياً، فأسلوب الاستعارة من الأساليب البلاغية التي أثرت الصورة الفنية، وكشفت عن تقريب الأمور المعنوية إلى الأذهان بطريقة محسوسة، إذ إنّ " كثيراً من الألفاظ والمسميات لهيئات ومخلوقات جامدة يخلع عليها القرآن الصفات الإنسانية من حواس ومشاعر وإدراكات حيث يبلغ الإعجاز مداه في اختيار الألفاظ لمواضعها، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها، تلك الصورة الجمالية التي تجسد المعنى في ذهن المتلقي وتحقق الغرض الديني والواقع الجمالي في آن واحد "[3]. وبالتالي تستطيع النفس الإنسانية تأملها وسبر أغوارها.

وقد رأينا كيف استطاعت الصورة الفنية تحريك السموات والأرض، وإكسابها إنسانية الإنسان، وجعلها ماثلة أمام العين، وبالتالي قرّبت بينها وبين الإنسان في الإحساس والشعور.

فالاستعارة القرآنية تمتاز في تثبيت المعاني وتأثيرها في النفوس، لا سيّما وأنّها تبحث في استجلاء جوانب الصورة، وفي رسم ملامحها، والكشف عن ألوانها وظلالها، وهذا ما يؤكد بلاغة التعبير القرآني وجمالياته الواسعة.

---

[1] سورة الانشقاق: آية4.

[2] الدرويش، محي الدين: **إعراب القرآن الكريم**، جزء8، ص262.

[3] يونس، عيد سعد: **التصوير الجمالي في القرآن الكريم**، ط1، ص142.

ب- المجاز المرسل:

وهو من المجاز اللغوي، الذي يستخدم فيه اللفظ لغير ما وُضع له، فالمجاز "كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول"[1].

ويعرّف المجاز المرسل بأنّه "ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وُضع لـه ملابَسَة "غير التشبيه"[2].

ويختلف المجاز المرسل عن الاستعارة في طبيعة العلاقة التي تربط بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، فهي علاقة المشابهة في الاستعارة، وعلاقة غير المشابهة في المجاز المرسل.

ونظراً لتعدد علاقات المجاز المرسل وتنوّعها، فهذا من شأنه كشف جمال التعبير، وإعطاء آفاق واسعة للتأمل وتذوّق كنه الصور المجازية المعبرة عن صورتي السماء والأرض في القرآن الكريم.

ومن المجاز المرسل في صورة السماء، قوله تعالى: "وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا"[3]، فالمجاز في كلمة "السماء"، ومعنى السماء ها هنا: المطر الكثير، إذْ عبّر القرآن الكريم عن المطر بالسماء؛ لأنّه ينزل منها، فالسماء محل للمطر، والمطر حالّ بها، فالعلاقة محليّة.

وقد استخدمت كلمة " السَّمَاءَ " هنا للسعة بدلاً من المطر؛ لأنّ السماء توحي بالانبساط والشمول. وتتجلى بلاغة الكلمة "السماء" في أنّها مكمن كلّ الأشياء في هذا الكون، فبالإضافة إلى كونها محلّ نزول المطر، فهي -أيضاً- محل وجود الملائكة، ومحل عرش الرحمن، ومحل تقدير الأرزاق والآجال، ومحل استجابة الدعاء، ومحل الأسرار والخفايا، وفي ذلك إشارة للخضوع والعبادة المطلقة لخالق هذا الكون.

---

[1] الجرجاني، عبدالقاهر: **أسرار البلاغة**، ص398.

[2] القزويني، الخطيب: **الايضاح في علوم البلاغة**، شرح وتعليق: محمد عبدالمنعم خفاجي، جزء2، ط4، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، 1395هـ -1975م، ص397.

[3] سورة الأنعام: آية6.

ونتأمل التعبير الذي يكون فيه اللفظ المذكور مسبباً عن المعنى المراد في قولـــه تعـــالى: "**وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا**"[1]، فالمجاز هنا في كلمة " **رِزْقًا** "، والرزق لا ينزل من السماء، وإنمّـــا الذي ينزل منها هو المطر الذي يُنشى النبات الذي منه الطعام ومختلـــف الأرزاق، لأنّ المطـــر سبب في جميع الأرزاق على الأرض، وعندما نتابع هذا التعبير نجد فيه "ما يخيّل للسامع انعدام الزمن بين نزول المطر والثمار التي تخرج من النبات، فالذي ينزل ليس مطراً وإنّما هـــو رزق يصير بين أيديهم، وفي ذلك تعجيل القرآن لصورة النعيم، واستحضار لما يستوجب الشكر، وفي ذلك ما يستدعي من العبد الخضوع والإنابة إلى هذا المنعم بهذا السخاء"[2].

وممّا زاد من قيمة المجاز وجمالياته استخدام صيغة المضارع المضعّف "**يُنَزِّلُ**" دلالة على التجدد والاستمرارية، بالإضافة إلى تنكير اللفظ " **رِزْقًا** " إشارة للتكثير.

ويمضي مثل هذا المجاز في قوله تعالى: "**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْـــدَ مَوْتِهَا**"[3] وفي قوله تعالى: "**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**"[4]، فالرزق فـــي الآيتـــين يقصـــد منـــه "المطر"؛ لأنه ينزل من السماء، والرزق مسبب عنه، ويؤكد ذلك المعنى قول صاحب الكشـــاف: "وسمي المطر رزقاً؛ لأنّ به يحصل الرزق"[5].

وفي قوله: " **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ** "، أي :"وفي السماء أسباب رزقكم، فالشمس والقمر وسائر الكواكب، واختلاف المطالع والمغارب التي يترتب عليها اختلاف الفصول التـــي هـــي مبـــادئ حصول الرزق، وفي لفظ "**السماءِ** " تعبير مجازي، إذ إنّ السماء سبب في الحصول على الرزق،

---

[1] سورة غافر: آية 13.

[2] لاشين،عبدالفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن الكريم**، ص143.

[3] سورة الجاثية: آية5.

[4] سورة الذاريات: آية22.

[5] الزمخشري، أبو القاسم جار الله: **الكشاف**، مجلد3، ص509.

فمنها ينزل المطر فتنمو النباتات للإنسان والأنعام، وكذلك فإنّ كلّ ما توعدون بـــه مـــن الخيـــر والشر، والثواب والعقاب، والشدة والرضا، وغيرها مكتوب مقدم في السماء"[1].

ولا شكّ أنّ تنكير اللفظين " رِزْقٍ " و " رِزْقُكُمْ " أعطى الصورة المجازية دلالـــة جماليـــة مؤثرة في نفس المتلقي، ففيهما معنى الكثرة والانبساط في النعمة، كما أنّ استخدام لفظ " السَّمَاءِ " دلالة على السعة والشمول.

جـــ- المجاز العقلي:

وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الحقيقة، لعلاقة، مع قرينة مانعـــة من إدارة المعنى الحقيقي، ويعرّفه الجرجاني بقوله: "كلّ جملة أخرجت الحكم المفاد بهـــا عـــن موضوعه في العقل لضرب من التأول؛ لأنّ إثبات الفعل لغير القـــادر لا يصـــح فـــي قضـــايا العقول"[2].

وإذا تأملنا قوله تعالى: "وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا"[3]، أسند الإخراج إلى الأرض، وهي ليست الفاعل الحقيقي، وإنّما المخرج هو الله -سبحانه وتعالى- فإسناد الفعل "أَخْرَجَ " إلى غير فاعلـــه " الْأَرْضُ " مجاز عقلي "للمشابهة بين الفاعل -الحقيقي والمجازي في تعلّق الفعـــل بهمـــا، فتعلقـــه بالفاعل الحقيقي من حيث صدروه منه، وتعلقه بالفاعل المجازي من حيث وقوعه فيه- وهذه هي علاقة المكانية"[4].

---

[1] حسين،عبد القادر: **أضواء بلاغية على جزء الذاريات**، دار غريب للطباعـــة والنشـــر -القـــاهرة، 1998م، ص15-16.

[2] الجرجاني، عبدالقادر: **أسرار البلاغة**، ص430-431.

[3] سورة الزلزلة: آية2.

[4] لاشين، عبد الفتاح: **المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم**، دار الفكر العربي - القاهرة ، 1424 هـــ - 2003 م ،ص108.

ونص الزمخشري في "الأساس" على أنّ هذا من المجاز، حيث ذهب إلى أنّ الأثقال هي ما في جوفها من الكنوز والأموات[1] إذْ جُعِل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها.

وعندما جعل الله –سبحانه– الأرض فاعلة مع أنّها جماد، فهذا دليل على قدرته –سبحانه– و "مضيّ في تقرير مطاوعتها، وكونها مسخرة لمثل هذا، والسياق ملتئم مع الآية قبلها "إذا زلزلت الأرض زلزالها"، من حيث تركيز الاهتمام في الحدث، دون شغل للسامع بمصدره أو محدثه" [2]. وإخراج الأثقال من جوف الأرض له دلالة مؤثرة في النفس وهي "ما توحي به من اندفاع للتخلص من الثقل الباهظ :فالمثقل يتلهف على التخفف من حمله، ويندفع فيلقيه حين يتاح له ذلك. والأرض إذ تخرج أثقالها، تفعل ذلك كالمدفوعة برغبة التخفف من هذا الذي يثقلها، عندما حان الأوان، ولو كانت العبارة "وأخرجت الأرض ما في جوفها" لضاع هذا الإيحاء المثير"[3]. وعندما استخدم التعبير صيغة الماضي "أَخْرَجَتِ" للتعبير عن المستقبل ، ولعلّ هذا يُظهر ما في المجاز العقلي من روعة التعبير، وما يتجلى فيه من إبداع بليغ مؤثر.

ومنه قوله تعالى: "وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"[4]، "فقد أسند الإنبات للأرض، وجعل خضرتها، ونضرتها، وتعاشيبها، وتعاجيب ألوانها لها، وهو مجاز عقلي؛ لأنّ المنبت في الحقيقة هو الله تعالى"[5].

ولا شك أنّ الإنبات في هذه الآية لا يقتصر على النباتات فحسب، بل تتسع دائرته لتشمل جميع المخلوقات، حيث استخدام لفظ "كلّ" زاد من قيمة المجاز؛ لأنّه أعطى دلالة الشمولية "وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلكهم في آية واحدة من آياته. وإنّها

---

[1] الزمخشري، أبو القاسم جار الله: **أساس البلاغة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت، 1409هـ، 1989م، ص74.

[2] عبدالرحمن، عائشة: **التفسير البياني للقرآن الكريم**، دار المعارف بمصر، 1962م، ص73.

[3] المرجع السابق، ص74.

[4] سورة الحج: آية5.

[5] الدرويش، محي الدين: **إعراب القرآن الكريم**، جزء5، ص104–105.

للفته عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة. وإنّها لدليل على وحدة عنصر الحياة، وعلى وحـــدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والبنات والحيوان والإنسان"[1].

فعندما نتأمل المجاز في هذه الآية، نجد فيه ظلاً متميّزاً، يضعنا في صورة بهجة الحيـــاة وتفتحها، وشيوع الحركة فيها، ممّا يحرك فينا مشاعر الإيمان والاستسلام لخالق هذا الكون.

ومن الصور المجازية الحافلة بالحركة والحياة، والذي يسلك فيها الكلام مسلكاً يُسند فيـــه الفعل إلى غير ما حقّه أن يسند إليه قوله تعالى: "**وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا**"[2]، بمعنى :"وجعلنا الأرض كأنّها عيون تتفجر"[3]، فالتفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، وأفاد هـــذا أنّ الأرض قد صارت عيوناً كلّها، وأن الماء يفور من كلّ مكان فيها، فحصل مـــن ذلـــك معنـــى الشمول، "وهو تعبير يرسم مشهد التفجير، وكأنّه ينبثق من الأرض كلّها، وكأنّها الأرض كلّها قد استحالت عيوناً[4].

والأصل في التعبير: "وفجّرنا عيون الأرض" أو و "فجّرنا العيـــون فـــي الأرض"، فهـــذا التعبير ليس فيه من القوة والبلاغة الإيحائية كما في التعبير " **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا** ".

ففي هذه الحركة المثيرة في الأرض عنصر جمالي ينبع من تخيّل مشهد هذه الصورة، هذا المشهد الذي يثير الخيال ويلامس الحسّ، ويجعل النظر يُمعن أكثر وأكثر في تذوق تلك الصورة واستيعابها. لذا فمجئ التعبير في هذا النسق الخاص أسهم في إظهار الصورة المجازيـــة بشـــكل أقوى وأكثر تأثيراً على المتلقي، وكما أنّ استخدام اللفظ "فَجَّرْنَا" دون "جعلنا " له دلالة ظاهرة في المعنى.

---

[1] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، مجلد4، ص2411.

[2] سورة القمر: آية12.

[3] الزمخشري: **الكشاف**، مجلد4، ص37.

[4] قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، مجلد6، ص3430.

إنّ من خصائص المجاز في القرآن الكريم، سواء أكان استعارياً أو مرسلاً أو عقلياً، فهو يؤدي وظيفة في البيان القرآني، إذْ يوسّع في ضروب التعبير، ويستخدم الألفاظ في معانٍ ودلالات شتّى، ويُعنى باختيار اللفظ المناسب للمعنى المقصود والصورة الحسيّة المبتغاة.

فالمجاز من الأساليب البلاغية التي تحتاج إلى تأمل ودقة لفهم دلالة الكلمة أو الجملة، فهو يحمل دلالات جمالية غنيّة بمضامينها، "ولغة المجاز هي التي تُفسح مجالاً للذهن أن يعيش دلالات الجمال الإيحائي في اللغة، لأنّه لا يبحث في دلالات المعاني الأصلية الموضوعة في اللغة، إنّما يتخطى ذلك لمعانٍ رمزية وإيحائية بين الكلمة ودلالاتها فتتسع معانيها وتزيد"[1]

كما يحقق المجاز القرآني سمة بلاغية تؤثر في قوة المعنى وتوضيحه، هذه السمة سارت وسرنا معها في اكتشاف جوهر المقصود وكنْهه وهي: التصوير والتجسيم والتخييل "وكثيراً ما يجتمع التخييل والتجسيم في المثال الواحد في القرآن، فيصوّر المعنوي المجرد جسماً محسوساً، ويخيِّل حركة لهذا الجسم أو حوله من إشعاع التعبير"[2].

وبهذا سار الأسلوب القرآني في التعبير من منطلق أنّ : "التصوير هو القاعدة الأولى في التعبير"[3].

---

[1] عبدالله، محمد صادق حسن: **جماليات اللغة وغنى دلالاتها**، ص198.

[2] قطب، سيد: **التصوير الفني في القرآن**، ص69.

[3] المرجع السابق: ص71.

المبحث الثالث: أساليب التعبير الخبري والإنشائي .

الخبر: "هو الكلام المحتمل للصدق والكذب"[1]، فإذا كان مطابقاً للواقع والحقيقة فهو صادق، وإذا كان مخالفاً للواقع والحقيقة فهو كاذب.

واحتمال الخبر للصدق والكذب إنّما يكون بالنظر إلى مفهوم الكلام الخبري ذاته دون النظر إلى المُخْبر أو الواقع، فمن الأخبار ما يتصف بالصدق ولا يحتمل الكذب كأخبار الله تعالى في القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، والبدهيات المألوفة من مثل: السماء فوقنا والأرض تحتنا. ومن الأخبار ما يتصف بالكذب ولا يحتمل الصدق من مثل: الأمانة رذيلة والخيانة فضيلة. ولكن هذه الأخبار تحتمل الصدق والكذب من حيث هي أخبار بصرف النظر عن قائلها أو الواقع الذي قيلت فيه.

أمّا الإنشاء: فهو "كلام لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته[2]، فلا يصح أن يُقال لقائله إنّه صادق أو كاذب؛ لأنّه لا يفيدنا حصول شيء أو عدم حصوله، وذلك لأنّ المتكلم به يستعمل في كلامه أحد أساليب الإنشاء "كالأمر" في قوله: اكتب الدرس، والنهي في قوله: لا تتدخل فيما لا يعنيك.

أ- أساليب التعبير الخبري:

الأصل في الخبر أن يُلقى لأحد غرضين: أولهما: إفادة المخاطَب بالحكم الذي تضمنته الجملة، وهذا الحكم لم يكن معروفاً للمخاطَب من قبل، ويسمى "فائدة الخبر"، وثانيهما: إفادة المخاطَب أنّ المتكلم عالم بالحكم الذي يعرفه المخاطَب نفسه، ويسمى "لازم الفائدة"[3].

وقد يخرج الخبر عن هذين الغرضين إلى أغراض أخرى تفهم من السياق، منها: إظهار الضعف، والاسترحام والاستعطاف، وإظهار التحسر، والمدح، والفخر، والحث على السعي.

---

[1] السكاكي: **مفتاح العلوم**، ص164

[2] الهاشمي، أحمد: **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ط12، ص53.

[3] انظر: عتيق، عبد العزيز: علم المعاني، دار النهضة العربية- بيروت، 1405هـ، 1985م، ص50.

وتختلف صور الكلام في التعبير الخبري باختلاف حال المخاطب، فنراه حيناً مجرداً من أدوات التوكيد، عندما يكون المخاطَب خالي الذهن من مضمون الخبر، ويُسمى هذا النوع "ابتدائيا"، ونراه حيناً مؤكداً بمؤكد واحد حين يكون المخاطب في حالة تردد وشك في مضمون الخبر، ويُسمى هذا النوع "طلبياً"، وأحياناً نراه مؤكداً بأكثر من مؤكد، حين يكون المخاطب في حالة إنكار، ويسمى هذا النوع "إنكارياً"[1].

ويطلق على هذه الأنواع الخاصة بأحوال الخبر "أضرب الخبر"، وهي تمثل خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، ممّا يوضح لنا القيمة البلاغية لأساليب الخبر المختلفة، "ولا شك أنّ إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر يعتبر شعبة من شعب البلاغة، وسبيلاً إلى توفية الكلام حقه، باستبطان دخيلة المخاطب، والتغلغل إلى أعماق نفسه، وكشف الستر عنها، وتعريتها وإبرازها واضحة، أمام العيون"[2].

ومن أساليب التعبير الخبري في صورتي السماء والأرض قوله تعالى: " **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**"[3].

جاءت هذه الآية في موضع الاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى– من خلال النعم العامة المشهودة والمحسوسة التي لا ينبغي لأحد إنكارها، لا سيّما وأنّ المنعم بها وموجدها هو الله – تعالى–، فكان افتتاح الكلام الخبري بلفظ الجلالة "الله"؛ لأنّ تعينه هو الغرض الأهم، ثمّ عرضت الآية مجموعة من الأخبار التي تؤثر في الوجدان وتجعله يصمت خوفاً ورهبة من جلالها.

وقد جاءت الأخبار ذات إيقاع متناسق جميل، يتلاءم وفق إبداع الله –سبحانه– للكون، فبدأ بالخبر الأول " **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**"، ثم الخبر الثاني " **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**" وهذا الخبران

---

[1] انظر: حسن، عبدالقادر: **فن البلاغة**، ط2، عالم الكتب– بيروت، 1405هـ، 1984م، ص83–88.

[2] المرجع السابق: ص88.

[3] سورة إبراهيم: آية 32.

يتعلقان بلوحة السماء، ثمّ الثالث " **فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا**"، ثم الرابع " **وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**"، ثمّ الخامس " **وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ**"، وهذه الأخبار تتعلق بلوحة الأرض، ثم يعود الإيقاع ثانية إلى السماء؛ لنقرأ الخبر السادس " **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ**"، ويعود كذلك إلى الأرض في الخبر السابع " **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**"، ثمّ يأتي بعد ذلك خبران شاملان كتعقيب على تلك الأخبار السابقة، أولهما: " **وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**"، للدلالة على نعم الله التي لا يحدها حدود، ولا يحيط بها إدراك الإنسان . وثانيهما: " **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**"، فأمام شدة إغفال الإنسان وإنكاره لتلك النعم، اشتد التأكيد في الخبر، فصدّرت الجملة بأداة التأكيد "إنّ"، يضاف إلى ذلك لام التأكيد في " **لَظَلُومٌ** "، واسمية الجملة الدّالة على الثبوت. ولا شك في ورود صيغ المبالغة " **ظَلُومٌ** " و " **كَفَّارٌ** " من دلالة في تقوية المعنى الحاصل وإبرازه.

إنّ ظاهرة التكرار في هذه الآية واضحة للمتأمل فيها، فهي محملّة بدلالات عميقة تترك أثراً على المتلقي، وتضفي جمالاً رائعاً على التعبير القرآني، وتزيد من ترابطه، "فاللفظ المكرر ينبغي أن يكون وثيق الارتباط بالمعنى العام وإلا كان لفظية متكلفة لا سبيل إلى قبولها"[1].

فتكرار الفعل الماضي "**سَخَّرَ**"، يدل على أنّ كلّ ما في الكون مخلوق ومهيأ لأجل الإنسان، "والتسخير: حقيقته التذليل والتطويع، وهو مجاز في جعل الشيء قابلاً لتصرف غيره فيه"[2].

والتكرار هو: "دلالة اللفظ على المعنى مردَّداً ، فمنه ما يأتي لفائدة ومنه ما يأتي لغير فائدة؛ فأمّا الذي يأتي لفائدة فإنّه جزء من الإطناب وهو أخص منه؛ فيقال حينئذ: إنّ كلّ تكرير يأتي لفائدة فهو إطناب وليس كلّ إطناب تكريراً يأتي لفائدة، وأمّا الذي يأتي من التكرير لغير فائدة فإنّه جزء من التطويل، وهو أخص منه، فيقال حينئذ: إنّ كلّ تكرير يأتي لغير فائدة تطويل، وليس كلّ تطويل تكريراً يأتي لغير فائدة"[3].

---

[1] نازك الملائكة: **قضايا الشعر المعاصر**، بيروت، دار الآداب، 1962م، ص229.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء14، ص235.

[3] ابن الأثير، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم: **المثل السائر**، ص129.

كما أنّ ورود الأفعال الماضية المسندة إلى الله –عزّ وجل– كما نلاحظ: " **خَلَقَ** "، "**أَنْـزَلَ**"، "**أَخْرَجَ**"، "**سَخَّرَ**"، "**وآتَاكُمْ**" لجديرة بالملاحظة، فهي تؤكد على القدرة الإلهية العظيمة في نظام الكون وجريانه ضمن نواميس معيّنة، وكذلك حضور الله تعالى ورقابته لمجريات هذا الكون، فهو مطّلع على الأمور كلّها فيه لا تأخذه سنة ولا نوم عن هذا الخلق.

وفي تكرار "لام الملكية" وضمير المخاطبين في " **لَكُمُ** " زيادة في تأكيد استحقاق هذه النعم لهذا المخلوق دون غيره، وأنّه هو المخصص والمقصود، ولعلّ في هذا رفع من كرامة الإنسان وتميّزه عن غيره من المخلوقات، فهو القائم بدور الخلافة في الأرض.

وكما أنّ ورود الأفعال المضارعة : " **تَعُدُّوا** " و " **تُحْصُوهَا** " توحي بعدم طاقة الإنسان على حصر تلك النعم وعدّها، فهي كثيرة من أنْ يحصيها الإنسان، وهي كذلك مستمرة متواصلة لا تنقطع ما دامت الحياة متواصلة، وما دام الإنسان يعيش فيها. ونلاحظ أسلوب الالتفات في قوله "وآتاكم" بعد تعداد النعم إشارة إلى عظيم قدرة الله تعالى واتساع نعمه المتعددة.

ويطالعنا الأسلوب الخبري في قوله تعالى: " **وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**"[1] والغائبة: "اسم للشيء الذي يغيب ويخفى، والتاء فيه كالتاء في العافية، والعاقبة، في أنّها أسماء غير صفات"[2]، وفي الخبر تقرير لعلم الله الشامل الكامل الذي لا يخفى عليه في السماء ولا في الأرض، وتنبيه للمخاطبين من غفلتهم عن الإحاطة بعلم الله –سبحانه–، ونلاحظ أن الخبر خالٍ من التأكيد، وذلك لأنّ الله تعالى يخاطب قوماً لا يعلمون شيئاً عن الحكم الذي تضمنه الخبر، لذلك اقتضى المقام أن يُلقى الخبر خالياً من التأكيد. وقد جاء الخبر منفياً ليتناسب ذلك مع مضمون الخبر وزيادة تأكيده. كما أنّ تعدّد حروف الجرّ أسهم في شمولية الخبر وإتساع دائرته، بالإضافة إلى تنكير لفظ "**كتاب**" الذي يستدعي إثارة الذهن حول ماهيته "والكتاب يعبر به عن علم الله، استعير له الكتاب لما فيه من التحقق وعدم قبول التغيير. ويجوز أن يكون مخلوقاً غيبياً يسجّل فيه ما سيحدث"[3].

---

[1] سورة النمل: آية 75.

[2] الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود: **الكشاف**، مجلد3، ص158–159.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء21، ص30.

ومن الأساليب الخبرية الدّالة على قدرته –سبحانه– في حفظ نظام المخلوقات العظيمة وبقائها بعد خلقها قوله تعالى: " **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ**"[1] فمعنى القيام ههنا: "البقاء الكامل الذي يشبه بقاء القائم المضطجع وغير القاعد من قولهم: قامت السوق، إذا عظم فيها البيع والشراء"[2].

ولا شك أنّ لفظ "**بأمره**" متعلق بالفعل " **تَقُومَ** "، و "والباء" فيه للسببية، وفي ذلك دليل على إتقان صنع الله –عزّ وجلّ– وأنّ هذا الحدث المتقن حقيق بالله دون غيره.

كما أنّ مجيء حروف العطف "**ثمّ**"، التي تفيد التراخي الزمني بين الحدثين المذكورين، حدث قيام السماء والأرض، وحدث دعوة الناس وخروجهم من الأرض، قد عطفت جملة على جملة، "والمقصود من الجملة المعطوفة الاحتراس عما قد يتوهم من قوله "أنْ تقوم السماء والأرض بأمره" من أبدية وجود السموات والأرض، فأفادت الجملة أنّ هذا النظام الأرضي يعتوره الاختلال إذا أراد الله انقضاء العالم الأرضي وإحضار الخلق إلى الحشر تسجيلاً على المشركين بإثبات البعث. فمضمون جملة "إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا انتم تخرجون" فيه تكملة وإدماج موجه إلى منكري البعث"[3].

وفي قوله " **دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ** " فيها من المعاني التي تؤكد على خصوصية الدعوة، وسرعة وجود ذلك الأمر من غير توقف، فالمصدر " **دَعْوَةً** " يفيد تعظيم إعادة الخلق ، كما أنّ حرف الجرّ "**مِنْ**" يفيد ابتداء الغاية المكانية وهي خاصة "بالأرض" التي ستخرج منها الخلائق، وفي تقديم الجار والمجرور " **مِنَ الْأَرْضِ** " على الفعل " **تَخْرُجُونَ** " تأكيد على خروجهم منها وعدم البقاء فيها. وفي تكرر " إِذَا " من الظلال الداعمة للمعنى، فجاءت " إِذَا " الأولى للشرط؛ بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر، وقد تبعتها جملة فعلية مصدّرة بفعل ماضٍ مع أنّ الحدث لم يقع بعد، وإنّما سوف يقع في المستقبل، وأنّ وقوعه محقق لا شك فيه، ولكن جاء التعبير بلفظ

---

[1] سورة الروم: آية25.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء22، ص80.

[3] المرجع السابق: ص80.

الماضي؛ ليلائم المعنى الحاصل والدّال على وقوعه في المستقبل، وهذا التعبير "من صور إخراج الكلام عن مقتضى الظاهر، ويغلب ذلك فيما إذا كان معنى الفعل من الأمور الهائلة العظيمة التي تشيع الخوف في النفوس، وتزرع المهابة في القلوب"[1].

وأمّا " إِذَا " الثانية فجاءت للمفاجأة في قوله " **إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ** " فهي محمّلة بمعاني السرعة، أي سرعة خروج الخلائق من قبورهم إلى الحشر، ونلاحظ نوع الجملة التي تلتها، فهي جملة اسمية من مبتدأ وخبر، كما أنّ الخبر فيها يصوّر الصورة العجيبة التي نستحضرها في أذهاننا للخروج من القبور، وذلك من خلال استخدام الفعل المضارع " **تَخْرُجُونَ** "، وهو من الأفعال الخمسة المتضمنة لفاعلها وهو "الواو" ضمير الجماعة الذي يؤكد الضمير السابق له " **أَنْتُمْ** ".

ونلاحظ في تلك الآية أنّ الله –سبحانه وتعالى– يخاطب أناساً لا يعلمون شيئاً عن الحكم الذي تضمنه الخبر، لذلك ألقي الخبر عليهم خالياً من التأكيد، وكذلك كان مثبتاً.

لنتأمل الأسلوب الخبري في قوله تعالى: "**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ**"[2]، فحقيقة التدبير "التفكير في إصدار فعل متقن أوله وآخره، وهو مشتق من دبر الأمر، أي آخره، لأنّ التدبير النظر في استقامة الفعل ابتداء ونهاية، وهو إذا وصف به الله تعالى كناية عن لازم حقيقته وهو تمام الإتقان"[3]. إنّ تعريف لفظ "**الأمر**" يفيد استغراق الأمور كلّها، فهي لا تخرج عن تصرّف الله سبحانه–، وفي ورود حرفي الجرّ "مِنْ" الدّال على الابتداء، و "إلى" الدّال على الانتهاء، دلالة على شمولية تدبير الله تعالى لأمور كلّ ما في السموات والأرض. فالتعبير الخبري هاهنا " **مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ** " يرسم مجال التدبير منظوراً واسعاً شاملاً، ليلقي على الحسّ البشري الظلال التي يطيقها ويملك تصوّرها ويخشع لها. وإلاّ فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض. ولكن الحسّ البشري حسبه الوقوف أمام هذا المجال الفسيح، ومتابعة التدبير شاملاً لهذه الرقعة الهائلة التي لا يعرف حتى الأرقام التي تحدّد مداها!"[4]

---

[1] حسين، عبدالقادر: **فن البلاغة**، ص288.

[2] سورة السجدة: آية5.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء 22، ص212.

[4] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، مجلد5، ص2807.

إن احتواء الخبر على فعلي المضارع " يُدَبِّرُ " و " يَعْرُجُ " دليل على الاستمرارية والتجدد في تدبيره وتصرفه –سبحانه– لتلك الأمور، وكذلك في صعودها إليه، فحرف العطف "ثم" جاء للتراخي الرتبي بين الفعلين، وفي ذلك إيحاء لعظيم تسيير الله تعالى لتلك الأمور، فبعد أن تصدر منه فهي أيضاً ترجع إليه، ليتصرّف بها كيفما يشاء، وممّا يزيد هذا المعنى ويقويه قوله " يَعْرُجُ إِلَيْهِ" فتعدية الفعل بحرف الانتهاء تشير إلى مصير تلك الأمور، فهي بين يدي خالقها، ويُشير كذلك إلى انتقالها إلى المكان المرتفع، ففي الفعل " يَعْرُجُ " صور حركية نحو الأعلى.

ونلاحظ أنّ ترتيب الكلمات في نسق معين، أسهم في إثبات الخبر الذي أُلقي خالياً من أدوات التأكيد.

وتتوالى الأساليب الخبرية التي ترسم صورتي السماء والأرض، وهي هاهنا تكشف للمخاطبين عن العلم المطلق لله –سبحانه وتعالى– لجميع الموجودات الأرضية والسماوية، إذ يقول تعالى: "يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ"[1]، إنّ أول ما يلفت النظر في هذا الأسلوب الخبري هو استخدامه لكلمات اللغة الدّالة على المعاني الموضوعة لها دلالة مطابقة على الحقيقة دون المجاز، فحين عبّر الأسلوب عن علم الله تعالى بأحوال موجودات الأرض، خصّ بذكر لفظي " يَلِجُ " و "يخرج" دون ما يدب على سطحها؛ لأنّ الذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها يعلم كذلك ما يدب عليها. وحين عبّر عن علم الله تعالى بأحوال موجودات السماء، استخدم لفظي " يَنْزِلُ " و " يَعْرُجُ " دون ما يجول في أرجائها؛ لأنّ الذي يعلم ما ينزل من السماء وما يعرج فيها يعلم كذلك ما في أجوائها وفضائها من كائنات مختلفة.

واستخدام التعبير للأفعال المضارعة دون غيرها يفيد استمرارية علم الله تعالى لجميع هذه الأحداث من ولوج، وخروج، ونزول، وعروج، ونستشعر ظلال هذه الأفعال، ففيها من الحركات والأصوات والأشكال والصور الشيء الكثير "ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء والحركات، والأحجام، والأشكال، والصور، والمعاني، والهيئات، لا يصمد لها الخيال!"[2]. وفي تكرار لفظ "ما" دلالة على شمولية علمه –سبحانه– فهي دالة على عموم المخلوقات.

---

[1] سورة سبأ: آية2.

[2] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، مجلد5، ص2891.

إنّ عرض الأسلوب الخبري بتلك الصورة الرائعة الواسعة المدى تقرير لحقيقة علم الله تعالى، وأمام هذه الصورة الخبرية تطالعنا صورة خبرية تالية لها وتابعة في المعنى بقوله:" **وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ**"؛ لحث الناس على طلب أسباب الرحمة والمغفرة لا سيّما وأنّ أعمالهم تُرفع إلى السماء، وفيها كذلك تعريف للمشركين أن يتوبوا عن شركهم، فتغفر لهم ذنوبهم.

ويستوقفنا الأسلوب الخبري الذي يوضح صورة إتقان صنع الله –تعالى– للسماء، يقول –سبحانه وتعالى– :" **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**"[1] وقد خصّ التعبير ذكر " **السَّمَاءَ الدُّنْيَا** "، لأنّها أقرب السماوات إلى الناس، فهي نصب أعينهم، يلاحظون ما يجول فيها من دقائق الإتقان، ولعلّ "المصابيح" المشار إليها في هذا التعبير هي النجوم والكواكب الماثلة لهم، وفي هذه الصورة توجيه للمخاطبين للتواصل مع جمال إبداع الخالق –سبحانه–، ولكي يحذروا من مكائد الشياطين وأعوانهم.

وفي الفعل "زيّنا" لفت لانتباه المخاطبين إلى عظمة صنع الله في السماء، وممّا يزيد من دلالة هذا التعظيم كذلك، استخدام التعبير للفظ النكرة " **مَصَابِيحَ** "، لما يفيده التنكير هاهنا من التعظيم.

والتعبير الخبري في هذه الآية يؤكد علاقة جزئياته بعضها ببعض، فبالإضافة إلى تزيين المصابيح للسماء الدنيا، فهي –أيضاً– رجوم للشياطين الذين سينالون العذاب في الآخرة "فالرجوم في الدنيا وعذاب السعير في الآخرة لأولئك الشياطين"[2].

وجاء الخبر حافلاً بالأفعال الماضية " **زَيَّنَّا** " و "**جَعَلْنَا**" و "**أَعْتَدْنَا**"، مع أنّ بعضها سيقع في المستقبل؛ للدلالة على حتمية وقوعها، وللتأكيد على أنّ هذه الحقائق ثابتة في الكون، وكما أنّ تكرار الضمير المتصل "نا" في تلك الأفعال، يؤكد على قدرته وملكوته –سبحانه– في هذا الكون، وفي هذا الإسناد تقوية لدفع الإنكار الحاصل. وتأكيد الخبر "بلام القسم" و "قد" التي تفيد التحقيق، تنزيل للذين هم المقصود من الخطاب منزلة من ينكر مضمون الخبر.

---

[1] سورة الملك: آية5.

[2] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، مجلد6، ص3634.

ومن الأساليب الخبرية الدّالة على التأكيد قوله تعالى: "**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**"[1] فالخطاب في هذا الخبر موجّه للمشركين الذين ينكرون أنّ الله هو الذي مكّنهم في الأرض ويسّر لهم سُبل عيشهم عليها، وفي قوله " **مَكَّنَّاكُمْ**"، أي : "ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرّف فيها"[2].

ففي الخطاب تذكير لهم بأنّ الله تعالى هو المسؤول عن الخلق؛ لأنّه خالقهم، وفيه –أيضاً– توبيخ لهم على قلة شكرهم لله تعالى في قوله " **قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ** "، لا سيّما وأنّهم كانوا ينشغلون بعبادة الأصنام التي جعلتهم يعرضون عن شكره وعن الإقبال عليه.

وقد جاء الفعلان الماضيان "**مكّنا**" و " **جَعَلْنَا** " متصلين بالضمير "نا" دلالة على حضور قدرة الله –تعالى– وإحاطته بمتعلقات البشرية، وفي تكرار حرف الجرّ "في" الدّال على الظرفية المكانية أثر في تقوية المعنى.

وكما أنّ تأكيد الخبر "بلام القسم" وحرف التحقيق "قد"، "تنزيلٌ للذين هم المقصود من الخطاب منزلة من ينكر مضمون الخبر، لأنّهم لما عبدوا غير الله كان حالهم كحال من ينكر أنّ الله هو الذي مكّنهم من الأرض، أو كحال مَنْ ينكر وقوع التمكين من أصله"[3].

وفي قوله تعالى: "**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**"[4] فالخطاب في هذا الأسلوب موجّه إلى المشركين الذين أنكروا تفرّد الله –تعالى– بالربّوية، وعندما أنزل الخبر المشركين من المخاطبين منزلة المتردد في مضمون الخبر؛ لاستمرار إعراضهم في عباداتهم عن الله –سبحانه– فقد تمّ تأكيد هذا الخبر بحرف التأكيد "إنّ" لدفع ذلك التردد.

وفي قوله تعالى:" **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ**" "جعل المسند إليه " رَبَّكُمُ "؛ لأنّ الكلام جار مع مَنْ ادّعوا أرباباً، والمقام للجدال في تعيين ربّهم الحقّ، فكان الأهم عند المتكلّم من المعرفتين عند

---

[1] سورة الأعراف: آية10.

[2] الزمخشري، أبو القاسم جار الله: **الكشاف**، مجلد2، ص68.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء9، ص33.

[4] سورة الأعراف: آية54.

المخاطبين: هو تعيين ربّهم، فجعل ما يدل على ربّهم مسند إليه، وأخبر عنه بأنّه هو الذي يعلمون أنّه الله"[1].

ومجيء الاسم الموصول " **الَّذِي** " وهو صفة للفظ الجلالة " **اللَّهُ** " يوحي بانفراده سبحانه بالرّبوبية. وفي قوله "**في ستة أيام**"، دلالة على قدرة الله –تعالى– العظيمة، وتنبيه المشركين لحجم ضلالهم وبعدهم عنه –سبحانه–.

ونتأمل أكثر في الأسلوب الخبري الآتي، يقول –تبارك وتعالى–: "**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ**"[2] والخبر يسجّل حدثاً مهمّاً وهو إثبات وقوع البحث، وفيه إنذار ووعيد لمن يسمعه. وقد جاء الخبر ابتدائياً خالياً من أدوات التأكيد؛ لأنّه موجّه لمن لا يعلمون شيئاً عن مضمونه. ونلاحظ مدى ملائمة الترتيب الزمني للفعل "فزع"، فقد جاء بعد الفعل " **يُنْفَخُ** " "فالفزع حاصل ممّا بعد النفخة وليس هو فزعاً من النفخة، لأنّ الناس حين النفخة أموات"[3]. وجيء بالفعل المضارع " **يُنْفَخُ** " الدّال على الاستقبال، بينما جيء بالفعل الماضي في قوله " **فَفَزِعَ** " مع أنّ حدث النفخ سيقع في المستقبل؛ وذلك إشارة بتحقق وقوع الفزع، وكما يعجّ هذان الفعلان بصور حركية وصوتية تترك أثرها في المعنى وتجلّيه.

وفي الاستثناء في قوله "**إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ**" إشارة لطمأنة الفئة المؤمنة، وبشارة لها بالحفظ والأمان في ذلك اليوم المفزع، وفي تكرار حرفي الجرّ "مَنْ" و "في" أثرهما في المعنى، ففيهما معنى الشمول والإحاطة لذلك الحدث.

وبعد أن تعرّفنا إلى أساليب التعبير الخبري في صورتي السماء والأرض ، نلاحظ أنّ تلك الأساليب قد أسهمت في إغناء الصورة الفنية ،فاختلاف صور التعبير الخبري وتعدّد أشكالها زاد من القيمة البلاغية لتلك الصور لا سيّما وأنّ هذا الأسلوب كشف لنا عن المعاني المتغلغلة داخل النص ، التي بدورها أسهمت في الوصول إلى كنْه الأسلوب وإبرازه بشكل واضح .

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء9، ص160.

[2] سورة النمل: آية 87.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء21، ص46.

ب- أساليب التعبير الإنشائي.

عرفنا مما سبق أنّ الإنشاء على عكس الخبر، وهو ما لا يحتمل الصدق والكذب في الكلام. والإنشاء ينقسم إلى نوعين: إنشاء طلبي، وإنشاء غير طلبي. والإنشاء الطلبي: "وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب"[1]، ويشمل صيغ الأمر، والنهي، والتمني، والاستفهام، والنداء.

وقد عرّفه الهاشمي بقوله: "هو ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا إذا تلفظت به، فطلبُ الفعل في "أفعَلْ"، وطلب الكف في " لا تفعَلْ" وطلب المحبوب في "التّمني"، وطلب الفهم في "الاستفهام"، وطلب الإقبال في "النّداء"، كلّ ذلك ما حصل إلا بنفس الصّيغ المتلّفظ بها"[2].

وهذه الأساليب كلّها لا تحتمل صدقاً ولا كذباً، ولا وجود لمطلوبها قبل النطق بها. أمّا الإنشاء غير الطلبي: "لا يستدعي في مطلوبة إمكان الحصول"[3]، ويكون: بصيغ المدح والذّم، وصيغ العقود، والقسم، والتّعجّب، والرّجاء.

ونلمس ها هنا الفرق بين الإنشاء الطلبي وغير الطلبي، في أنّ الإنشاء الطلبي يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه، أمّا غير الطلبي ففيه يقترن الاثنان، ففي الوقت الذي يتحقق فيه وجود لفظه يتحقق كذلك وجود معناه.

وعلماء البلاغة لم يبحثوا في الإنشاء غير الطلبي، ولم يعدّوه من مباحث علم المعاني؛ وذلك "لقلة الأغراض البلاغية التي تتعلق به من ناحية"[4]، ولأن "أكثر صيغه في الأصل أخبارٌ نقلت إلى الإنشاء[5] من ناحية أخرى.

---

[1] القزويني، الخطيب: **الإيضاح في علوم البلاغة**، جزء1، ط4، دار الكتاب اللبناني: بيروت- لبنان، ص227.

[2] الهاشمي، احمد: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص75.

[3] السكاكي: **مفتاح العلوم**، ص302.

[4] عتيق، عبد العزيز: **علم المعاني**، ص74.

[5] الهاشمي، أحمد: **جواهر البلاغة**، ص76.

ومن خلال تتبعنا للأساليب الإنشائية في صورتي السماء والأرض في القرآن الكريم، وجدناها تنحصر أكثر ضمن دائرة الإنشاء الطلبي. فمن الأساليب الإنشائية التي أسهمت في رسم ظلال الصورتين هي: الاستفهام، والأمر، والنداء.

***الاستفهام:**

من أنماط تركيب الجملة الإنشائية الطلبية، وهو "استخبار وطلب من المخاطب أن يخبر أو يفهم عن شيء لم يكن معلوماً بأداة خاصة"[1] والأدوات الموضوعة له حروف وأسماء وظروف وهي: "الهمزة وهل"، "وما، ومن، وأيّ، وكم"، و" كيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيّان".

والاستفهام من موضوعات علم المعاني التي تترك أثراً واضحاً في المتلقي، فهو من أوفر أساليب الكلام إظهاراً للمعانى، وأكثرها إثارة لمواقف الانفعال، واستمالة الوجدان، كما يُعدّ شكلاً متميّزاً من أشكال التنوّع في الأساليب، ممّا يضفي قيماً جمالية على النص، وتجعل المتلقي أكثر تفكيراً وتأملاً فيه، "كما يحدث الاستفهام تنوّعاً من ذاته وبذاته؛ وذلك لتنوّع أدواته والمعاني التي يفيدها مما يبعد النص الأدبي عن النمطيه والرتابة التي تذهب برونق العمل الأدبي. بالإضافة إلى ما يقتضيه أسلوب الحوار بين الأنبياء وأقوامهم لإقامة الحجة والإقناع وامتزجت بالنصيحة في كثير من الأحيان"[2].

والاستفهام يخرج عن معانيه الأصلية إلى معانٍ أخرى مجازية تُفهم من سياق الكلام؛ لتحقق أغراضاً بلاغية، كالنفي، والتعجب، والتقرير، والأمر، والتمني، والتشويق، والإنكار، والتعظيم، والتحقير، والتهديد، والاستبعاد، وغيرها.

وقد جاء أسلوب الاستفهام في صورتي السماء والأرض مستأثراً بالنصيب الأكبر دون غيره من الأساليب الإنشائية الأخرى، وهذه الكثرة في استعماله إنّما تدل على قوة تأثيره **وتعدد** دواعيه.

---

[1] انظر: الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ط1، دار الكتب العلمية: بيروت– لبنان، 1409هـ –1988م، ص108

[2] مصطفى، محمود السيد: **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية**، ط1، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1981م، ص253.

ومن ذلك قوله تعالى: " **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**"[1]، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، بأنّ الله تعالى قد بيّن له من أسرار ملكوته الدقيقة والخفية، "والهمزة للتقرير، والرؤية هنا بمعنى العلم، والظاهر أنّ إطلاقها عليه حقيقة، وإطلاقها على العلم استعارة أو مجاز لعلاقة اللزوم" [2] . فالتقدير : ألم تعلم ، واستعمال الرؤية في العلم استعارة تصريحية تبعية، حيث شبّه العلم الحاصل بإخبار الله الصادق بالمرئي بالبصر، دلالة على كمال الإيقان في كليهما. فهو استفهام تقريري[3]، يؤكد على التنبيه على جلال الله وعظمته، وخضوع مختلف المخلوقات له، بالإضافة إلى التعريض بغباوة الذين كفروا وإجرامهم في حق أنفسهم عندما ابتعدوا عن تسبيح خالقهم.

والاستفهام الذي استهلت به الآية جاء بالهمزة الداخلة على فعل منفي "ألم تر" "استفهام تقرير لمفعول الرؤية، وهذه قاعدة مطردة في هذا التركيب حيثما ورد، لأنّ نفي النفي إثبات"[4]. وهذا النوع من الاستفهام من أكثر أشكال الاستفهام وروداً في الصورتين.

والاستفهام تضمن جملة خبرية " **أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ**...."، فقد أُكِد الخبر بـــ " **أَنَّ** " والجملة الاسمية؛ للدلالة على تحققه، كما أنّ الخبر في الجملة الاسمية جاء جملة فعلية " **يُسَبِّحُ** "؛ لتوكيد مضمونه، ولتأكيد وقوع التسبيح واستمراره في كلّ الأزمة. كما نلاحظ تكرار الإسناد للفظ الجلالة "الله"، عن طريق الجملة الفعلية "يسبح" تارةً، ثمّ الضمير المتصل في "له" تارةً أخرى. كما أنّ هناك سرّاً في تقديم " **السَّمَاوَاتِ** " على " **الْأَرْضِ** "؛ لشرف المقدّم؛ فقوله " **مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ** " كناية عن موصوف هو الملائكة، وقوله "**الْأَرْضِ**"، كناية عن موصوف وهم الناس الملكلّفون بالعبادة. ونلمح في هذا التركيب حذف يتعلق "بالأرض" دلّ عليه التركيب السابق، ووجود حرف العطف "الواو" والتقدير "ومَنْ في الأرض". كما أنّ "مَنْ" دالة هنا على العقلاء وغيرهم.

---

[1] سورة النور: آية41.

[2] أبو الفضل، محمد الألوسي: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، جزء 18، ص188.

[3] التقرير: "حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده".[انظر :الزركشي، الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله: **البرهان في علوم القرآن**، ج2، ص331].

[4] المطعنى، عبد العظيم إبراهيم: **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، جزء2، ط1، مكتبة وهبة – القاهرة، 1420هـ، 1999م، ص174.

وفي قوله تعالى: " **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ**"[1]؟ فالاستفهام يقرّر حقيقة مهمّة وهي انقياد وخضوع كلّ ما في الكون لله سبحانه وتعالى، وقد جاء التركيب الاستفهامي" **أَلَمْ تَرَ**" حيث دخول همزته على فعل منفي دون توسّط عاطف بينهما، فهو استفهام تقريري. والمقصود منه الحث على التأمل، وإخلاص الطاعة لله سبحانه، واستشعار جلاله وعظمته. وتقدّم التركيب " **مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ** " على " **وَمَنْ فِي الْأَرْضِ** "؛ لتعظيم وشرف المقدّم. أما الرؤيا "فهي علمية قلبية قد يشوبها بعض الإبصار الحسّي بحسب الأنواع المذكورة، فسجود كثير من الناس الرؤية فيه بصرية لا محالة"[2].

ومثله الاستفهام في قوله تعالى: "**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**"[3]، ويرد الاستفهام التقريري؛ ليصوّر حال المخاطبين، ففيه "بيان لإبعادهم في الضلال، وعظيم خطئهم في الكفر بالله؛ لوضوح آياته الشاهدة له، الدّالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنّه هو الحقيق أن يُعبد ويُخاف عقابه ويُرجى ثوابه"[4].

وقد اشتمل الاستفهام على جملة خبرية " **أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** "، تمّ تأكيدها بحرف التأكيد "أنّ"، وبالجملة الاسمية؛ لأنّ الخبر من الحقائق العظيمة. وتقديم " **السَّمَاوَاتِ** " على " **الْأَرْضَ**"؛ لما في خلقها ورفعها بلا أعمدة دلالة باهرة على قدرته سبحانه وتعالى.

ومن استفهام التقرير الذي يذكّر الناس بنعم الله سبحانه وتعالى على عباده قوله تعالى: "**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ**"[5] فالخطاب عام موجه لجميع البشر المكلفين، وقد تكرر في صدر الاستفهام التركيب السابق " **أَلَمْ تَرَ** " وهو استفهام تقرير وتذكير وامتنان.

---

[1] سورة الحج: آية 18.

[2] المطعني، عبد العظيم إبراهيم: **التفسير البلاغي للاستفهام**، جزء2، ص391.

[3] سورة إبراهيم: آية19.

[4] الزمخشري، أبو القاسم جار الله: **الكشاف**، مجلد2، ص372.

[5] سورة الحج: آية65.

ومثله قوله تعالى: "**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**"[1]؟؛ إلاّ أنّ التسخير ها هنا جاء شاملاً لنعم الله المتعددة في السموات، ونعمه في الأرض بينّما في الآية السابقة جاءت لافتة لنعمه في الأرض خاصة.

وفي قوله: " **أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ**..." جملة خبرية مؤكدة بحرف التأكيد "أنّ" واسمية الجملة؛ لتأكيد مضمون الخبر الذي يعبّر عن حقيقة عظيمة، وفي قوله " **أَلَمْ تَرَ** " فالرؤية هنا شاملة للبصرية والعلمية، لأنّ التسخير لموجودات السماء وموجودات الأرض منها ما يُرى بالبصر، ومنها ما يُعْلَم دون رؤيته. كما أنّ تكرار حرف الجر " **فِي** " تفيد تمكين نعم الله سبحانه في السماء والأرض، ثمّ تمكين المخاطبين بما فيهما.

ومن الأساليب الاستفهامية التقريرية الدّالة على سعة علم الله عزّ وجلّ وإحاطته بموجودات الكون قوله تعالى: " **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**"[2]؟ والخطاب للمنافقين "لإشعارهم بعلم الله بماذا يتناجون، وأنّه مُطْلع رسولَه صلى الله عليه وسلم على دخيلتهم، ليكفوا عن الكيد للمسلمين"[3]. ونلمح كذلك أنّ الخطاب لكلّ الناس، فإنّ شعور من الخوف والحذر يسيطر على السامع.

وفي قوله " **أَلَمْ تَرَ** " من الرؤية العلمية؛ لأنّ علم الله يدرك بالعقل، فهو "لا يُرى، والتقدير: ألم تر الله عالماً"[4]. وفي قوله " **أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** " جملة خبرية تشتمل على حقيقة عظيمة لذا فقد أكدت بحرف التأكيد "أنّ" والجملة الإسمية، واختيار الفعل المضارع " **يَعْلَمُ** "؛ لشمول علم الله سبحانه واستمراريته في كلّ زمان ومكان.

وتتوالى الاستفهامات بالهمزة المنفيّة، يقول تعالى: "**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ**"[5] والخطاب في الآية "للاستدلال على تفرد الله بالألوهية بدليل من مخلوقاته التي

---

[1] سورة لقمان: آية20.

[2] سورة المجادلة: آية7.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء29، ص25.

[4] المرجع السابق: جزء29، ص26.

[5] سورة الزمر: آية21.

يشاهدها الناس مشاهدة متكررة"[1]. "والكلام استفهام تقريري، والخطاب لكلّ من يصلح للخطاب، فليس المراد به مخاطباً معيناً، والرؤية بصرية"[2]. بالإضافة إلى معنى التقرير، فقد خرج الاستفهام لمعانٍ بلاغية أخرى وهي "الامتنان على العباد، والتعريض بأهل الكفر الذي لم يلقوا بالاً للاعتبار بما ذكر. تعريضاً بهم بالسفة وذهاب العقول. ثمّ لفت الأنظار إلى دلائل قدرة الله الموجبة للإيمان به، والامتثال لما يأمر به أو ينهى عنه"[3].

وقد تلى الاستفهام جملة خبرية " **أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ...**" مؤكدة بمؤكدين هما: حرف التأكيد "أنّ"، والجملة الإسمية، وذلك ليتناسب مع مضمون الخبر الدّال على قدرة الله وعظمته، ومجئ الفعل "الماضي"؛ للدلالة على تحقيق وقوع الحدث. كما أنّ تكرار التنكير في كلمتي: "ماء" و " **يَنَابِيعَ** " للتكثير والتعميم والتفخيم. ويتكرر مثل هذا الاستفهام في آيات أخرى[4].

ولنتأمل الاستفهام في قوله تعالى: " **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ**"[5]، فالاستفهام في صدر الآية " **أَوَلَمْ يَرَوْا** " تقريري، والرؤية بصرية؛ وذلك لأنّ المخاطبين يرون بأبصارهم كيف يُساق الماء إلى الأرض المجدبة، ثمّ خروج الزروع منها، إلاّ أنّهم لا يتدبرون هذا الأمر بعقولهم وقلوبهم. وفي قوله " **أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ** " جملة خبرية مؤكدة بمؤكدين، ومجيء الفعل المضارع "**نسوق**"؛ للدلالة على الاستمرارية، فما دام هناك مخلوقات على وجه الأرض فهي بحاجة إلى استمرارية سوق الماء. وهناك تناسب بين صدرالآية والفاصلة، إذ لّما كانت الرؤية بصرية جاءت الفاصلة" **أَفَلَا يُبْصِرُونَ** ".

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء34، ص377.

[2] المرجع السابق: جزء24، ص377.

[3] المطعنى، عبد العظيم إبراهيم: **التفسير البلاغي للاستفهام**، جزء3، ص420.

[4] انظر: الحج: آية 63، وفاطر: آية27.

[5] سورة السجدة: آية27.

ومن الاستفهام الدّال على التقرير والامتنان قوله تعالى: " **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا**"[1] وقوله تعالى: " **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا**"[2]، ومجيء الفعل المضارع "**نجعل**" للدلالة على استمرارية جعل الأرض ممهدة ومأوى للعباد، وهنا جاء التعبير عن الماضي بلفظ المضارع "وهو ماضٍ في المعنى، فجيء بالمضارع منفياً بـ "لم" لتقلب معناه إلى المضي فيتحقق ذلك الجعل في الماضي. ثم يدل المضارع –بعد ذلك– على كينونة هذا الجعل في الحاضر والمستقبل، فالمضارع في هذا النظم بمنزلة فعلين، ماض، ثم مضارع، والألف واللام في "الأرض" إمّا للعهد الذهني الحضوري وإمّا لتعريف الجنس"[3]. كما أنّ تنكير لفظي " **كِفَاتًا** " و " **مِهَادًا** " للتعظيم والتفخيم.

ومن الاستفهام التقريري الذي يقرّر فيه المستفهِم للمخاطَب أنّه يعلم بالمستفهَم عنه قوله تعالى: " **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**"[4]. فقوله تعالى: "**ألم تعلم**" معناه: "قد علمت"، فالتعبير القرآني ها هنا آثر استخدام الأسلوب الإنشائي وهو الاستفهام على الأسلوب الخبري؛ لما في الاستفهام من أثر في تحفيز وإثارة ذهن المتلقي لتذوق المعنى المقرّر، ثمّ مشاركته في اعتماد إجابة مناسبة للسؤال وفق ما يقتضيه المضمون.

وقد أُكِد الخبر في "**أنّ الله له ملك...**" بمؤكدين هما: حرف التأكيد "أنّ "، والجملة الاسمية؛ نظراً لأهمية موضوع الكلام. وفي قوله : " **لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** " تقديم المسند "**له**" على المسند إليه " **مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** "، لاختصاصه سبحانه بالملك دون غيره. ونلاحظ تكرار الإسناد في الجملة، فالضمير في"**لَهُ** " عائد على لفظ الجلالة "**الله**"، والجملة الاسمية " **لَهُ مُلْكُ**.." مسندة كذلك إلى لفظ الجلالة.

---

[1] المرسلات: آية25.

[2] النبأ: آية6.

[3] المطعنى، عبد العظيم إبراهيم: **التفسير البلاغي للاستفهام**، جزء4، ص338.

[4] سورة المائدة: آية40.

ومثل هذا الاستفهام يتكرر –كذلك– في قوله تعالى: " **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**"[1] فالاستفهام يقرّر إحاطة علم الله تعالى بكلّ ما يحدث في السموات والأرض، فالفعل المضارع " **يَعْلَمُ** " يدل على استمرارية وشمول الحدث، كما أنّ تقديم " **السَّمَاءِ** " على " **الْأَرْضِ** " يدل على شرف ومنزلة المقدّم.

ونتأمل الاستفهام التقريري بـ "أوليس" في قوله تعالى: " **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**"[2] فالآية تتضمن الرد على الكفّار الذين استبعدوا قدرة الله تعالى على إعادة الحياة للأموات، مع أنّ هذا الأمر سهل عليه، لا سيّما وأنّه خلق أعظم من ذلك وهي السموات والأرض؛ لذا فهو قادر على أنْ يخلق مثلهم، فالاستفهام "مسوق لبيان بطلان كفرهم بالبعث مع مشاهدتهم لما يوجب الإيمان به"[3]. وقد جاء جواب الاستفهام بـ " **بَلَى** "؛ "تأكيداً لما تضمنه السؤال، وللدلالة على أنّ أيّ مخاطب لو سُئل هذا السؤال لما استطاع الإنكار ولما وسعه إلا أن يجيب بـ "بلى" أيّ إنّ الله قادر على أن يخلق مثلهم"[4].

وجاء التعبير باسم الموصول " **الَّذِي** " وصلته دون لفظ الجلالة "الله"؛ لما في الصلة من دلالة قوية في إبراز وتوكيد المعنى. ودخول الحرف "الباء" في قوله " **بِقَادِرٍ**"، لتوكيد صلة الخبر بالاسم "الذي".

وفيما سبق تكرّر تتابُع ظهور الهمزة مع أسلوب الاستفهام لتشكل نمطاً أسلوبياً خاصاً لا سيّما وأنّ الهمزة ملمح صوتي ثقيل؛ نظراً لطبيعة مخرجها وقوة اندفاعها.

وجاء غرض الاستفهام بـ "مَنْ"، وهي اسم يُسأل بها عن العاقل في قوله تعالى: "**قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**"[5]، والسؤال ها هنا عن ملكية الأرض، ومن فيها لمن تكون، فالله

---

[1] سورة الحج: آية70.

[2] سورة يسن: آية 81.

[3] أبو السعود، محمد بن محمد العماري: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، جزء3، ص106.

[4] اللبدي، عبد الرؤوف سعيد عبد الغني: **همزة الاستفهام في القرآن الكريم**، المكتبة الوطنية– عمان: الأردن، ص231.

[5] سورة المؤمنون: آية84.

سبحانه هو الذي خلق الأرض ومَنْ فيها من مخلوقات. وفي الاستفهام إقرار بملكية الله سبحانه للأرض ومن عليها، وهذا يقودهم إلى الإقرار بأنّه سبحانه هو الذي خلق فملك ما خلق. وفي قوله " **إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** "، أيّ تعلمون "شيئاً من العلم، وجواب الشرط محذوف أي: "إن كنتم تعلمون فأخبروني"، وفي هذا تلويح بجهلهم وفرط غباوتهم"[1].

واللافت للنظر هو تقديم "**مَنْ**" على "**الْأَرْضُ** "، وذلك أنّ المقرر به من السؤال هو المالك، حيث كنّى عنه بـ "**مَنْ**"، ومما زاد في تقوية المعنى المراد وجود حرف اللام في "**لِمَنْ**" الدّال على الملكية والاختصاص. ونظراً لأهمية المقول، فقد صُدّرت الآية بفعل الأمر "قل".

وفي قوله تعالى: "**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ**"[2]؟ والغرض من هذا الاستفهام إقرار المشركين بربوبية الله تعالى للسموات والأرض، على الرغم من عبادتهم الأصنام واعتقادهم الباطل أنّها تقربهم من الله تعالى، وقد جاء الجواب بعد السؤال في قوله " **قُلِ اللَّهُ** " للتنبيه على أنّ المشركين يقرون للرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الجواب ولا ينكرونه، و "حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم، لأنّه إذا قال لهم" مَنْ رب السموات والأرض؟ لم يكن لهم بدّ من أن يقولوا : الله[3] "فالله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب فقال: "قل الله"، فكأنّه حكى جوابهم وما يعتقدونه؛ لأنّهم ربما تلعثموا في الجواب حذراً مما يلزمهم"[4].

وفي ذكر جواب السؤال في الآية سرّ بلاغيّ وهو "أنّ القرآن يحرص على ذكر جواب الاستفهام المجازي في المواضع التي لا صلة للخيال بصوغ الإجابة عليها"[5].

---

[1] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية عن علم التفسير**، جزء3، دار الفكر، بيروت، ص495.

[2] سورة الرعد: آية 16.

[3] الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر: **الكشّاف**، مجلد2، ص355.

[4] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: **فتح القدير**، جزء3، ص74.

[5] المطعني، عبد العظيم إبراهيم: **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم**، جزء2، ص153.

وقد صُدّر الاستفهام بفعل الأمر "**قل**"؛ للفت الانتباه إلى موضوع الاستفهام وأهميته لا سيّما وأنّ المخاطبين فيه هم المشركون، وفي ذلك إلزام وإقامة الحجّة عليهم.

ومثل هذا الاستفهام بـــ "**مَنْ**" وتصديره بفعل الأمر "قل" قوله تعالى: " **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ**"[1] فالمشركون يقررون برب السموات السبع ورب العرش العظيم، وقد أعيد ذكر " رَبُّ " في الآية؛ "تنويهاً لشأن العرش ورفعاً لمحله عن أن يكون تبعاً للسموات وجوداً وذكراً، ولقد روعي في الأمر بالسؤال الترقي من الأدنى إلى الأعلى"[2].

وقد جاء جواب السؤال بقوله: " **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ** "، "باللام "؛ نظراً إلى معنى السؤال، وكان مقتضى نص الاستفهام أن يأتي الجواب بالتعيين، كما جاء في الآية السابقة، أيّ: "سيقولون: لله"، إلاّ أنّ الجواب ها هنا قد اختلف، والسبب كما يبدو "أن السؤال لما كان عن "رب" ورب الشيء هو مالكه. كان الجواب "لله" متمثلاً على المعنيين معاً : التعيين بأنّ ربّ السموات والعرش هو: الله، وملكية الله للسموات والأرض"[3].

وهناك ملاحظات أسلوبية نجدها في نظم هذه الآية الكريمة، ومنها: تعريف العدد " **السَّبْعِ** "؛ توكيداً للمعدود، وتقديم " **السَّمَاوَاتِ** " على " **الْعَرْشِ** "، وهذا يتلاءم مع الإنسان المخاطب، حيث السموات بالنسبة إليه مرئية ببصره من خلال المخلوقات الظاهرة له، أمّا العرش فهو غير مرئي، والعلم به يكمن من خلال الأخبار التي جاء بها القرآن الكريم.

كما وُصف العرش بلفظ " **الْعَظِيمِ** " وهي معرفة؛ لبيان عظمة الله سبحانه وجلاله ، بالإضافة إلى زرع معاني الخوف والقهر والقوة والغلبة في قلوب المخاطبين.

---

[1] المؤمنون: آية 86، 87.

[2] أبو السعود، محمد بن محمد العماري: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، جزء6، ص148.

[3] المرجع السابق: جزء6، ص148.

وتضمن الاستفهام بـــ "مَن" قوله تعالى: " **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**"[1]؟ وقـــد جـــاء الاستفهام للتقرير، وفيه "أمر بتبكيت المشركين بحملهم على الإقرار بأنّ آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما، وأنّ الرازق هو الله تعالى"[2].

وجاء في نظم الآية تقديم الرزق من السماء على الرزق من الأرض؛ لأنّ رزق الســـماء وهو "المطر" أصل الرزق الذي يأتي من الأرض. وإيثار الفعل المضارع " **يَرْزُقُكُمْ** "؛ دلالة على استمرار منح الله تعالى الأرزاق للعباد وتفاوت درجات ذلك.

ويمضي الاستفهام للتقرير بالفاعل في قوله تعالى: "**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْـــأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**"[3] وفي الآية لمسات أسلوبية ظاهرة، "فاللام" في صدرها جاءت موطئة للقسم، و "إن" للشرط، وجاء جواب القسم " **لَيَقُولُنَّ** " مؤكد "باللام" ونون التوكيد الثقيلة، وفي ذلك إشارة إلى أنّ المشركين يعتقدون إعتقاداً جازماً بخلق الله تعالى للكون. وفي جملة الجـــواب "**ليقـــولن**" إيجـــاد حذف، والتقدير: "خلقهن الله" أو "الله خلقهّن".

وكما في تقديم السموات على الأرض معنى بلاغي وهو التعظيم؛ لأنّ خلقها أســـبق مـــن خلق الأرض.

ويتكرر مثل هذا الاستفهام في قوله تعالى:" **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْـــأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**"[4] فهم "يعترفون بذلك لا يجدون إلى إنكاره سبيلاً، ثـــمّ لمـــا اعترفوا هذا الاعتراف وهو يقتضي بطلان ما هم عليه من الشرك وعـــدم إفـــراد الله ســـبحانه بالعبادة، أمر رسول صلى الله عليه وسلم أن يحمد على إقرارهم وعدم جحودهم مع تصلّبهم في العناد وتشددهم في ردّ كل ما جاء به رسول الله من التوحيد"[5].

---

[1] سورة يس: آية31.

[2] أبو السعود، محمد بن محمد العماري: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، جزء7، ص132.

[3] سورة الزمر: آية38.

[4] سورة العنكبوت: آية63.

[5] الشوكاني، محمد بن علي محمد: **فتح القدير**، جزء4، ص211.

ومضمون السؤال في هذه الآية يرتكز على إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به، دون خلقها – كما مرّ سابقاً–؛ ففضل الله تعالى على عباده من خلال إنزال المطر وإحياء الأرض ظاهر لديهم، يستشعرون به.

ونلمح صيغة التضعيف في " نَزَّلَ " للتكثير، والتنكير في " مَاءً " للتعظيم والتكثير. كما أنّ في تقديم " السَّمَاءِ " على " مَاءً " إشارة للتأكيد. بمكان الماء، ليبقى حاضراً في أذهان المخاطبين.

ومن الاستفهام "بالهمزة" في قوله تعالى: "**أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**"[1] وفيه إنكار للمخاطبين حول زعمهم بأنّ أصنامهم ستكون شافعة لهم يوم القيامة، أيّ: "أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده؟ وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له، وهو العالم بالذات، المحيط: بجميع المعلومات لم يكن شيئاً، لأنّ الشيء ما يعلم به ويخبر عنه، فكان خبراً ليس له مخبر عنه، فإن قلت: كيف أنبأوا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام وإعلام بأنّ الذي أنبأوا به باطل غير منطو تحت الصحة، فكأنّهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه"[2].فالاستفهام جاء للإنكار [3]، والتهكم بالمشركين وبما قالوه.

ونلاحظ أن الاستفهام جاء بالهمزة مع الإثبات، فالتركيب جاء كناية عن انتفاء زعمهم شفاعة أصنامهم، لأنّه لو كان ما قالوه حقاً لعلمه الله، فانتفاء علم الله به انتفاء له نفسه، وجاء التكرار في حرف النفي "لا"، وحرف الجرّ "في"، تأكيداً للنفي. والإنكار "إذا وقع في الإثبات يجعله نفياً، وإذا وقع في النفي يجعله إثباتاً"[4].

ومن استفهام الإنكار الذي ينكر فيه سبحانه وتعالى على المشركين الذين اعتقدوا أنّ الله تعالى لن يعاقبهم على كفرهم وعنادهم، قوله تعالى: " **أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا**

---

[1] سورة يونس: آية18.

[2] الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر: **الكشّاف**، مجلد2، ص230.

[3] ومعنى غرض الإنكار أن نُنكر على المخاطَب، وتستهجن منه ما حدث "ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، عن فعل ما همّ به" .[انظر:القزويني، الخطيب: **الإيضاح**، جزء1، ط4، دار الكتاب اللبناني، ص236].

[4] الهاشمي، أحمد: **جواهر البلاغة**، ص94.

هِيَ تَمُورُ"[1] فالاستفهام "إنكار وتوبيخ وتحذير؛ لأنّه لمّا تقرر أنّه خالق الأرض ومذللها، وتقرر أنّهم ما رعوا خالقها حقّ رعايتها، فقد استحقوا غضبه، وتسليط عقابه، بأن يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض"[2].

لقد جاء استخدام الفعل الماضي " أَأَمِنْتُمْ " لتأكيد الإنكار وفي قوله" مَنْ فِي السَّمَاءِ" أي "الملائكة الموكلين بتدبير هذا العالم أو الله سبحانه، على تأويل "من في السماء أمره وقضاؤه، أو على زعم العرب حيث كانوا يزعمون أنّه تعالى في السماء، أيّ :"أأمنتم من تزعمون في السماء" وهو متعال عن المكان"[3].والفعل المضارع " تَمُورُ " دلالة على تكرار الحدث، و "إِذَا" دلالة على المفاجأة.

وفي قوله تعالى: " أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ"[4]؟ وهذا الاستفهام يبيّن إعراض المشركين عن الآيات المبثوثه في الكون الدالة على وحدانية الله تعالى، "والهمزة للإنكار التوبيخي، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام. أي: أأصروا على ما هم عليه من الكفر بالله وتكذيب ما يدعوهم إلى الإيمان به عزّ وجل، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة لهم عن ذلك والداعية إلى الإيمان به تعالى"[5].

والمقصود من الاستفهام "إقامة الحجة عليهم بأنّهم لا تغني فيهم الآيات؛ لأنّ المكابرة تصرفهم عن التأمل في الآيات، والاستفهام إنكار على عدم رؤيتهم ذلك؛ لأنّ دلالة الإنبات على الصانع الواحد دلالة بيّنة لكلّ من يراه، فلما لم ينتفعوا بتلك الرؤية نزلت رؤيتهم منزلة العدم فأنكر عليهم ذلك"[6].

وقد لفتت الآية الأنظار إلى ذكر " الْأَرْضَ " أولاً، ثم كثرة ما أنبت فيها من نبات؛ للتنبيه إلى أنّ النبات يكاد يعمّ جميع الأرض، ولعلّ الجمع بين كلمتي " كَمْ " و " كُلِّ " في الآية خير

---

[1] سورة الملك: آية16.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء30، ص33.

[3] أبو السعود، محمد بن محمد العماري: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، جزء9، ص7.

[4] سورة الشعراء: آية7.

[5] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، مجلد19، ص62.

[6] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء20، ص151.

مثال على ذلك، فقد دلّ "كلّ" على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و "كم" علـــى أنّ هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة"[1].

وقد وُصف الزوج بـــ "الكريم"؛ "للتنبيه على أنّه تعالى ما أنبت شـــيئاً إلا وفيـــه حكمـــة فائدة"[2].

وحرف الجرّ "مِنْ" في قوله " **مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ** " أفاد التبعيض، وكلمة " **زَوْجٍ** "، تدل علـــى الإناث والذكور من كل نوع من النبات، ليتم التلقيح بينها. كما أنّ إسناد الإنبات إلى الضمير "نا" العائد على "الله" دلالة على التعظيم والتفخيم.

وجاء الاستفهام الإنكاري في قوله تعالى: " **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**"[3] للرد على منكري البعـــث الـــذين أنكروا قدرة الله سبحانه على إعادة الحياة للموتى، وهذا الأمر أيسر عليه سبحانه من خلقه لأول مرّة. وقد ورد في صدر الآية قوله: " **أَوَلَمْ يَرَوْا** " فـــ "الهمزة للإنكار، والوار عطف على مقـــدر يستدعيه المقام، والرؤية قلبية، أيّ: ألم يتفكروا ولم يعلموا "**أن الله خلق السموات والأرض**". وفـــي قوله "**ولم يعيَ بخلقهن**" أيّ: لم يتعب، ولم يعجز عن خلقهن، ولم يتحير فيه"[4].

وفي قوله : " **أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**.." جملة خبرية، أكّدها بـــــ "أنّ" والجملـــة الاسمية؛ لأهمية مضمونها. وجاء حرف الجر "الباء" في قوله: " **بِقَادِرٍ** "؛ لتوثيـــق الصـــلة بـــين المسند والمسند إليه.

ونجد في الآية إيثار المصدر المؤول على المصدر الصريح ي قوله: " **أَنْ يُحْيِيَ الْمَـــوْتَى** "؛ للدلالة على الزمن المستقبل. كما نجد حرف الجواب "**بلى**"؛ لبيان قدرة الله تعالى على البعث.

---

[1] الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر: **الكشّاف**، مجلد3، ص105.

[2] أبو السعود، محمد بن محمد العماري: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، جزء6، ص236.

[3] سورة الأحقاف: آية33.

[4] الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني**، مجلد 26، ص11.

وإذا تأملنا الاستفهام في قوله تعالى:" **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ**"[1] فهو إنكار على المخاطبين لعدم تفكرّهم وتأملهم في كيفية بناء السماء، وفي قوله: " **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا** " جاء "بالفاء" دون "الواو"، و "بالنظر" دون الرؤية – كما في الآية السابقة– وكأنّ النظر في هذه الحالة يكفي، ولا حاجة للرؤية القلبية فيه.

وجاء إفراد " **السَّمَاءِ** " دون جمعها – كما في الآية السابقة– ؛ لأنّ السماء المرئية للعباد هي السماء الدنيا، فهي مُشاهدة لديهم ينظرون إليها في كلّ وقت.

وجاء العطف في قوله" **كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا** " للاعتبار والتعجب الموصلين إلى الإيمان بوحدانية الله، ودقة صنعة وقدرته في الكون.

كما أنّ تقديم "البناء" على "التزيين"؛ لأنّ "البناء" هو الأصل، و "التزيين" هو الفرع، أما لفظ " **فُرُوجٍ** "، فجاء بالجمع، وفي نطقها إيقاع صوتي جميل نظراً لحرف المدّ "الواو"، ولعلّ هذا يتناسب مع فاصلة الآية.

وممّا نلاحظه بشأن الاستفهام في صورتي السماء والأرض أنّ التعبير القرآني قد استخدمه ليحمل دلالات جمالية متعددة، فهو غني بدلالاته في تجديد المعنى وإثارة الحس، وغني بلغته التي توحي لتلك المعاني، "وهكذا نجد أسلوب الاستفهام أنّه أسلوب لغوي جمالي يدل على التصريف اللغوي في القرآن الكريم، ويحمل دلالات جمالية يوصل المعاني إلى العقول والقلوب عن طريق التنبيه والاستدلال والتّعجب وغير ذلك"[2]

*** الأمر:**

ومعناه: "طلب حصول الفعل من المُخاطب على وجه الاستعلاء مع الإلزام، وله أربع صيغ هي: فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر"[3].

ومما لوحظ في أسلوب الأمر في صورتي السماء والأرض اعتماده صيغة واحدة وهي فعل الأمر على وجه الاستعلاء والإلزام.

---

[1] سورة ق: آية6.

[2] عبدالله، محمد صادق حسن: **جماليات اللغة وغنى دلالاتها**، ص233.

[3] الهاشمي، أحمد: جواهر البلاغة، ص77–78.

لنتأمل أسلوب الأمر في قوله تعالى: " **قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...**"[1] فقد أمر سبحانه وتعالى الناس بالنظر في الدلائل التي توصل إلى وحدانيته والإيمان به، وذلك من خلال التدبر والتفكر بالموجودات الدّالة على ذلك في السموات والأرض، "وقد عمم ما في السموات والأرض لتتوجّه كلّ نفس إلى ما هو أقرب إليها وأيسر استدلالاً عليه لديها. والنظر: هنا مستعمل فيما يصلح للنظر القلبي والنظر البصري"[2].

وقد جاء اسم الاستفهام " **مَاذَا** " "بمعنى ما الذي؟ و "ما" استفهام، و "ذا" أصله اسم إشارة، وأصل وضع التركيب: ما هذا في السموات والأرض، أيّ: ما المشار إليه حال كونه في السموات والأرض"[3].والاستفهام في هذه الحالة، عندما ركّز على ملكوت الله في السماء والأرض، فقد أفاد التعظيم.

أمّا جواب الأمر في الآية فلم يظهر؛ "لوقوع الأمر عقب أسباب الإيمان، فالتقدير: انظروا تروا آيات موصلة إلى الإيمان"[4].ومما يؤكد على معنى فعل الأمر " **انْظُرُوا** " تصدير الآية بفعل الأمر "**قل**"؛ لبيان أهمية الموضوع وتعظيماً لشأنه.

وفي قوله تعالى: " **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**"[5] فقد افتتحت الآية بـــ " **اعْلَمُوا** " وهو هنا يشير إلى أنّ الكلام الذي سيجيء بعده مهم وعظيم ويستدعي الانتباه والإصغاء، "وذلك أنّه أريد به تمثيل حال احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله بحال الأرض الميتة في الحاجة إلى المطر، وحال الذكر في تزكية النفوس واستنارتها بحال الغيث في إحياء الأرض الجدبة. ففيه دلالة غير مألوفة وهي دلالة التمثيل"[6].

وقد جاء الخطاب في قوله : " **اعْلَمُوا** " للمؤمنين "على طريقة الالتفاف إقبالاً عليهم للاهتمام"[7].

---

[1] سورة يونس: آية101.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء12،ص295.

[3] المرجع السابق: جزء12، ص296.

[4] المرجع السابق: جزء12، ص296.

[5] سورة الحديد: آية17.

[6] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء28، ص393.

[7] المرجع السابق: جزء28، ص394.

أما الخطاب في قوله تعالى: " **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ**"[1] فقد جاء تثبيتاً لرسوله الكريم، حيث وعده سبحانه وتعالى بالانتقام من المشركين الذي كذبوه واستهزأوا بالقرآن الكريم، ففي الخطاب وعيد للمشركين على جحودهم وإنكارهم بالدلائل المعبّرة عن وحدانيته سبحانه.

وفي قوله "**ارْتَقِبْ**"، "يقال: رقبته، وارتقبته نحو نظرته وانتظرته"[2]. "وإنّما يكون الانتظار عند قرب حصول الشيء المنتظر، وفعل "ارتقب" يقتضي أنّ إتيان السماء لم يكن حاصلاً في نزول هذه الآية، ويقتضي كناية عن اقتراب وقوعه كما يرتقب الجائي من مكان قريب"[3].

ونتأمل الخطاب القرآني الذي يصوّر عظمة القدرة الإلهية للمخلوقات، حين يكون موجّهاً للسماء والأرض معاً في قوله تعالى: " **ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**"[4].

وفي قوله: " **فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** "، "إشارة إلى أنّه تعالى توجهت إرادته لخلق السموات والأرض توجهاً واحداً، ثمّ اختلف زمن الإرادة التنجيزي بتحقيق ذلك، فتعلّقت إرادته تنجيزاً بخلق السماء ثمّ الأرض، فعبّر عن تعلق الإرادة تنجيزاً لخلق السماء بتوجه الإرادة إلى السماء، وذلك التوجه عبّر عنه بالاستواء"[5].

وأصل الإتيان في قوله: " **ائْتِيَا** "، هو المجيء والإقبال على الشيء، ولا شك أنّ هذا المعنى الحقيقي غير وارد في هذا المقام؛ إذ لا يمكن أن نتصور مجيء السماء والأرض مطيعتين أو كارهتين؛ لأنّ كلّ منهما لا يعقل ولا يدرك، لذا فمعنى الأمر هنا خرج عن معناه الحقيقي إلى معناه البلاغي وهو إمّا: "أن يكون الإتيان مستعاراً لقبول التكوين، فمعنى " **ائْتِيَا** ": امتثلا أمر التكوين. أو أن تكون جملة "فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها "مستعملة تمثيلاً

---

[1] سورة الدخان: آية10.

[2] الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر: **الكشّاف**، مجلد3، ص501.

[3] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء26، ص285.

[4] سورة فصلت: آية11.

[5] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء25، ص245-246.

لهيئة قدرة الله تعالى لتكوين السماء والأرض، لعظمة خالقهما بهيئة صدور الأمر من آمر مُطاع للعبد المأذون بالحضور لعمل شاق"[1].

وفي قوله: " **قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** " كناية عن سرعة تكوينها. ونلاحظ مجيء " **طَائِعِينَ** " بصيغة الجمع؛ لأنّ المقصود بالسماء هي السموات السبع، بالإضافة إلى الأرض.

ونلاحظ أنّ أسلوب الأمر أسلوب غنيّ ، فهو يحمل دلالات جمالية من شأنها مخاطبة الحسّ ، وإثارة التفكير لدى المتلقي .

- **النداء:**

ويقصد به "طلب المتكلم إقبال المخاطَب عليه بحرف نائب منـاب "أُنـادي"[2]، وأدوات النـداء نوعان: الهمزة و "أيّ": لنداء القريب، و "يا" و "أيَا" ، و" هَيا"، وآيْ، و "وآ" لنداء البعيد.

ومنه قوله تعالى: "**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي**"[3] جـاء الخطـاب موّجهـاً إلـى الأرض والسماء بطريقة النداء المصاحب لأسلوب الأمر، وقد اختير حرف النداء "يـا"، وهـي أكثر الأدوات استخداماً، وأنّها دالة على بُعد المنادى، وهي ها هنا نادى بـه الله تعـالى غيـر العاقل، حيث أراد إنزاله منزلة العاقل الذي يفهم.

وفي قوله "**قِيلَ**" "والقول هنا أمر التكوين"[4]. وفي قوله: " **ابْلَعِي مَاءَكِ** " دلالة على دخـول الماء في باطن الأرض بسرعة، وفي قوله: " **أَقْلِعِي** " دلالة على كفّ نزول المطر من السـماء. وفي اللفظين دلالة حركية وصوتية تؤثر في المتلقي حتى لتجعله يتخيّل كيفية بلع الأرض للماء، وكيفية إقلاع السماء كذلك. وخطابهما جاء على سبيل الاستعارة، "ثم استعار لغور المـاء فـي الأرض البلع الذي هو إعمال الجاذبية في المطعوم للشبه بينهما، وهو الذهاب إلى مقرّ خفي، ثمّ

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء25، ص274.

[2] الهاشمي، أحمد: جواهر البلاغة، ص105.

[3] سورة هود: آية44.

[4] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء13، ص78.

استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيهاً له بالغذاء، لتقوي الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار تقوي الآكل بالطعام"[1]

ونلاحظ التجانس الحاصل في كلمتي: " **ابْلَعِي** " و " **أَقْلِعِي** "، إذ اختير اللفظ " **ابْلَعِي** " على "ابتلعي"؛ لتحقيق هذه اللمسة البيانية. وجاء تقديم لفظ "الأرض" على "السماء"؛ "لابتداء الطوفان منها، ونزولها لذلك في القصة منزلة الأصل، والأصل بالتقديم أولى"[2].

فالنداء من أساليب التعبير القرآني الذي يثري النص ويجعله نابضاً بالدلالات البلاغية .

---

[1] السكاكي: **مفتاح العلوم**، ص418.

[2] المرجع السابق: جزء13، ص82.

المبحث الرابع: التعبير بالصورة البلاغية .

والصورة الفنية عنصر أساسي في بناء الشعر وفي التعبير عن ذات الشاعر "ولا نفصل الصورة عن ذات الشاعر؛ لأنّها جزء من إحساسه، فهي تحمل طابع الشاعر الخاص في تصويرها لمشاعره وأفكاره، يغذيها دائماً مخزون الشاعر الفكري، ورصيده من الحياة، وتجاربه الخاصة، ورؤيته العميقة للأمور، وقدرته على الربط بين الأشياء، وذوقه الجمالي وخياله الواسع"[1]. لذا فالشاعر يلجأ إلى توظيف اللغة توظيفاً متميّزاً خارجاً عن المألوف، "وقد لا تسعفه الألفاظ في اللغة العادية، فيرى نفسه مدفوعاً بثورة خيالية إلى تشكيل علاقات لغوية خاصة يؤلفها بخياله المبدع ليعبر عن رؤية خاصة به"[2].

فالأديب –بشكل عام– يميل إلى الصورة الفنية عندما لا يجد في ألفاظ اللغة العادية سبيلاً للإحاطة بالمعاني الشعورية المتدفقة في نفسه، إذ تتجلى معانيه ودلالاته الجديدة بشكل ينم عن خيال خصب وافر، إذ "يفزع إلى فن التصوير في اللغة التي تقدم صوراً متعددة للتعبير عن المعنى الواحد، فيختار منها صورة يتخذها قالباً يصب فيه ما في نفسه، وما يلفُّه من شعور"[3].

وعندما تغوص الصورة في فكر الأديب وتجول في كوامن ذهنه، فلا بدّ أن تعكس مشاهد جديدة ولوحات ممتعة غير مألوفة حيث يتوق لها السامع ويبحث في سراديبها عن جمالٍ أخّاذ وإبداع متألق، وبهذا "فإنّ أصل المتعة، التي تقدمها الصورة، يرتد إلى نوع من التعرّف إلى أشياء غير معروفة، وكأنّ النادر والغريب من الصور الشعرية يثير فضول النفس، ويغذّي توقها إلى التعرف إلى ما تجهله، فتقبل عليه، لعلّها تجد فيه ما يشبع فضولها"[4].

---

[1] عودة، خليل: **الصورة الفنية في شعر ذي الرمّة**،رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب ، القاهرة : جامعة القاهرة – كلية الآداب، 1987م، ص6.

[2] أبو زيد، علي إبراهيم: **الصورة الفنية في شعر دعبل**، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1983م ص241.

[3] لاشين، عبدالفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن** ، ص18.

[4] عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، ص325.

وتنحصر أهمية الصورة في "الطريقة التي تفرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى، ونتأثر به. إنّها لا تشغل الانتباه بذاتها إلاّ لأنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه، وتفجؤنا بطريقتها في تقديمه"[1].

إنّ النظرة المتكاملة لمفهوم الصورة الشعرية على حد تعبير علي البطل أنّها "تشكيل لغوي، يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها. فأغلب الصور مستمدة من الحواس، إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية"[2]. إذن فهناك علاقة واضحة بين الخيال والصورة الفنية، إذ إنّ الخيال هو الباعث للصورة.

إنّ التصوير الفني بأشكاله المختلفة من أهم الأساليب الأدبية الذي يضفي على العمل الأدبي جمالاً ومتعة، فبدونه لا يستطيع المبدع إيصال أفكاره وأخيلته للمتلقي، فكما تحقق الصورة متعة وتشويقاً للمتلقي، فإنّها – أيضاً – تحقق ملاذاً آمناً لمبدعها لا سيّما إذا أراد التميّز والتألق في صناعته "وبهذا الفهم لا تصبح الصورة شيئاً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه، أو حذفه وإنّما تصبح وسيلة حتمية، وتصبح المتعة التي تمنحها الصورة للمبدع قرينة الكشف، والتعرّف إلى جوانب خفية من التجربة الإنسانية"[3].

وعليه، تتمثل أهمية الصورة الفنية بما تحققه من معانٍ وفيرة ودلالات جديدة حيّة من شأنها إثارة المتلقي نحو انفعالات تدفعه إلى موقف أو سلوك معيّن.

ويعالج هذا المبحث جماليات التعبير القرآني في صورتي السماء والأرض من خلال عرض أسرار الصورة وجوانبها التي تتجلّى في مستويين هما: التشبيه، والكناية .

---

[1] عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، ص327–328.

[2] البطل، علي: **الصورة في الشعر العربي**، ص30.

[3] عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، ص383.

- أولاً: التشبيه:

ويعرّفه عبدالقاهر الجرجاني فيقول فيه: "اعلم أنّ الشيئين إذا شُبّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما أن يكون من جهة أمر بيّن لا يحتاج فيه إلى تأوّل، والآخر أن يكون الشبه محصّلاً بضرب من التأوّل"[1].

أمّا جابر عصفور بأنّه: "علاقة مقارنة تجمع بين طرفين، لاتحادها أو اشتراكها في صفة أو حالة، أو مجموعة من الصفات والأحوال"[2].

والصيغ التشبيهية في القرآن الكريم هي احدى وسائل التعبير البلاغي، لا سيّما وأنّ القرآن الكريم يتميّز بأسلوب فريد وتعبير مناسب، حيث جاء التصوير فيه أكثر وضوحاً، وأعظم تأثيراً، وأبلغ إحساساً، يتأثر به من يسمعه. فالتشبيه في القرآن وإن كان عنصراً بيانيّاً يُكسب النص روعة وجمالاً وتقريب فهم، إلاّ أنّه يبقى عنصراً ضرورياً لأداء المعنى القرآني بشكل متكامل .

ولنتأمل ما توحي إليه الصورة التشبيهية في قوله تعالى: " **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**"[3]، إذ تكشف هذه الصورة عن ضخامة الهول الذي يسيطر على العقول والقلوب معاً يوم القيامة، حيث سيتغير مشهد الكون الذي كان يألفه ليصبح عالماً جديداً ومشهداً غريباً من خلال طي السماء، فالسماء مطوية كما "الكاتب الذي يكتب الصحيفة ثمّ يطويها عند انتهاء كتابتها، وذلك عمل معروف. فالتشبيه بعمله رشيق"[4].

---

[1] الجرجاني، عبدالقاهر: **أسرار البلاغة**، ص100.

[2] عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، ص172.

[3] سورة الأنبياء: آية104.

[4] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء18، ص159.

ونستشف من هذه الصورة المبهرة تجلّيات القدرة الإلهية على مستوى الحدث، وعلى مستوى النظم، فاللفظ " نَطْوِي " ابتدئ بالنون وهي "نون العظمة"[1].

ويكشف لنا التشبيه في قوله تعالى: "وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ"[2] صورة تقريب البعث والإحياء يوم القيامة من خلال لوحة محسوسة ومحبّبة للإنسان، تكشف عن علاقته مع الطبيعة في أوجّ حياتها وخضرتها، فقد شبّه سبحانه وتعالى إحياء الموتى بإخراج النبات من الأرض الميتة "فهي عملية دائمة التكرار فيما حولهم، مألوفة لهم، ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجيب"[3].

"وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى؛ لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى إفهام الناس"[4].

وفي قوله: " كَذَلِكَ الْخُرُوجُ "، "تقديم المجرور على المبتدأ؛ للاهتمام بالخبر؛ لما في الخبر من دفع الاستحالة وإظهار التقريب، وفيه تشويق لتلقي المسند إليه"[5].

لقد حقّقت هذه الصورة الأبعاد المؤثرة في نفس المتلقي بدءً من مكوناتها المتمثلة بنزول الماء من السماء، ثمّ إنبات النبات المختلفة، وانتهاءً بصورة الحياة في أرجاء الأرض الموات.

ويرسم لنا التشبيه صورة أخرى من صور الخوف المزلزلة في الكون والمنطبع في النفوس حول صفة السماء يوم القيامة، إذ يقول تعالى: " يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ"[6]، فهو يعبّر عن الصورة بتعبير ملموس محسوس لدى المتلقي حيث يشبّه السماء في انحلال أجزائها بالزيت".

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء18، ص160.

[2] سورة ق: آية11.

[3] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، المجلد6، ص3361.

[4] الألوسي، أبو الفضل: **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ج26، ص176.

[5] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء27، ص295.

[6] سورة المعارج: آية8.

إنّها صورة تستأثر بالوجدان، وتفصح عن العذاب النفسي الذي يتلقاه الإنسان في ذلك اليوم، ومما يزيد من دلالة أبعاد هذه الصورة، ذلك اللون الذي ستصبح عليه السماء بعد أن اعتاد الإنسان على زرقتها، إضافة إلى الحركة الجديدة التي ستؤول إليها، تلك الحركة المشحونة باللزوجة، فهي صورة غريبة وغير مألوفة أراد الله أن يضع المتلقي في صورتها.

ومن صور التشبيه التي تعالجها صورتا السماء والأرض التشبيه البليغ الذي يعتمد على حذف أداة التشبيه ووجه الشبّه، فحذف الأداة يقرّب بين طرفي التشبيه، ويجعلها كياناً واحداً، ويزيل الفوارق الدلالية بينهما، فـ "طي الأداة لا يعني خلخلة لمعنى التشبيه في ذهن المتلقي؛ فطيّها ليس طيّاً مطلقاً؛ إذ تبقى هذه الأداة في رحاب تلقي النص، وهو ما يجعل المتلقي مطالباً بدور أكثر إيجابية في هذا النوع من الأساليب التي خلت من المنبه اللفظي الدال على التشبيه"[1].

وكذلك بالنسبة لحذف وجه الشبه، "ففيه مظهر آخر من مظاهر الحفز للمتلقي، وفيه بلورة لتواصله مع الدلالة وتفاعله معها إذ يلتمس؛ على هدى من فهم السياق الجزئي، والبصر بطرفي التشبيه، أوجه شبه بين الطرفين، وربما كان ذلك عاملاً للاجتهاد في الوقوف على ما تنطوي عليه الدلالة القرآنية من تعدد في الوجوه"[2].

ومن أمثلة هذا النوع من التشبيه قوله تعالى: "**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**"[3]، "فوصف عرضها بالسموات والأرضين تشبيهاً في السعة والعظم"[4]، و "تقرن السموات والأرضون بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب، فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا الله سبحانه"[5]، ولم يذكر سبحانه وتعالى طول الجنة؛ "لأنّ المستقر في البدائة والأذهان أنّ الطول أدل على السعة، فإذا كان عرضها ممّا يسع السموات والأرض، فما

---

[1] شلبي، طارق سعيد: **بلاغة الصورة القرآنية– الجماليات والتجليات**، دار البُراق– القاهرة، ص28–29.

[2] المرجع السابق: ص29.

[3] سورة آل عمران: آية 133.

[4] الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، جزء4، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ص91.

[5] الثعالبي، عبدالرحمن محمد مخلوف: **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، جزء1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، ص310.

بالك بطولها!"[1]. فالجنة في سعة لا يدرك العقل مداها، ولا يستطيع التعبير أن يحدها، لذا يأتي التشبيه ممداً في الخيال.

ولا شك أنّ إيحاءات هذه الصورة واضحة لمن يتأمل ويتفكر في عناصرها، فهي تشحذ همم المتلقي وتجعله متجاوباً معها، لا سيّما وأنّها تزخر برحمة الله الواسعة لعباده.

ومن صور التشبيه البليغ نتأمل قوله تعالى: " **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا**"[2]، أيّ: كالفراش، "فجعلها لكم وطاءً توطئونها بأقدامكم وتمشون عليها بأرجلكم"[3]، وهي صورة تلقي بظلالها الواسع لدى المتلقي، وأنّه بأيدٍ قادرة عظيمة، أمّدته بنعمة ينتفع بها في كلّ زمان ومكان، فهي "تتكشف لنا في كلّ يوم؛ وتضاف إلى المدلولات التي كان يدركها المخاطبون بهذا القرآن أول مرة. وكلّها تشهد بالقدرة كما تشهد بالعلم لخالق السموات والأرض"[4].

وتتوالى التشبيهات المماثلة لهذا النوع من خلال تشبيهين في صورة واحدة، تشهد على قدرته سبحانه، وتدعو الناس لتدبر نعمه، يقول تعالى: " **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**"[5]، أيّ: " كالفراش في التمكن من الاستقرار والاضطجاع عليها، وهو أخص أحوال الاستقرار"[6] وفي قوله " **وَالسَّمَاءَ بِنَاءً** " إشارة إلى الكتلة الهوائية التي تقي الناس من أضرار الطبقات التي فوقها، "فالكرة الهوائية جُعلت فوق هذا العالم، فهي كالبناء له، ونفعها كنفع البناء، فشُبهت به على طريقة التشبيه البليغ"[7].، وهاتان الصورتان ترسمان إضاءات متوهجة بالراحة والأمان وطمأنة القلوب في كلّ الأزمان، لا سيّما وأنّهما تناولتا تصوير الأشياء المحسوسة والموجودات المادية بموجودات حسيّة أخرى.

---

(1) الدرويش، محي الدين: **إعراب القرآن الكريم**، ص531.

(2) سورة الزخرف: آية10.

(3) تفسير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، جزء25، ص52.

(4) قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، مجلد5، ص2178.

(5) سورة البقرة: آية22.

(6) ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء1، ص331.

(7) المرجع السابق: جزء1، ص331.

وللتشبيه دورٌ في تصوير السماء يوم القيامة في قوله تعالى: "**فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**"[1]، ففيه صورتان، أولهما: تشبيه السماء في حال انشقاقها بالوردة، وهو "تشبيه بليغ، ووجه الشبه شدة الحمرة، ويجوز أن يكون كثرة الشقوق كأوراق الوردة"[2].

وثانيهما: تشبيه الوردة بالدهان، حيث "شبه الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه[3]، "وهذا تشبيه ثانٍ للسماء في التموّج والاضطراب"[4] والتشبيه في الآية بشكل عام "تمثيلي، مركب من قسمين، أو صورتين متعاقبتين: صورة السماء منشقة، وصورة الوردة، ثمّ صورة الدهان، والصورتان الأخيرتان لتوضيح وجه الشبه، وهو أحوال تلونهما، فالوردة في الربيع صفراء، وفي الشتاء حمراء، ثمّ غبراء داكنة عند الذبول، وهذا التلوّن التدريجي من اللون الناصع إلى اللون الداكن يشبه أيضاً لون الدهن، وقد عُملت فيه النار، فاشتعل بلون أصفر ثم بَدَت ألسنة محمرّة إذ آذن بالانطفاء، ثمّ يتحول إلى رماد داكن"[5].

ومع ما يكتنز في الصورة التشبيهية من دواعي الخوف والرهبة من مشهد انشقاق السماء، إلاّ أنّ التعبير القرآني بطريقة التصوير جعل المتلقي يتفاعل مع عناصر الصورة من خلال تسلسل عرض النماذج المحسوسة التي لطّفت من الدلالات المقصودة.

ولنتأمل التشبيه في قوله تعالى:" **وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا**"[6] أيّ: "كالأبواب في التشقق والانصداع"[7]، وفي قوله " **فَكَانَتْ أَبْوَابًا** " أيّ: "كثرت أبوابها المفتّحة لنزول الملائكة نزولاً غير معتاد حتى صارت كأنّها ليست إلا أبواباً مفتّحة"[8].

---

[1] سورة الرحمن: آية37.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء28، ص261.

[3] الدرويش، محي الدين: **إعراب القرآن الكريم**، مجلد7، ص380.

[4] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء28، ص261.

[5] الدرويش، محي الدين: **إعراب القرآن الكريم**، مجلد7، ص380.

[6] سورة النبأ: آية19.

[7] محمد علي، الصابوني: **صفوة التفاسير**، مجلد3، ص511.

[8] أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، ج9، ص95.

"والأخبار عن السماء بأنّها أبواب، جرى على طريق المبالغة في الوصف" بذات أبواب"؛ للدلالة على كثرة المفاتيح فيها، حتى كأنّها هي أبواب"[1].

ويجيء الفعل الماضي الناقص "كانت" بمعنى "صارت" أيّ: : "صارت أبواباً"، ونظيره في الآية السابقة.

وهذا التشبيه يجعل المتلقي يرسم بخياله صورة لتفتّح أبواب السماء، فيتحرك إحساسه في أعماق النفس لرسم صورة بديعة محمّلة بدلالات متعددة لا حصر لها.

وممّا يسترعي الأنظار حول خصائص التشبيه القرآني أنّه يستمد عناصره من الطبيعة المحسوسة التي يشاهدها الناس، ممّا يزيده وضوحاً وخلوداً وتأثيراً في النفس. "ومن خصائص التشبيه القرآني، أنّه ليس عنصراً إضافياً في الجملة، ولكنّه جزء أساسي لا يتم المعنى بدونه، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه، فعمله في الجملة أنّه يُعطي الفكرة في صورة واضحة مؤثرة؛ فهو لا يمضي إلى التشبيه كأنّما هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة، يتطلبه المعنى ليصبح واضحاً قوياً"[2].

والتشبيه وسيلة من وسائل الإيضاح التي يلجأ إليها المخاطِب للوصول إلى تعيين الشيء أو تقريبه من المخاطَب، فهو وسيلة تتجلّى من خلال القرائن التي تكون بين طرفي التشبيه، وبهذا تبدو قيمة التشبيه في إعمال الفكر، وعمق التفكير، ولذلك فهو يدل على سعة الخيال ويكسب الصورة وضوحاً وقوةً وجمالاً.

وبذلك نلاحظ أنّ التشبيه عنصر جوهري في تركيب النص القرآني، وأساس من أسس تقوية المعنى، ولعلّ هذا يتجلّى "في الكلمة مقام الخط واللون، إذ سرعان ما ترتسم الصور من خلال الكلمات، ثمّ سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنّها تموج بالحياة"[3].

---

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء31، ص33.

[2] بدوي، أحمد أحمد: **من بلاغة القرآن**، ط3، مكتبة نهضة بمصر، ص198.

[3] قطب، سيّد: **في ظلال القرآن**، ج1، ص37.

وهذا ما يدفع بالباحثين أن يقفوا طويلاً عند التصوير بالتشبيه؛ لتسبح أخيلتهم وعـواطفهم في مكنوناته والكشف عن دلالاته الجمالية.

ثانياً: الكناية :

الكناية في الاصطلاح هي: "ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقـل مـن المذكور إلى المتروك"[1]. وتختص الكناية بالمعنى دون اللفظ "لا يكنّى باللفظ عن اللفـظ، وأنّـه إنّما يُكنى بالمعنى عن المعنى"[2].

ويجوز أن تجمع الكناية بين الحقيقة والمجاز، فهي "كلّ لفظ دلّت على معنى يجوز حملـه على جانبي الحقيقة والمجاز"[3].

وتكمن جماليات التعبير بالكناية في القرآن الكريم، بأنّه يعبّر عن المعاني بألفاظٍ تميل إلى الإشارة والتلميح من أجل اختيار التعبير الألطف، والتصوير بأسلوب الكناية "يحس السامع معـه جمالاً ويجد للتعبير ما لا يجده للتعبير الصريح؛ وذلك لأنّ الكناية تعـرض المعنـى مصـوّراً بصورة محسوسة فيزداد تعريفاً ووضوحاً"[4].

فالتلميح في الكناية يشحذ النفس للتجوّل في مستويات التعبير، وتأمّل معانيها وصداها على النفس، وما يتمخض عن ذلك من لذة المتعة بين جانبي المعنى الظاهر والباطن.

ويأتي التعبير بالكناية لأغراض ولطائف بلاغية شتّى، فهي "تمكّن الإنسان من التعبير عن أمور كثيرة، يتحاشى الإفصاح بذكرها، إما احتراماً للمخاطب ، أو للإبهام علـى السـامعين، أو للنيل من خصمه، دون أن يدع له سبيلاً عليه، أو لتنزيه الأذن عما تنبو عن سماعه"[5].

---

[1] السكاكي: **مفتاح العلوم**، ص402.

[2] الجرجاني، عبدالقاهر: **دلائل الإعجاز**، ص340.

[3] ابن الأثير، ضياء الدين نصرالله بن محمد بن عبدالكريم: **المثل السائر فـي أدب الكاتـب والشـاعر**، ج2، ص194.

[4] لاشين عبدالفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن**، ص280.

[5] الهاشمي، أحمد: **جواهر البلاغة**، ص351.

يعبر القرآن الكريم عن شد يوم القيامة بصور كنائية تترك أثرها في نفس وذهن المتلقي، ففي قوله تعالى: "**يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا**"[1] وأول ما يطالعنا في التعبير هو الفعل المضارع "**تَرْجُفُ**"، فهو يفيد الحال والاستقبال، وهذا يحاكي الوضع المضطرب والمتحرك الذي ينقله المشهد.

وممّا عمق الكناية في هذا المشهد صورة الجبال "كثيباً مهيلاً" التي وضعتنا في صورة تخيّلية ، فيها من المفارقة والغرابة الشيء الكثير، حين تتحول الجبال بوصفها عنصراً شاخصاً إلى رمالٍ مجتمعة أو إلى سائل ينهال.

ولا شك أنّ في جمال توظيف الكناية بهذه الصورة التعبيرية قد جاء من خلال المبالغة في وصف الأرض والجبال.

ومن الصور التعبيرية التي تصوّر قدرة الله وهيمنته يوم القيامة ما جاء في سياق أسلوب الكناية في قوله تعالى: "**وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**"[2] فهذا التعبير يجعلنا نتأمل المشهد من خلال لفظين اثنين وهما: "قبضته" و "بيمينه". فمعنى "**قَبْضَتُهُ**": "ملك له وخالص –له– قد ارتفعت عنه أيدي المالكين من بريّتِهِ، والمتصرّفين فيه من خليقته، ويحتمل أيضاً أن يكون: أنّ الأرض في مقدوره، كالذي يقبض عليه القابض، فتستولي عليه كفه، ويحوزه ملكه، ولا يشاركه فيه غيره"[3].

ومعنى "**بِيَمِينِهِ**": وصف لليد، ولا يد هنا وإنّما هي كناية عن القدرة؛ لأنّ العمل يكون باليد اليمنى"[4].

وحدف "في" الظرفية في قوله: "والأرض جميعاً قبضته" للتعبير عن شدة التحكم في الأرض، فلا شيء يفلت منه سبحانه، إذ لا مكان للاختباء وللفرار في ذلك اليوم.

---

[1] سورة المزمل: آية14.

[2] سورة الزمر: آية67.

[3] عامر، أحمد فتحي: **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، ص422.

[4] ابن عاشور، محمد الطاهر: **تفسير التحرير والتنوير**، جزء25، ص62.

لقد حقّقت هذه الصورة المحسوسة جانباً تخيّلياً حول قدرة الله وعظمته النافذة في الكــون، تلك القدرة التي لا حدود لها، والتي جعلت هذه الأجرام الضخمة تتضاءل أمامها.

ومن ميزات الكناية في صورتي السماء والأرض أنّها ترشد المتلقي إلى التأمل في صفحة الكون، ليفطن إلى الصلة الوثيقة بينهما، يقول سبحانه: "**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُــمْ قُلُــوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّــدُورِ**"[1]، فــالقلوب العاقلة، والآذان السامعة كنايتان عن استجابة الإنسان لمظاهر قدرة الله المتبدية خلال سيره فــي الأرض.

والكناية لا تشير إلى إبراز هذه الدلالة في وعي المتلقي فحسب، بل تدعوه إلــى التمســك والأخذ بها باعتبارها من وسائل النجاة.

ويرسم التعبير بالكناية مجالاً أوسع في التعبير عن المعنى غير الصريح من خلال الصفة المحببة لقلوب الناس وهي صفة التثاقل" في قوله تعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ..."[2] تكشف لنا هذه الكناية مشهداً حسيّاً لأولئــك الكارهين للجهاد من خلال قوله: " **اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ** "، وهي كنايــة عــن الالتصــاق بــالأرض، والتمكن من القعود عليها، وعدم القدرة على النهوض، وكأنّ الأرض قد أصبحت جاذبة لأولئــك المتثاقلين.

والمفردة " **اثَّاقَلْتُمْ** " تجسد ذلك المشهد الحسّي الذي يكون فيه الجسم متراخياً ثقيلاً، حيــث يكون ارتباطه بالحياة الدنيا ارتباطاً قوياً، أمّا بالآخرة فضعيف، " وهي بجرسها تمثــل الجســم المسترخي الثقيل ، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل "[3].

---

[1] سورة الحج: آية46.

[2] سورة التوبة: آية 39.

[3] قطب ، سيّد : **في ظلال القرآن** ، جزء 3 ، ص: 1655 .

وبهذا فقد نهضت الكناية في صورتي السماء والأرض بإثارة مخيلة المتلقي، ممّا يدفعه إلى تواصل عميق، وتمثّل أبعاد غير مذكورة بشكل صريح في الآيات، وهي بذلك أبلغ من الحقيقة والتصريح.

وكأنّ الكناية تبرز في أذهان المتلقين الغاية الجوهرية الكامنة وراء حرص القرآن الكريم على التعبير بها، كونها إحدى الأساليب البلاغية التي تسهم في تأدية المعنى وتقديمه بصورة مألوفة، "ومن أسباب بلاغة الكنايات أنّها تضع لك المعاني في صورة المحسوسات ، ولا شك أنّ هذه خاصة الفنون، فإنّ المصوّر إذا رسم لك صورة للأمل أو لليأس، بَهَرَك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحاً ملموساً"[1].

فالبلاغة القرآنية لا تقف عند حدٍّ معين كالجملة، أو الصورة، أو ما يتبعها من تشبيه وكناية، ولكنّها تقف عند نظم الأسلوب وما يتبعه من كلمات وجُمَل، وعبارات في نسق أصيل ينبض بشتّى ألوان التعبير.

وتلك هي لغة جمال التصوير القرآني في صورتي السماء والأرض، حيث تعكس كلّ كلمة في التعبير جمالاً تصويريّاً يترك تأثيراً خاصاً في نفوسنا، إذْ نستشعر بقوة تأثير الإيقاع من خلال إيحاء الكلمة بالصورة البلاغية التي تنبض بالكثير من دلالاتها الموحية.

---

[1] الهاشمي، أحمد: **جواهر البلاغة**، ص354.

الخاتمة :

وبعد، فهذه أبرز النتائج التي توصّلت إليها في هذه الدراسة التي بعنوان: "صورة السماء والأرض في القرآن الكريم"، ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

1. إن الشاعر الجاهلي قد صوّر كلّ ما وقع عليه حسّه من مشاهد الطبيعة الحيّة والصامتة، فكان شعره مصدرا للفكر والذائقة، فهو لم يكن مجرّد إنسان يعيش وسط صحراء، بل كان إنساناً شاعراً له موقفه الخاص وتصوّره وانطباعه الذاتي نحو بيئته، لذا فقد تحدث في شعره عن السماء والأرض وموجوداتهما من سحاب، وبرق ورعد، وأمطار، وكواكب ونجوم، وجبال وكثبان وسراب، ووديان، ورياض، وآبار وعيون، وأشجار ونباتات، وغيرها.

2. إنّ دراسة الأسطورة في الجاهلية هي دراسة كلّ ما سطر عن الجاهليين تاريخاً كان أو ديناً، لأنّ العصر كان ممتزجاً بالدين ومتأثراً به، فالديانة كان لها حضورها في الأساطير الجاهلية.

3. مع أنّ العربي الجاهلي نشأ في بيئة جاهلية، كان فيها عصبي المزاج، ويثور على كلّ سلطة، إلا أن هذا لا يمنع من وجود خيال رائع وتشبيهات بديعة عندهم، فالعربي له خيال وعواطف، ذلك الخيال الذي هو أساس توليد الأساطير عنده حول موجودات الطبيعة.

4. تلتقي الأسطورة والشعر، لأنّهما ينشأان من الحاجة الإنسانية، ففيهما انتصار للخيال على الواقع، وهذا يدل على التوافق القائم بين عالمي الفن والشعر ولولا وجود الحسّ الفنيّ ما تعرّفنا إلى ملامح الأسطورة في الفكر العربي. وعليه فإنّ الشعر الجاهليّ يحفل ببقايا الأساطير التي كانت منتشرة بين الشعوب العربية القديمة، وهذا يدل على أنّ العقلية الجاهلية وعت هذا الموروث الثقافي، فتمّ التعبير عنه بالتجربة الشعرية.

5. القرآن الكريم معجز في إشارته العديدة إلى السموات والأرض وما فيهما من صور وظواهر قد صيغت صياغة محكمة يفهم منها أهل كلّ عصر معنى من المعاني بما يتناسب

مع ما توفّر لهم من علم ومعرفة، مع استمرار اتساع هذه الدائرة ليبقى القرآن الكريم مهيمنا على تلك المعرفة.

6. لقد تنوع الخطاب في الآيات القرآنية التي تحدثت عن صورة خلق السماء والأرض سواء أكان ذلك من خلال التعميم بذكرهما أو التخصيص بأحدهما، أو من خلال اختيار الكلمات المناسبة والمقام الذي قيلت فيه، أو من خلال الجمع والإفراد في الألفاظ، كلّ ذلك لأجل التنبيه والتفكر بعظيم صنع الله تعالى، وإدراك عجائبه، ومعرفة أسرار نظم القرآن.

7. عرض القرآن الكريم صورة الزمن بشكل لافت، من خلال استخدام مفردات خاصة باليوم، وحركة الليل والنهار، مثل: خلق، يغشى، اختلاف، يقلّب، يولج، نسلخ، ففيها من التعبير التصويري الذي يؤثر في النفس تجاه قدرة الله تعالى.

8. إن الآيات القرآنية التي تصوّر سرّ الماء ودلالاته الإحيائية حافلة بالمضامين البلاغية والأسلوبية، من خلال التركيز على صيغة الفعل وأحواله كالتضعيف مثلا، وعنصر الوصف، وجرس الأصوات، ودلالة الحركة، والتعريف والتنكير، واستخدام ضمير المتكلم أو الغائب، وتناسق الألفاظ وتسلسلها، والإفراد والتثنية والجمع، وهذا من بديع التعبير في الكلمة القرآنية.

9. من صور تسبيح المخلوقات لله تعالى في السموات والأرض ما يتعلق بالإنسان، والملائكة، والرعد، والجبال، والطيور، لذا فتختلف صيغة التسبيح حسب ما يقتضيه المقام، علما بأن شكل التسبيح في جميعها مصحوب بالحمد والتقديس والتنزيه والانقياد التام.

10. كشفت الصور البلاغية التي تناولت الحديث عن السماء والأرض في يوم القيامة عن استحضار المخاطبين لتلك المشاهد من خلال ألوان التشبيه المشحونة بالدلالات اللونية والحركية والصوتية التي تثير السامعين، ومن خلال استخدام صيغة الفعل الماضي الدال على تحقيق وقوع الأحداث في المستقبل، وصيغة الفعل المضارع الذي يؤكد على

الاستمرارية، وكذلك تكرار الألفاظ وتأكيدها.

11. تشكل الصور الفنيّة أهم الأساليب البلاغية في القرآن الكريم، التي تؤدي دورها في التعبير عن المعاني الذهنية والحالات النفسية للمتلقي، إذ تنقل الأفكار والمعاني بصورة حسيّة تحمل دلالات مؤثرة في النفس والقلب والفكر، لذا فقد تضافرت التعابير القرآنية بالحقيقة، والتعبير بالمجاز، وأساليب التعبير الخبري والإنشائي، والتعبير بالصورة التشبيهية والكنائية في تشكيل الصّور الفنيّة في صورتي السماء والأرض والكشف عن ألوانها وظلالها، ممّا يؤكد بلاغة التعبير القرآني وجمالياته الواسعة.

12. أدّى تنوّع الأساليب الخبريّة والإنشائيّة في صورتي السماء والأرض إلى إثراء الصورة الفنيّة فيهما، من خلال التعرف إلى اللطائف البلاغية، وتعدّد أشكال التعبير ودلالاته العميقة.

13. لقد كانت الصيغ التشبيهيّة والكنائيّة في صورتي السماء والأرض من أبلغ وسائل التعبير البلاغي، فقد أكسبت النص روعة، وتأثيرا عظيما، وأسلوبا فريدا في تأدية المعنى، وتقريب الصور من الأذهان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله الذي وفّقني وأنعم عليّ بإنجاز هذه الرسالة وخروجها إلى النور، لإفادة كلّ قارئ وباحث في القرآن الكريم.

أولا: فهرس الآيات

الرقم	الآية	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
1	إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ	القلم :15	43
2	إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ	المؤمنين:83	43
3	وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا	الفرقان:5	43
4	يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ	الأنعام:25	43
5	قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ	الأنفال:31	44
6	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ	النحل:24	44
7	سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ	فصلت:53	61
8	سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ	الأنبياء:37	61
9	الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ	آل عمران:191	61، 63
10	أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	العنكبوت:19و 20	62
11	أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ	الحج: 46	64
12	الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ	الأنعام:1	65
13	أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كلّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ	الأنبياء:30	67
14	ثُمَّ استوى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ	فصلت: 11	68

15	هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ	البقرة: 29	69
16	وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ	الذاريات:47	70
17	اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكلّ شَيْءٍ عِلْمًا	الطلاق:12	70
18	الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ	الملك:3	71
19	أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا	نوح: 15، 16	72
20	قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ	المؤمنون:86	72
21	وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا	النبأ:12	72
22	فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كلّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا	فصلت:12	72
23	تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا	الإسراء:44	73
24	وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ	المؤمنون:17	73
25	إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ	الصافات:6	74
26	وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ	الملك: 5	74
27	وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا	فصلت: 12	74
28	أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ	ق:6	74
29	وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ	الحجر: 15	74
30	فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ	الواقعة: 75، 76	75

31	أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا	نوح: 15، 16	75
32	لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ.....	المائدة: 17، 18	76
33	الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا	الفرقان: 59	76
34	إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ.....	البقرة: 164	77
35	اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكلّ شَيْءٍ عِلْمًا	الطلاق: 12	77
36	وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ	الرعد: 3	77
37	وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كلّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ	الحجر: 19	77
38	وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ	فصلت: 10	78
39	وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا	النازعات: 32	78
40	وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كلّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ	النمل: 88	78
41	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ	الطارق: 11	79
42	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ	الذاريات: 7	79
43	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ	البروج: 1	80
44	وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا	الانبياء: 32	80
45	وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ	الطارق: 12	81
46	وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا	النازعات: 30	81

47	أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا	النبأ: 6	82
48	الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا	البقرة: 22	82
49	اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا	غافر: 64	83
50	وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ	العصر: 1، 2	84
51	وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى	الضحى: 1-3	84
52	وَالْفَجْرِ .وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ	الفجر: 1-5	84
53	فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ	التكوير:15-18	85
54	فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ . وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ	الانشقاق: 16-18	85
56	وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا	الشمس: 1-6	85
57	قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ.....	فصلت: 9-12	86
58	إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ	الاعراف: 54	87
59	وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا	هود: 7	87
60	لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ	ق: 38	88
61	وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ	الحج: 47	88
62	يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ	السجدة:4، 5	88
63	وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ.....	البقرة: 187	88

64	وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَـــارًا وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِـــي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ	الرعد: 3	89
65	إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ	ال عمران: 190	90
66	إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّـــهُ فِـــي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ	يونس: 6	90
67	يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِـــأُولِي الْأَبْصَارِ	النور: 44	90
68	تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَـــرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ	آل عمران: 27	91
69	ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ	الحج: 61	91
70	وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ	يس: 37	91
71	وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ	الأنبياء: 33	92
72	وجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُـــواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً"	الاسراء: 12	92
73	وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كلّ شَيْءٍ حَيّ	الأنبياء: 30	94
74	وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْـــأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ	المؤمنون:18	94
75	وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ	هود: 44	94
76	وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِـــي الْأَرْضِ	المؤمنون: 18	95
77	وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا	الفرقان: 48	95
78	وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ	ق: 9	95
79	فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ	القمر: 11	95
80	وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ	الواقعة: 30، 31	96

81	قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ	الملك: 30	96
82	وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا	النبأ: 14	97
83	وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا	المرسلات: 27	97
84	هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سائغ شرابه وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ	فاطر: 12	97
85	فَانْظُرْ إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا	الروم: 50	98
86	وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ	الشورى: 28	98
87	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ	النور: 43	98
88	وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ	الطارق: 11	98
89	أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	النمل: 25	98
90	هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آَيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا	غافر: 13	98
91	إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ	البقرة: 164	99
92	وَمِنْ آَيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ	الروم: 24	99
93	وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ	فاطر:9	100
94	وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	الحج: 5، 6	100
95	وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	فصلت: 39	101

96	وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ	الحجر: 22	101
97	كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ	يونس: 24	101
98	أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ	السجدة: 27	101
99	اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ	ابراهيم: 32	102
100	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير	الحج: 63	102
101	أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ	النمل: 60	102
102	فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِه كثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكلِينَ	المؤمنون: 19، 20	103
103	فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ	عبس: 24–32	104
104	هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ	النحل: 10	104
105	وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كلّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ...	الانعام: 99	104
106	وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى	طه: 53	105
107	وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ...	الرعد: 3	105
108	وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	الذاريات: 56	106
109	أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ	الرعد: 28	106

110	كلّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ	يس: 40	106
111	تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورً	الاسراء: 44	108
112	أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ	آل عمران: 83	109
113	إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ	ص: 18	109
114	يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	التغابن:1	110
115	وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ	الأنبياء: 19، 20	110
116	يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ	الجمعة: 1	111
117	فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ	الروم: 17، 18	111
118	وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا	الفتح:9	112
119	فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ	الواقعة: 74، 96	112
120	فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ	ق: 39، 40	112
121	كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا	طه: 33	112
122	قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ	البقرة: 30	113
123	الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا	غافر: 7	113
124	فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ	فصلت: 38	113
125	وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ	الرعد: 13	113

126	وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ	الانبياء: 79	114
127	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كلّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ	النور: 41	115
128	يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا	الاعراف: 187	116
129	وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ	الزخرف: 85	116
130	وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ	الحج:	117
131	وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ	الشورى: 17	117
132	أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ	المطففين: 4-6	117
133	إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا	الدهر:27	117
134	فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ	الانسان:27	117
135	يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كلّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كلّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ	الحج: 1-2	117
136	يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ	النور:37	117
137	قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَة	النازعات: 8-9	117
138	تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا	المعارج: 4-7	118
139	إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ* وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ	الانشقاق: 1-2	118
140	وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ	المرسلات: 9	119
141	إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ	الانفطار: 1	119
142	فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ	الرحمن: 37	119
143	وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ	الحاقة: 16-17	119

144	وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا	الفرقان: 25	120
145	يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرً	الطور: 9	120
146	يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ	المعارج:8	120
147	وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا	النبأ: 19	120
148	وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ	التكوير: 11	121
149	إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ	التكوير: 1	121
150	فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ* وَخَسَفَ الْقَمَرُ	القيامة: 7-8	121
151	وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ	الانفطار: 2	121
152	وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ	التكوير: 2	122
153	يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ	الانبياء: 104	122
154	يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ	ابراهيم: 48	122
155	حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ	يونس: 24	123
156	"إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا* يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا	الزلزلة: 1-5	123
157	وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ	الانشقاق: 3-5	123
158	فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ *وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً	الحاقة: 13-15	124
159	كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا	الفجر: 21	124
160	يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا	المزمل: 14	124
161	وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا	طه: 105	125
162	وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ	القارعة: 5	125
163	وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا	النبأ: 20	125
164	وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ	التكوير: 3	125

165	وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً	الكهف: 47	125
166	وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا	الواقعة: 5-6	126
167	وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ	الانفطار: 6	126
168	وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ	التكوير: 3	126
169	وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ	الطور: 6	126
170	إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ *خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ	الواقعة: 1-3	127
171	الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	فاطر: 1	135
172	اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى	الرعد: 2	136
173	وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ	الرعد: 3	138
174	أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً	لقمان: 20	138
175	إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزً	الكهف: 7-8	139
176	إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ	التوبة: 25	139
178	وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ	الحجر: 14-15	140
179	وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ	الزمر: 68	140
180	وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا	الكهف: 47	141

181	وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا	الجن: 8	141
182	وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ	الاعراف: 96	146
183	حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ	يونس: 24	146
184	وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ	الحج: 5	147
185	تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ	فصلت: 39	146
186	وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ	المؤمنون: 17	148
187	وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى	فاطر: 45	148
188	لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ	الزمر: 63	149
189	وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ...	الزمر: 67	149
190	ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ	فصلت: 11	150
191	فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ	الدخان: 29	151
192	فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ	القمر: 11	151
193	اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ	الحديد: 17	152
194	وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ"	الانشقاق: 2	152
195	وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ	الانشقاق: 4	153
196	وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا	الانعام: 6	154
197	وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا	غافر: 13	155
198	مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا	الجاثية: 5	155
199	وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ	الذاريات: 22	155

200	وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا	الزلزلة: 2	156
201	وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ	الحج: 5	157
202	وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا	القمر: 12	158
203	اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ	ابراهيم: 32	161
204	وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ	النمل: 75	163
205	وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ	الروم: 25	164
206	يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ	السجدة: 5	165
207	يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ	سبأ: 2	166
208	وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ	الملك: 5	167
209	وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ	الاعراف: 10	168
210	إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ	الاعراف: 54	169
211	وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ	النمل: 87	170
212	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	النور: 41	172
213	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ	الحج: 18	173
214	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ	ابراهيم: 19	173
215	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ	الحج: 65	173
216	أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ	لقمان: 20	174

217	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ	المجادلة: 7	174
218	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ	الزمر: 21	174
219	أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ	السجدة: 27	175
220	أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا	المرسلات: 25	176
221	أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا	النبأ: 6	176
222	أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	المائدة: 40	176
223	أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ	الحج: 70	177
224	أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ	يس: 81	177
225	قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ	المؤمنون: 84	177
226	قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ	الرعد: 16	178
227	قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ	المؤمنون: 76، 87	179
228	قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ	يس: 31	180
229	وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ	الزمر: 38	180
330	وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ	العنكبوت: 63	180
331	"أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ	يونس: 18	181
232	أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ	الملك: 16	182
233	أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ	الشعراء: 7	182
234	أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ	الاحقاف: 33	183
235	أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ	ق: 6	184

236	قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...	يونس: 101	185
237	اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا	الحديد: 17	185
238	فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ	الدخان: 10	186
239	ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ	فصلت: 11	186
240	وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي	هود: 44	187
241	يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ	الأنبياء: 104	191
242	وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ	ق: 11	192
243	يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ	المعارج: 8	192
244	وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ	آل عمران: 133	192
245	الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا	الزخرف: 10	194
246	الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً	البقرة: 22	194
247	فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ	الرحمن: 37	195
248	وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا	النبأ: 19	194
249	يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا	المزمل: 14	198
250	وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ	الزمر: 67	198
251	أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ	الحج: 46	198
252	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا	التوبة: 39	199

ثانيا: فهرس الأشعار

الرقم	البيت		الصفحة
1	عَلَى أنْ قَدْ سَما طَرفي لِنَارٍ	يُشَبُّ لها بِذي الأَرْطَى وَقُودُ	8
2	سَمَوتُ إليها بَعْدَ ما نَامَ أهْلُها	سُمُوَّ حبَابِ الماءِ حَالاً على حالِ	8
3	لَوْ نالَ حَيٌّ مِنَ الدّنيا بمنزلةٍ	أفقَ السَّماءِ لنَالَت كفُّهُ الأفقَا	8
4	هُمُ رَفَعُوكُمْ لِلسَّماءِ فَكِدتُمْ	تَنالُونَها لَوْ أَنَّ حَيّاً يَطُورُهَا	8
5	فَقَد أدْرَكَتْها المُدْرِكاتُ فأصبحت	إلى خَيرِ مَن تَحْتَ السَّماءِ وُفُودُها	9
6	إذا سَقَطَ السماءُ بأَرضِ قَوْمٍ	رَعَيْناه وإن كانوا غِضاباً	9
7	وإن شِئتُ سامى واسِطَ الكورِ	رأسُها وعامَتْ بضَبَعَيْها نَجاءَ الخَفَيدَدِ	10
8	كَأَنّهُمُ صَابَتْ عَلَيْهِم سَحَابَةٌ	صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبيبُ	12
9	وحَسِبتِ وَقْعَ سُيُوفِنا بِرُؤُوسِهِمْ	وَقعَ السَّحابِ عَلَي الطِّرافِ المُشرَجِ	12
10	يَجُرُّ بأكنافِ البِحار الى المَلاَ إذا قلت تَزْهاه الرياح دنّا له	رَباباً له، مثلَ النَّعامِ المُعَلَّقِ ربابٌ، له مثل النعام الموسَّق	12
11	كأنّ الحُدَاةَ والمُشَايِعُ وَسْطَه	وعُودْاً مطافِيلاً بأمْعَزَ مُشْرِقِ	13
12	كبناتِ المَخْرِ يَمْأدْنَ كما	أنْبتَ الصّيْفُ عَساليجَ الخُضَرْ	13
13	فَلَمّا رَأَوْنا بالنِّسارِ كأَنَّنا	نشاصُ الثُّرَيَّا هَيَّجَتْها جَنُوبُها	13
14	كَأَنَّ مصفّحَاتٍ في ذُرَاهُ فأفرَعَ في الرُّبابِ يَقُودُ بُلْقاً	وأنواحاً عليهنَّ المآلي مَجوَّفةً تَذُبَّ عن السِّخال	13
15	أصاحِ تَرى بَرقاً أُريكَ ومَيضَهُ يُضيءُ سناهُ أوْ مصابيحُ راهِبٍ قَعَدْتُ لَهُ وَصَحْبتي بينَ ضارجٍ على قَطَنٍ بالشَّيْمِ أيْمنُ صَوْبِهِ	كَلَمعِ اليَدَين في حبيٍّ مُكلَّلِ أمالَ السَّليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ وبَينَ العُذَيب، بُعدَ ما مُتأمَّلي وَأَيْسرَهُ على السِتارِ فَيَذبُلِ	15
16	كأنّ فيه عشاراً جِلَّةً شُرُفاً هُدْلاً مَشافِرُها بُحاً حَنَاجِرَها	شُعثاً لهاميم قد هَمَّتْ بإرشاحِ تُزجي مَرابيعَها في صَحصَحٍ ضاحي	16
17	إذا رَجَفَت فيه رحىً مُرْجَحِنّةٌ	تَبَعَّجَ ثَجَّاجٌ غَزيرُ الحَوَافِلِ	16
18	باتَتْ وأسبَلَ واكِفٌ من ديمةٍ يُعْلو طريقةَ مَتْنِها مُتَوَاتِراً تَجتَافُ أصْلاً قالِصاً مُتَنَبِّذاً	يُروي الخمائل، دائماً نسَجَامُها في ليلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غَمَامُها بِعُجُوبِ أنقاءٍ يَميلُ هَيَامُها	18

19	ألا حَيِّيا الدّارَ المُحيلَ رُسُومُها سقَى تلكَ من دارٍ ومن حلّ رَبعها	تَهيجُ عَلينا ما يَهيجُ قَديمُها ذهابُ الغوادي وَبْلُها ومُديمُها	19
20	أرّى عليها وليّ ما يغيّرها	وَديمةٌ حُلِّلَتْ منها عزاليها	19
21	ألقى بصَحْراءِ الغَبيطِ بعَاعَهُ	نُزولَ اليَماني ذي العُياب المحُمَّلِ	19
22	جادَت لَهُ الدَّلْوُ والشِّعرى ونَوْؤُهُما	بكُلِّ أسحَمَ دَانِي الوَدْقِ مُرْتَجِفِ	21
23	كأنَّ نُجُومَها ربطَت بصَخرٍ إذا ما قُلتُ حانَ لها أُفولٌ	وأمراسٍ تدُورُ وتستريدُ تصعّدَتِ الثّريّا والسّعودُ	21
24	فيا لكَ من لَيْلٍ كأنَّ نُجومَهُ	بأمْراسِ كتّانٍ إلى صُمّ جَندَلِ	21
25	ولمّا رأَيتُ الصَّبرَ ليسَ بنافعي	وأَن كانَ يَوْماً ذا كَوَاكِبَ أشْهَبَا	22
26	وجيدٍ كجِيدِ الرِّئمِ صَافٍ يَزينُهُ كأنّ الثُّرَيّا فَوْقَ ثُغْرةِ نَحْرِها	تَوَقُّدُ ياقُوتٍ وفَصْل زَبَرْجَدِ تَوَقّدُ في الظَّلْماء أيَّ تَوَقّدِ	22
27	يُضاحكُ الشمسُ منها كوكبٌ شرِقٌ	مؤزّرٌ بعميمِ النّبتِ مكتهلُ	22
28	فتىً لو ينادي الشمس ألقتْ قناعها	أو القَمَر السّاري لألقى المقالد	22
29	يُذّكرُني طُلُوعُ الشَّمس صَخْراً	وَأذْكُرُهُ لِكُلِ غُروُبِ شَمسِ	23
30	متوَّجٌ بالمعالي فوقَ مَفرقِهِ	وفي الوَغَى ضَيغَمٌ في صُورة القمر	23
31	أمِن أُمِّ أوْفَى دِمنةٌ لم تَكَلَّمِ	بِحَومانَةِ الدّرَّاج فالمُتَثَلَّمِ	24
32	لِخَولَةَ أطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ	تَلوحُ كباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ	25
33	تَعَفَّتْ رُسُومٌ من سُلَّيمى دَكادِكاً	خلاءً تُعَفّيها الرِّياحُ سَواهِكا	25
34	يا دارَ عبلَةَ بالجواءِ تَكَلّمي	وَعِمي صَباحاً دارَ علبةَ واسْلَمى	25
35	شيَاهٌ رائعاتٌ بقَفرَةٍ	بُمستأسِدِ القُريانِ حُوٌّ مَسائلُهْ	25
36	وأبيضَ عاديٍّ تلوحُ مُتُونُهُ	على البيد كالسَّحْلِ اليماني المَبلَّجِ	26
37	تَخِفّ الأرضُ إن تفقدك يوماً لأنكَ موضِعُ القُسطاسِ منها	وتبقى ما بقيتَ بها ثقيلاً فتمنعُ جانِبَيْها أن تَميلا	26
38	وإذا تهيجُ الرِّيحُ من صُرَّدِها	ثَلجاً يُنيخُ النِّيبَ بالجَعْجاعِ	27
39	وراحت الشَّوْلُ مُغْبَرَّاً مَباءَتُها وأحْجَرَ الكلبَ موضوعُ الصقيع به	شُعْثاً تغيّر منها النّيُّ والوَبَرُ وأَلْجأَ الحَيَّ تَنْفاحِه الحُجَرُ	27
40	تُجْنَى لكَ الكَمْأَةُ رِبْعيَّةً	بالْخَبّ تَنْدى في أُصُولِ القَصيصْ	28

41	وحَطَّ وُحُوشَ صاحَةَ من ذُراها أقُولُ وَصَوْبُهُ مِنّي بَعيدٌ	كأنَّ وُعُولَها رُمْكُ الجِمالِ أقُولُ وَصَوْبُهُ مِنّي بَعيدٌ	29
42	تَغيرَّتِ الديارُ بِذِي الدَّفينِ	فَأَودِيَةِ اللِّوى فَرِمالِ لينِ	29
43	قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل	بسقط اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْمِلِ	30
44	يُهَدُّ لهُ ما دُونَ رَملةِ عالجٍ	ومن أَهلُهُ بالغورِ زالت زَلازِلُهْ	30
45	فَشَبَّهتُهُمْ في الآلِ لما تَكَمَّشُوا أو المُكْرَعاتِ من نَخيلِ ابن يامِنٍ سَوَامِقَ جَبّارٍ أثِيثٍ فُرُوعُهُ	حَدَائقَ دَوْمٍ أَو سَفيناً مُقَيَّرا دُوَينَ الصَّفَا اللائي يَلِينَ المُشقَّرَا وَعالَينَ قِنْواناً منَ البُسْرِ أحمَرا	31
56	فَدعْ ذا وَسَلِّ الهمَّ عنكَ بجَسْرَةٍ تُقَطِّعُ غِيطاناً كأنَّ مُتُونَهَا	ذَمُولٍ إذا صَامَ النَّهارُ وَهَجّرا إذا أظهرَتْ تُكسَى مُلاءً مُنَشَّرا	31
57	بكرن بكوراً واستحرن بُسحرةٍ ظَهَرْنَ من السوبان ثم جَزَعْنَه	فهُنّ ووادي الرسّ كاليد في الفم على كُلِّ قَينِيّ قَشِيبٍ ومُفْأَمِ	31
58	وادي الأَحَصِّ لقد سَقَاك من العِدَى	فَيْضَ الدُّموع بأَهْلِهِ الدَّعْسُ	32
59	ألا رُبَّ يومٍ لكَ مِنْهُنّ صالحٍ	ولا سيّما يومٍ بدارَةِ جُلجُلِ	32
60	سَمِعْتُ بِدارَةِ القَلْتَيْنِ صَوْتاً	لَحَنْتَمَ فالفُؤادُ به مَرُوعُ	32
61	جزى اللهُ أفناءَ العَشيرَةِ كُلِّها	بِدَارَةِ مَوْضوعٍ عُقُوقاً ومَأْثَماً	33
62	لِخَوْلَةَ أطلالُ ببُرقَةِ ثَهمَدِ	تلوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَدِ	33
63	لِمَنِ الدِّيارُ ببُرقَةِ الرَّوخانِ	دَرَسَتْ وغَيَّرها صُرُوفُ زمَانِ	33
64	تَرْعَى رياضَ الأَخْرَمَينِ لَهُمْ	منها مَوَارِدُ مَاؤُها غَدَقُ	34
65	هَلَكَتْ عامرٌ فلَمْ يَبقَ منها	برياضِ الأعرافِ إلاَّ الدِّيارُ	35
66	وَشِعْبٍ كَشَلِّ الثَّوْبِ شَكْسٍ طَرِيقُهُ بِهِ مِنْ سُيُولِ الصَّيفِ بِيضٌ أَقَرَهَا	مَجَامِعُ صُوْحَيْهِ نِطَافٌ مَحَاصِرُ جُبَارٌ لِصُمِّ الصَّخْرِ فِيهِ قَرَاقِرُ	35
67	كعُرُوضِ فَيَّاضٍ على فَلَجٍ	تَجْري جَدَاوِلُهُ على الزَّرْعِ	35
68	يُغرِّدُ بين خُرْمٍ مُفضياتٍ	صَوافٍ لم تُكدِّرْها الدِّلالُ	35
69	يَجُمُّ على السّاقينِ بَعدَ كلالِهِ	جُموع عُيونِ الحِسْيِ بَعدَ المَخيضِ	35
70	وَنَشْرَبُ إنْ وَرَدْنا الماءَ صَفْواً	وَيَشْرَبُ غَيْرُنا كَدِراً وطينا	36
71	وسابغةٍ منْ جيادِ الدَّرُو كمَاءِ الغَدِيرِ زَفَتْهُ الدَّبُورُ	عِ تَسْمَعُ للسَّيف فيها صَلِيلاً يَجُرُّ المُدَجَّجُ منها فُضُولا	36

72	أَعْدَدْتُ للأَعْداءِ مَوْضُونِةً أَحْفِزُها عَنِّي بِذِي رَوْنَقٍ	فَضْفَاضَةً كالنَّهْيِ بالقَاعِ مُهَنَّدٍ كالمِلْحِ قَطَّاعِ	36
73	فما الفراتُ إذا هَبَّ الرّياحُ له يوماً بأجودَ منه سَيْبَ نافِلَةٍ	ترمي أواذِيُّهُ العِبْرَينِ بالزَّبَدِ ولا يحُولُ عَطاءُ اليومِ دُونَ غَدِ	36
74	يَجُمُّ على السّاقين بَعدَ كَلالِهِ	جُمومَ عُيونِ الحِسْيِ بَعدَ المَخيضِ	37
75	وكأن رُبّاً أو كُحَيْلاً مُعْقداً	حَشَّ الوَقُودُ به جوانبُ قُمْقُمِ	38
76	ألم تر أنّ العَرْضَ أصْبَحَ بَطْنُها	نَخِيلاً وَزَرْعاً نابِتاً وفَصَافِصَا	38
77	أَشَاقَتْكَ أَظعَانُ بِجَفْنِ يَبَنْبَمِ	نَعَمْ بُكُراً مِثْلَ الفَسيلِ المُكَمَّمِ	38
78	وأيام حَجرٍ إذْ يُحَرَّقُ نخلُهُ كأنَّ نخيلَ الشطِّ غِبَّ حريقه	ثأَرْناكُمُ يوماً بتحريقِ أرْقَمَ مآتِمُ سودٌ سلَّبتْ عند مأتَمِ	39
79	عَلَوْنَ بأُنطاكِيّةٍ فَوْقَ عِقْمَةٍ	كجِرْمةِ نَخْلٍ أوْ كجَنّةِ يَثْرِبِ	39
80	ونحنُ أُناسٌ عُودُنا عودُ نَبْعَةٍ	إذا انتسَبَ الحيّانِ: بَكرٌ وتَغْلِبُ	39
81	باكرتها الإغرابُ في سِنَةِ النّوْ	مِ فتجري خلالَ شَوْكِ السَّيالِ	40
82	كأنَّ أطَاولَ شَوْكِ السيال	تَشُكّ بها مَضْجَعي شَاجِرَهْ	40
83	فبِتُ كأنّ العائدات فرَشْنَني	هَرَاساً به يُعْلى فِراشي ويُقْشَبُ	40
84	كأني غَداةَ البَينِ يَوْمَ تَحَمّلو	لدى سَمُراتِ الحَيّ ناقِفُ حنظلِ	40
85	خَوْدٌ مُبَتَّلَةَ العِظامِ كأنَّها	بَرْدِيَّةٌ نَبتَتْ خِلالَ غُروَسِ	41
86	وتضحكُ عن غُرّ الثّنايا كأنّهُ	ذُرَى أُقحُوانٍ نبتُهُ مُتناعِمُ	41
87	بَيْضاءُ ضَحْوَتُها وصَفْــ	ــراءُ العشِيُةِ كالعَرارة	41
89	بذَلّتْهُ الشَمْسُ من مَنْبَتِهِ	بَرداً أبيضَ مَصْقولَ الأُشُرْ	49

المراجع والمصادر

ــ القرآن الكريم .

- إبراهيم، مدحت حافظ: **الإشارات العلمية في القرآن الكريم**، مكتبة غريب– الفجالة .
- ابن أبي خازم، بشر:**ديوان بشر بن أبي خازم** ،تحقيق، عزّة حسن ،دمشق، 1379هـــ، 1960م، ص16، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم .
- ابن أبي سلمى، زهير: **ديوان زهير بن أبي سلمى**، شرح وتقديم: علي حسن مــاعور، ط1، دار الكتب العلمية – بيروت، 1408هــ–1988.
- ابن أبي الصّلت، أمية: **ديوان أمية بن أبي الصلت** ، ط1، المكتبــة الأهليــة، بيــروت، 1352هــ– 1934م.
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبدالكريم: **المثل السائر في أدب الكاتب والمشاعر**، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، جــزء1، شــركة مكتبــة ومطبعــة مصطفى البابى الحلبي بمصر، 1358هــ– 1939م .
- ابن حجر ، أوس: **ديوان أوس بن حجر**، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجــم، ط2 ،دار صادر– بيروت، 1387هــ– 1967م.
- ابن زكريا ،أبو الحسن احمد بن فارس : **معجم مقاييس اللغة** ، مادة: "سطر " ، تحقيــق وضبط: عبدالسلام محمد هارون ، جزء3 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي:**المخصــص**، مجلــد3، ســفر11، دار الفكر– بيروت .
- ابن عاشور ، محمد الطاهر : **تفسير التحرير والتنوير**، دار سحنون للنشر والتوزيــع ، تونس ، 1997 م .
- ابن العبادي، عدي: **ديوان عدي بن العبادي** ، تحقيق: محمد جبّار المعيبد، شــركة دار الجمهورية للنشر والطبع– بغداد .

- ابن فارس ،أبو الحسين أحمد: **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، تحقيق وتقديم: مصطفى الشّويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر: بيروت– لبنـــان، 1963م– 1382هـــ.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل :**تفسير القــرآن العظــيم**، مكتــب الجــامعي الحــديث– الإسكندرية .

- ابن كلثوم، عمرو: **ديوان عمرو بن كلثوم**، ط1، دار صادر للطباعة والنشر – بيروت، 1996 .

- ابن منظور: **لسان العرب المحيط** ، مجلد2، دار لسان العرب– بيروت، تقديم: العلامة الشيخ عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف : يوسف خيّاط.

- أبو حيان ، محمد بن يوسف : **تفسير البحر المحيط** ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1398 هـ - 1978 م .

- أبو زيد، علي ابراهيم: **الصورة الفنية في شعر دعبل**، ط2، دار المعــارف، القــاهرة، 1983م . شلبي، طارق سعيد: **بلاغة الصورة القرآنيــة– الجماليــات والتجليــات**، دار البُراق– القاهرة.

- أبو السعود، محمد بن محمد العمارى: **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

- أبو سويلم، أنور: **المطر في الشعر الجاهلي**، ط1، دار عمار للنشر والتوزيع– عمــان، 1407هــ، 1987م.

- أبو العدوس، يوسف: **الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، الأبعاد المعرفية والجماليــة**، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1997م .

- أبو علي، محمد بركات: **فصول في البلاغة**، ط1، عمّان، دار الفكر للنشــر والتوزيــع، 1403هــ – 1983م .

- الأسد، ناصر الدين: **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية**، دار المعارف بمصـــر، 1956م .

- الأسدي، عبيد بن الأبرص: **ديوان عبيد بن الأبرص الأســدي** : دار صـــادر للطباعـــة والنشر – بيروت .

- الأصمعي، أبو عبدالملك بن قُريب بن عبدالملك: **الأصمعيات**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر .

- الأعشى :**ديوان الأعشى**، تحقيق وتقديم: فوزي عطوي،الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت .

- الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين: **روح المعاني في تفسير القــرآن العظــيم والســبع المثاني** ،دار إحياء التراث العربي – بيروت .

- الآلوسي، محمود شكري: **بلوغ الأَرَب في معرفة أحوال العرب**، دار الكتــب العلميـــة– بيروت.

- الأندلسي، أثير الدين أبو عبدالله محمد بن يوسف الأندلسي: **البحر المحيط**، جــزء6، دار إحياء التراث العربي.

- بدوي، أحمد أحمد: **من بلاغة القرآن**، ط3، مكتبة نهضة بمصر .

- البستاني، بطرس: **محيط المحيط**: ، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1998 .

- البطل، علي: **الصورة الفنية في الشعر العربي** حتى أخر القــرن الثــاني الهجــري ــ دراسة في أصولها وتطورها ، ط 1 ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1980.

- البقاعي ، برهان الدين أبو الحسن : **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1415هـ - 1995م.

- البكري، طرفه بن العبد: **ديوان طرفة بن العبد**، شرحه وتقديم : مهدي محمــد ناصــر

الدين، ط1، دار الكتب العلمية- بيروت: لبنان، 1407هـ - 1987م .

- البيضاوي: **تفسير البيضاوي**، تحقيق: عبدالقادر عرفات حسونة، جزء5، دار الفكر- بيروت، 1416هـ، 1996م.
- الثعالبي، أبو إسحاق: **عرائس المجالس**، تحقيق: محمد سيّد، ط1، دار الفجر للتراث – القاهرة، 1422هـ، 2001م .
- الثعالبي، عبدالرحمن محمد مخلوف: **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، جزء1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .
- الجرجاني، عبدالقاهر: **أسرار البلاغة**، تعليق: أحمد مصطفى المراغى، مطبعة الاستقامة، القاهرة .
- الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، ط1، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، 1409هـ -1988م .
- جياووك، مصطفى عبداللطيف: **الحياة والموت في الشعر الجاهلي**، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، 1977م .
- حجازي، محمد عبدالواحد: **الإحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم**، ط1، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، 1998.
- حسن، عبدالقادر: **فن البلاغة**، ط2، عالم الكتب- بيروت، 1405هـ، 1984م .
- حسين،عبد القادر: **أضواء بلاغية على جزء الذاريات**، دار غريب للطباعة والنشر – القاهرة، 1998م .
- الحطيئة :**ديوان الحطيئة**، اعتنى به وشرحه: حمدُو طمّاس، ط1، دار المعرفة، بيروت- لبنان، 1423هـ- 2003م .
- الحموي ،شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت : **معجم البلدان**، تحقيق: فريد عبدالعزيز

الجندي ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410هـ، 1990م .

- خان ، محمد عبدالمعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ــ القاهرة .
- خضر،هالة محجوب: **الإبداع الإلهي بين الجمال والجلال**، ط1، دار الوفاء الدنيا للطباعة والنشر – الإسكندرية، 2006م .
- الخطيب، علي أحمد: **فن الوصف في الشعر الجاهلي**، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1424هـ – 2004م .
- الخطيب، محمد: **الدين والأسطورة عند العرب في الجاهلية**، ط1، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة. سورية– دمشق، 2004م .
- الخطيم، قيس بن : **ديوان قيس بن الخطيم** ،تحقيق: ناصر الدين الأسد، ط2، دار صادر – بيروت، 1387هـ– 1967م .
- خليف، يوسف : **الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي**، مكتبة غريب .
- خليل، أحمد خليل، **مضمون الأسطورة في الفكر العربي**، الأسوار للطباعة والنشر– عكا القديمة.
- الخنساء، **شرح ديوان الخنساء**، شرح وتحقيق، عبدالسلام الحوفي، دار الكتب العلمية– بيروت،1405هـ، 1985م .
- الدرويش، محي الدين، **إعراب القرآن الكريم**، ط9، دار اليمامة: دمشق– بيروت، 1424هـ، 2003م.
- دغيم، سميح: **أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام**، الطبعة الأولى، دار الفكر اللبناني، بيروت، ، 1995م.
- الذبياني ، النابغة: **ديوان النابغة الذبياني** ،تحقيق وشرح: كرم البستاني، دار صادر،

بيروت، 1379هـ، 1960م.

- الرازي ، الفخر : **التفسير الكبير** ، دار الكتب العلمية – طهران .
- الرفوع، خليل عبد سالم: **في النصوص الجاهلية- مظاهر الحضارة الاقتصادية والاجتماعية العربية**، ط1، دار حنين للنشر والتوزيع، عمان، 1425هـ- 2005م.
- الزبيدي، محمد مرتضى: **تاج العروس**، مادة: " سطر"، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت: لبنان .
- الزركشي، الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله: **البرهان في علوم القرآن**، ج2.
- زكي، أحمد كمال: **الأساطير**، دراسة حضارية مقارنة، ط2، دار العودة، 1979م.
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله: **أساس البلاغة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، 1409هـ، 1989م.
- الزمخشري ، أبو القاسم جار الله: **أساس البلاغة** ، ط1 ، مكتبة لبنان ناشرون، 1996 .
- الزمخشري، أبو القاسم جار الله : **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- الزوزني، أبو عبدالله الحسين بن أحمد : **شرح المعلقات السبع**، تقديم: عبدالرحمن المصطاوي، ط2، ، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 1425هـ- 2004م .
- السامرائي، فاضل : **على طريق التفسير البياني**، جزء2، مركز البحوث والدراسات،2005م .
- السعدي، داود سلمان: **أسرار الكون في القرآن**، ط2، دار الحرف العربي، بيروت- لبنان، 1420هـ- 1999م .
- السكاكي، سراج الملة والدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي: **مفتاح العلوم**، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان،

1403هـ- 1983م

- السواح ،فراس: **الأسطورة والمعنى**، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط1، 1997م ، منشورات دار علاء الدين- دمشق .
- السوّاح، فراس: **مغامرة العقل الأولى**، دراسة في الأسطورة، ط11، دار علاء الدين. دمشق . الخطيب، محمد: **الفكر الإغريقي**، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 1999م .
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر و المحلّي، جلال الدين محمد بن أحمد :**تفسير الجلالين**، و ، تقديم ومراجعة: مروان سوار، دار المعرفة: بيروت – لبنان .
- شداد، عنترة بن : **ديوان عنترة بن شداد**، تحقيق: فوزي عطوي، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر: بيروت- لبنان، 1388هـ-1968م .
- شراً ، تأبط :**ديوان تأبط شراً** ،اعتنى به: عبدالرحمن المصطاوي، ط1، دار المعرفة: بيروت- لبنان، 1424هـ- 2003م .
- الشوري ،مصطفى عبدالشافي: **الشعر الجاهلي**، تفسير أسطوري،ط1 ، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان ، 1996 م.
- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد: **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية عن علم التفسير** ، دار الفكر، بيروت .
- الصائغ، عبدالله: **الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997.
- الصابوني، محمد علي: **صفوة التفاسير** ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- صناوي، سعدي: **أثر الصحراء في الشعر الجاهلي**، ط1، دار الفكر اللبناني: بيروت، 1993.
- الضبيّ، المفضل بن محمد بن يَعلَى: **المفضليات**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر

وعبدالسلام محمد هارون، ط6، بيروت، لبنان .

- ضيف، شوقي: **العصر الجاهلي**، ط7، دار المعارف بمصر– القاهرة .
- الطائي ، حاتم : **ديوان حاتم الطائي**، شرح أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، دار الكتاب العربي: بيروت، 1425هـ، 2004م .
- الطاهر، بن عيسى: **المقابلة في القرآن الكريم**، ط1، دار عمّار، 2000م .
- الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن: **مجمع البيان في تفسير القران** ، مطبعة العرفان – سوريا ، 1355هـ .
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن خالد: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، بيروت، 1405هـ.
- عامر، فتحي أحمد: **المعاني الثانية في الأسلوب القرآني**، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1976م.
- العامري ، لبيد بين أبي ربيعة :**ديوان لبيد بين أبي ربيعة العامري**، دار صادر، بيروت، 1966م– 1386هـ .
- عبد الحافظ، صلاح: **الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره**، دار المعارف: الإسكندرية.
- عبدالرحمن، عائشة: **التفسير البياني للقرآن الكريم**، دار المعارف بمصر، 1962م .
- عبدالرحمن، نصرت: **الصورة الفنية في الشعر الجاهلي**– في ضوء النقد الحديث، مكتبة الأقصى– عمان، 1976م .
- عبدالله، محمد صادق حسن: **جماليات اللغة وغنى دلالاتها**، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1993م .
- عتيق، عبد العزيز: علم المعاني، دار النهضة العربية– بيروت، 1405هـ، 1985م .

- عسكر ، قصي الشيخ: **أساطير العرب قبل الإسلام وعلاقتها بالديانات القديمة**، ط1، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع 2007م .
- عصفور، جابر: **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، 1983 .
- عطوان، حسين: **مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي**، دار المعارف بمصر: القاهرة .
- علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1970م.
- عوض ، لويس شيخو: **شعراء النصرانية قبل الإسلام** ، ط4، دار المشرق– بيروت، 1991م .
- الغنوي،الطفيل : **ديوان الطفيل الغنوي** ،تحقيق محمد عبدالقادر أحمد ، ط1، 1968، دار الكتاب الجديد .
- فائز، أحمد: **اليوم الآخر في ظلال القرآن**، ط1، 1978.
- الفحل ، علقمة بن عبدة : **ديوان علقمة بن عبدة الفحل**، شرح وتعليق: سعيد نسيب مكارم، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1996م .
- الفندي، محمد جمال الدين: **القرآن والعلم**، ط1، دار المعرفة– القاهرة، 1968 م.
- فوغالي، باديس: **الزمان والمكان في الشعر الجاهلي**، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع: اربد–الأردن، 1429هـ، 2008م .
- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري: **الجامع لأحكام القرآن – تفسير القرطبي**، تقديم: هاني الحاج، تحقيق: عماد زكي البارودي وخيري سعيد، الجزء16، المكتبة التوفيقية.
- القزويني، الخطيب: **الإيضاح في علوم البلاغة**، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، جزء1، ط3، المكتبة الأزهرية للتراث، 1413هـ، 1993م.

- قطب، سيّد: **التصوير الفني في القرآن الكريم**، ط5، دار الشروق، 1399هـ، 1979م.
- قطب، سيد: **في ظلال القران**، دار الشروق – بيروت، ط9، 1400هـ، 1980م .
- قطب، محمد: **دراسات قرآنية**، ط2، دار الشروق، بيروت، 1400هـ، 1980م .
- القميحا، نزيه: **القرآن يتجلى في عصر العلم**، راجعه وحققه السيد نزار فضل الله، ط 1، دار الهادي 1997م، 1417هـ.
- القيرواني، أبي علي الحسين بن رشيق: **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، جزء 1 ، ط4، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت– لبنان.
- القيس ، امرؤ: **ديوان امرئ القيس**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت .
- القيس، عائذ بن محصن بن عبد: **شرح ديوان المثقب العبدي**، جمع وتحقيق وشرح: حسن حمد، ط1، 1996م، دار صادر– بيروت .
- القيسي، نوري حمودي: **الطبيعة في الشعر الجاهلي**، ط1، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، 1390هـ، 1970م .
- لاشين،عبدالفتاح: **البيان في ضوء أساليب القرآن**، ط2 ،دار الفكر العربي، 1422هـ، 2002م .
- لاشين، عبد الفتاح: **المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم**، دار الفكر العربي – القاهرة ، 1424 هـ – 2003 م .
- اللبدي، عبد الرؤوف سعيد عبد الغني: **همزة الاستفهام في القرآن الكريم**، المكتبة الوطنية– عمان: الأردن .
- محمود، جمال الدين محمد: **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، ط8، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 1402هـ– 1981م .

- المسعودي، أبو الحسن علي ابن الحسين بن علي: **مروج الـذهب ومعـادن الجـوهر**، مجلد1، ط1، 1982م- 1402هـ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان .
- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري: **صحيح مسلم**، تحقيق: الإمام النـووي، مجلد4، ط2، دار إحياء التراث العربي: بيروت – لبنان ، 1972م .
- مصطفى، محمود السيد: **الإعجاز اللغوي في القصة القرآنيـة**، ط1، مؤسسـة شـباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1981م .
- المطعنى، عبد العظيم إبراهيم: **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم**، جـزء2، ط1، مكتبة وهبة – القاهرة، 1420هـ، 1999م .
- المطلبي، عبدالجبار: **مواقف في الأدب والنقد**، منشـورات وزارة الثقافـة والإعـلام، الجمهورية العراقية، 1980م .
- نازك الملائكة: **قضايا الشعر المعاصر**، بيروت، دار الآداب، 1962م .
- ناصف، مصطفى: **قراءة ثانية لشعرنا القـديم**، ط2، دار الأنـدلس للطباعـة والنشـر والتوزيع، 1401هـ، 1981م.
- النّجار، زغلول راغب محمد: **حقائق علمية في القـرآن الكـريم**، ط1، دار المعرفـة: بيروت- لبنان، 1426هـ، 2005م .
- النّجار،زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: الأرض في القرآن الكريم**، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، لبنان، 1426هـ، 2005م.
- النّجار، زغلول راغب محمد: **من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القـرآن الكـريم**، ط1، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت: لبنان، 1425هـ، 2004م .
- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود : **تفسير النسفي** ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان .

- الهاشمي، أحمد: **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ط12 .
- الهذليين: **ديوان الهذليين** ، الدار القومية للطباعة والنشر- القاهرة، 1385هـ-1965م: القسم الثاني .
- اليوسف، يوسف: **مقالات في الشعر الجاهلي**، ط3، دار الحقائق بالتعاون ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، 1975.
- يونس، عيد سعد: **التصوير الجمالي في القرآن الكريم**، ط1، عالم الكتب، 1427هـ، 2006م.

ـ الرسائل الجامعية :

- عبدالرحمن، مروان محمد سعيد: **دراسة أسلوبية في سورة الكهف**، رسالة ماجستير، 2006.
- عودة، خليل: **الصورة الفنية في شعر ذي الرمّة**، رسالة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب ، القاهرة : جامعة القاهرة – كلية الآداب، 1987م .

ـ الدوريّات :

- عبد الرحمن ،إبراهيم: ***التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي***، **مجلة فصول**، مجلد1، العدد الثالث، ابريل 1981، جمادى الآخرة 1401 .
- عودة، خليل: ***مستويات الخطاب البلاغي في النص الشعري***، **مجلة النجاح للأبحاث**، المجلد13، عدد2، 1999م .
- موسوعة الشعر العربي: ***الشعر الجاهلي***، مجلد1، **شركة خيّاط للكتب والنشر**- بيروت: لبنان 1974م .